



التاريخ السري لأعير هوساشي

جونتشيرو تانيزاكي

ترجمة : كامل يوسف حسين



دار الآداب

علي مولا

جونيتشيرو تانيزاكي

التاريخ السري للأمير موساشي

رواية

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٩

مقدمة المترجم

من المحقق أن القارئ العربي ، الذي تابع بحب وتعاطف ، تجليات مشروعا للتعريف بالرواية والمسرح اليابانيين ، قد لاحظ أن غالبية الكتاب الذين تصدينا للتعريف بهم أو لترجمة أعمالهم هم كتاب لا تعرفهم المكتبة العربية ، رغم شهرتهم العالمية ، أو على الأقل لم تعرف من قبل الأعمال التي نقلناها إلى العربية عنهم .

غير أننا لا نستطيع هنا الزعم بأن هذه القاعدة تنطبق على تانيزاكي ، فالتعريف بهذا الكاتب العملاق تمّ على يد كتاب ومترجمين عرب أفاضل منذ ما يزيد على ربع القرن من الزمان ، وقد أتيح للقارئ العربي الإطلاع على جانب من إبداعه .

من هنا ، على وجه الدقة ، بدا غريباً لنا حقاً أننا حاولنا العثور على أي من أعمال تانيزاكي البارزة في طبعة عربية ، دون أن يكمل مسعانا بالتوفيق . حقاً إننا وجدنا ترجمات عربية طيبة لبعض قصصه القصيرة متناثرة هنا وهناك . ولكننا لم نعثر على أثر قط لأي عمل بارز له .

ربما لهذا نعتقد أننا بتقديمنا هذا المجلد المائل بين يدي القارئ نسد فراغاً في المكتبة العربية ، ونستدرك بعضاً من كثير فاتنا .

مع ذلك ، فإن هذا كله لا يعفيينا من واجب نرى أن من

الضروري الاضطلاع به ، وهو جلاء بعض النقاط ، التي تبدو غامضة في حياة وأدب تانيزاكي ، ومن ثم الإطلال على عالمه الروائي ، مع إشارة خاصة إلى العاملين اللذين يضمهما هذا الكتاب ، وهما « التاريخ السري لأمير موساشي » و « المرنطة » * .

الحقيقة التي تلفت نظرنا ، بادية ذي بدء ، هي أنه ربما لم يقدر لكاتب أن يوصف بقدر هائل من الأوصاف وأن يحسب على تيارات عديدة ومتناقضة وأن تقسم مراحل إبداعه إلى تصنيفات شديدة الغرابة على نحو ما حدث لتانيزاكي .

فدائرة المعارف البريطانية لا تتردد سواء في القسم المختصر منها تحت اسم الكاتب نفسه ص ٨٠٧ أو في القسم الموسع منها تحت عنوان « أدب شرق آسيا » - ج ١٠ ص ١٠٧٢ في القول بأنه كاتب تتسم كتاباته بالنزعة الشهوانية والتقليدية ، ويسارع الباحث الأميركي البارز في الدراسات اليابانية الأدبية إلى وصفه في كتابه « مناظر ولوحات » بأنه رائد من رواد المدرسة الرومانسية الجديدة . أما مجلة « ماغازين ليرير » الفرنسية فهي تقفز عبر المجهول في ملف لها أفردته للأدب الياباني المعاصر إلى القول بأن أبرز المحاور التي ينبغي التصدي لها لدى معالجة عالم تانيزاكي الروائي هي : « الشذوذ - الكلاسيكية - الشكلائية » . ويحرص العلامة مارتين سيمور سميث على أن يؤكد لنا أن أسلوب تانيزاكي في نضجه لم يكن « انطباعياً على وجه الحصر » .

ترى أين جونتشيرو تانيزاكي من هذا كله ؟

(*) المرنطة : نبات له جذور يستخرج منها نشاء مغذ ، لاحظ ولع تانيزاكي بالحديث عن النباتات والربط بينها وبين البشر ، كما في العمل الذي يحمل هذا الاسم ، وفي روايته « البعض يفضلون القُرَّاص » . (ه . م .) .

ولد تانيزاكي في ٢٤ يوليو ١٨٨٦ في مدينة طوكيو ، ورحل عن عالمنا في ٣٠ يوليو ١٩٦٥ في يوجاوارا. وبين التاريخين والمكانين امتدت رحلة هائلة ، قد لا نبالغ إذا وصفناها بأنها رحلة دائرية من النقيض إلى النقيض .

وبعض الكتاب يميل إلى تقسيم آلي محض لهذه الرحلة ، مركزاً على أن نقطة الانكسار كانت في الزلزال الهائل الذي وقع في عام ١٩٢٣ ، فدمر يوكوها التي كان الكاتب يقيم فيها بكاملها وقضى على شطر من مدينة طوكيو ، ويشير إلى أنه قبل انتقال تانيزاكي للإقامة في منطقة كيوتو معقل التقاليد اليابانية العريقة كان يميل في اتجاه الدفع نحو المزيد من انطلاق اليابان باتجاه أساليب الحياة والإنتاج الغربية، وأنه في المرحلة الثانية عاد ليتحفظ على كثير من آرائه في المرحلة الأولى .

ومن المؤكد أن هذا التفسير ، ربما لسهولة البالغة ولخلوه من التعقيدات ، يغري بتبنيّه على الفور كتفسير وحيد لمسار تانيزاكي . ولكن عيبه شديد الوضوح هو أنه لا علاقة له بالواقع .

فلنبداً ، إذن ، من البداية كما يقولون .

الحقيقة الأولى هنا هي أن تانيزاكي ولد لعائلة تنتمي إلى طبقة التجار اليابانية القديمة التي تنامت في مرحلة نمو مدينة إيدو ، أي طوكيو القديمة وتوسعها ، وهي طبقة تركت بصمتها القوية على تاريخ اليابان الحديث ، وهناك من الباحثين من يذهبون إلى أنه رغم كل محاولات ضربها، فقد كانت هي الطبقة الأكثر حيوية ونشاطاً وقدرة على مواصلة البقاء ربما حتى اليوم .

إذا أضفنا هذا إلى دراسة تانيزاكي للأدب الياباني التقليدي في

جامعة طوكيو الامبراطورية وفي الوقت نفسه انطلاقه يغترف بنهم لا يشبع من ثمار حركة الترجمة اليابانية النشطة في هذه الفترة واطلاعه عند بداية ممارسته للكتابة على أعمال أوسكار وايلد وإدجار آلان بو وبودلير وابسن وزولا وستراندبرج وغيرهم، لأدركنا لماذا استقر في أعماق تانيزاكي الشاب ضرورة الأخذ بالمناهج الغربية لا في التنمية والتحديث فحسب وإنما في الحياة والسلوك أيضاً .

من هنا لا يبدو لنا غريباً أنه في وقت واحد شعر بالقلق على أهله في طوكيو وقت وقوع زلزال ١٩٢٣ ، وبالفرح لأن طوكيو بعد إعادة إعمارها ستنتقل إلى مدينة غربية .

لماذا ؟

إن دونالد كين ينقل عن تانيزاكي رداً فورياً : « هذا هو منعطف العصر المحتوم. وسواء أحبه المرء أم لم يحبه ، فإن هذا هو ما سيقع » .

غير أن عالم تانيزاكي الروائي يصور لنا ، ببطء شديد ، إدراك الكاتب أن هذا التغريب إذا انطلق مطلق السراح في اليابان من شأنه أن يتحول إلى تخريب ما لم يعادله بعث مقابل لأرقى ما في التقاليد الحضارية اليابانية .

ويمكن ، بأوسع المعاني، تصوّر ثلاث مراحل ، اجتازها هذا العالم الروائي الذي شاد تانيزاكي صرحه في غمار رحلته الدائرية تلك :

فقد بدأ الكاتب الياباني الكبير مسار إبداعه متأثراً بكتاب الغرب الذين قرأ لهم وبصفة خاصة وايلد ، وبو ، وبودلير ؛ وفي هذه المرحلة شغله ذلك الارتباط الغائم والغريب بين نزعة التحلل

والانحدار وبين الجنس ، وتجسد هذه البداية قصة قصيرة محددة هي الضحية - التي ترجمت إلى العربية مراراً وتكراراً تحت عنوان « الوشم » ، ونشرها عام ١٩٠٩ . وفي كتابه الذي يركز فيه على تزواج الشهوة والقتل بعنوان « قضية الربيع » ١٩١٤ يستمر هذا الاتجاه ، جنباً إلى جنب مع الاهتمام بالموضوعات التاريخية .

لكن التحول التدريجي من المناداة بالتغريب على إطلاقه إلى ضرورة التحديث وبعث الروح اليابانية العريقة يشرع ويبدأ في ترك بصمته في المرحلة الثانية لتطور عالم تانيزاكي الروائي ، ويبدو هذا في رواية « عشق الأبله » - التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية تحت اسم البطلة « ناومومي » ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، وتلك رواية يبدو فيها واضحاً تبني أسلوب الكاتب الإنجليزي سومرست موم في روايته الضافية « عبودية إنسانية » وإعادة صياغتها في إطار ياباني . ورغم أنها لا ترضينا كعمل فني ، إلا أنها تكشف تقلقل إيمان تانيزاكي بالتغريب المطلق ، بل لعلها تحذير من خطورة هذا المنهاج لمن يتبنونه على إطلاقه .

وشأن كل كتاب اليابان جميعاً فإن عنصر السيرة الذاتية يترك بصمته على عمل تانيزاكي رغم أنه هو نفسه يصارحنا ، كما سنرى بعد قليل ، بأنه لا يطبق عملاً روائياً يشتّم منه أن الكاتب يتحدث عن نفسه . فنحن في رواية « البعض يفضلون القُرَاص » ١٩٢٨ نجد أنفسنا بإزاء عمل يوشك أن يكون صريحاً في تحديده لمعالم الحياة الخاصة لكاتبه ؛ فهنا قصة دمار الحياة الزوجية للكاتب مسطرة بصراحة جارحة ، ونلاحظ بصفة خاصة أن البطل يضيق ذرعاً بزواجه « العصرية » ، ويُجذب بالمقابل إلى خلية أبيه ، وهي حسناء يابانية تتمسك بالطرق التقليدية في الحياة والحب .

ابتداءً من الثلاثينيات والأربعينيات يلج تانيزاكي مرحلته الثالثة والأخيرة باعتباره كاتباً من أبرز كتاب اليابان ، وإلى هذه المرحلة ينتمي العملان اللذان يضمهما هذا المجلد ، لكننا قبل أن نلقي إطلالة عجل على عليهما نود أن نشير إلى إنجازين حلّقا بتانيزاكي إلى سماء الإبداع الياباني .

أما العمل الأول فهو قيامه - ثلاث مرات - بنقل رائعة موراساكي شيكيبو الفاتنة المنتمية إلى القرن الحادي عشر الميلادي والموسومة « حكاية جينجي » من اليابانية القديمة إلى اليابانية العصرية المتداولة بين القراء العاديين .

أما العمل الثاني فهو رائعته الفريدة « الأخوات ماكيوكا » ١٩٤٣ - ١٩٤٨ . ويلفت النظر هنا أن السلطات اليابانية أوقفت نشر هذا العمل خلال الحرب بحجة أنه يتعارض والمجهود الحربي . والحق أن الرواية تمثل انطلاقة فريداً حتى في إطار عالم تانيزاكي الروائي المدهش نفسه ، فهي تحكي بنعومة وبتفاصيل سحرية قصة أخوات أربع في اليابان ١٩٣٩ - ١٩٤٩ ، ومناطقها هو البحث عن زوج للأخت الصغرى . ولكنها ، في حقيقة أمرها ، رحلة هائلة ، يحاول تانيزاكي من خلالها وضع يده على جوهر العبقريّة الحضارية لليابان . وفيما يتعلق بـ « التاريخ السري لأمير موساشي » و « المرنطة » اللذين نقدمهما للقارئ العربي هنا ، سنرى حالاً كيف أنهما كانا من الأعمال الأثيرة لدى تانيزاكي والمحبة إلى نفسه .

لكن ما أتمنى على القارئ أن يتأمل فيه كثيراً هو هيكل هذين العملين ، كعالمين قائمين بذاتهما ، كبنيتين تتقدمان لنا بأسرارهما ، وبمغاليقهما ، وأيضاً بعلاماتهما الخاصة فيما تتحدّياننا أن نرتحل معهما .

سنلاحظ على الفور أن العمل الأول كتب بالإحالة إلى الأسلوب التوثيقي ، إذ يتناهى لنا عبر مخطوطات قديمة تفضى أسرارها ، وهو أسلوب يبدو أثيراً اليوم لدى بعض الكتاب العرب ، وقد يهمهم أن يروا عملاً مكتوباً بهذا الأسلوب ولكن مع فارق بسيط هو نصف قرن من الزمان فحسب .

أما العمل الثاني فقد يخاطب من يتحمسون لأسلوب القصة - المقال ، ومن تداعب خيالهم منجزات الواقعية السحرية ، وقد يهمهم أن يروا عملاً وصل إلى هذا الحد من الإبداع ، قبل أن يجد هذا الاصطلاح من يتصدى لصياغته .

وربما كانت أبرز جوانب عبقرية تانيزاكي اقدرته على استقطابنا نحو اقتحام المجهول . هنا جانب من تجليات هذه العبقرية .

فهل نبدأ رحلتنا معه ؟

المترجم

مقدمة

في عام ١٩٤٨ ، وبعد أن أتم تانيزاكي رائعته الموسومة « الأخوات ماكيوكا » كتب يقول إن أقرب أعماله إلى قلبه هي « البعض يفضلون القُرَاص » (١٩٢٨ - ١٩٢٩) و « المَرْنُطَة » (١٩٣٠) . وكانت رواية « التاريخ السري لأمير موساشي » ، التي كتبت في الفترة من ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، من الأعمال الأخرى الأثيرة لديه . وغالباً ما كان يتحدث عن كتابة تكملة لها ، عُثر على مخططها العام ، بعد وفاته .

وتتتمي « المرنطة » و « التاريخ السري لأمير موساشي » إلى السنوات الوسيطة من حياة تانيزاكي الإبداعية الفضة . وفي الوقت الذي كتب فيه « المرنطة » ، كانت الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات والمقالات المتممة إلى العقدين الأول والثاني من إبداعه قد تم جمعها وإصدارها باعتبارها « أعماله الكاملة » . ولكنه قدر له أن يواصل إثارة الشعور بالصدمة والافتنان لدى قرائه بأعماله الجديدة ، وإضافة المزيد إلى أعماله المتميزة ، على امتداد خمس وثلاثين سنة أخرى . وفي عام ١٩٦٤ انتخب لنيل العضوية الشرفية في الأكاديمية الأميركية ومعهد الفنون والآداب ، ليكون أول ياباني يحظى بهذا التكريم .

وبوضح العمالان اللذان يضمهما هذا المجلد الحدود القصوى

لبراعة تانيزاكي ، وتعدد جوانب إبداعه ، غير أنهما يشتركان مع أعماله الروائية كافة في الخصائص الرئيسية ، التي تميز فن الروائي « السعي وراء المرأة المثالية » وإدراك أنه كما عبر ووردورث : « الطفل هو أبو الرجل » ، وأسلوب بليغ متميز بالثراء ، وفي المقام الأول الاستمتاع على الطراز القديم بالقصة الجيدة ، التي تروى على نحو رائع .

خلال الفترة من ١٩١٠ ، إلى ١٩٣٠ فضل تانيزاكي أسلوباً روائياً « تقليدياً » يمضي به قدماً وصف موضوعي على نحو صارم وحوار ، مثلما هو الحال في رواية « البعض يفضلون القراص » . ولكنه في الفترة الممتدة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٥ راح يجرب أعمالاً تجمع بين الشكل الروائي وطابع المقال ، تتسم بقدر أكبر من الدقة والذاتية ، الهدف منها هو « العثور على الشكل الذي ينقل أعظم شعور بالواقع » . وفي الوقت نفسه ، يتجلى اهتمام متجدد بالتاريخ الياباني وبالقيم الجمالية اليابانية في كتاباته ، في الفترة من عام ١٩٢٦ فصاعداً . وفي رواية « المرنطة » جمع بين اهتماماته الجديدة وتجريبه والتقاليد ، وذلك للمرة الأولى . وبعد أن توصل إلى هذا التركيب الموفق استغله في سلسلة من رواثعه ، بما في ذلك « حكاية ضرير » (١٩٣١) و « صورة لشونكين » (١٩٣٣) و « أم القبطان شيجيموتو » (١٩٤٩) .

ويبدو أسلوب السرد في كل من « المرنطة » و « التاريخ السري لأمير موساشي » مستلهماً من « راهبة كاسترو » لستندال ، وهو العمل الذي ترجمه تانيزاكي إلى اللغة اليابانية في عام ١٩٢٨ . والراوية في قصة ستندال ، شأن راوية « المرنطة » ، يرتحل إلى بقعة نائية في إيطاليا لتبين حقيقة قصة يكتُمها مؤرخون متحيّزون ، ومثل راوية

« التاريخ السري » ، فإنه يبنى قصته على أساس مخطوطين عتيقين .
فهو أن هناك ماركا ، لقد استخدم ستندال مخطوطات إيطالية
حديثة ، كأساس للحكايات الواردة في مؤلف « قصص إيطالية » ،
الذي يضم بين دفتيه قصة « راهبة كاسترو » ، بينما اصطنع تانيزاكي
المخطوطات التي يذهب إلى أن « التاريخ السري » يقوم على
أساسها ، وجميع الشخصيات والأحداث (باستثناء عدد من القادة
الذين ورد ذكرهم في التصدير والكتاب الأول) هي من نسج الخيال
الروائي . ومن ناحية أخرى فإن المصادر المذكورة في « المرنطة »
هي مصادر أصلية كلها .

وبالمناسبة ، فإنه لا يتعين على القارئ أن يفترض أن رواية
« المرنطة » هو تانيزاكي نفسه ، فقد كتب المؤلف يقول ، في
عام ١٩٦٤ : « إن الأم المذكورة في هذا العمل هي أم صديق
لسومورا ، وليست أمي ، ذلك أن أمي قد ولدت في فوكاجاوا بمدينة
إيدو في ١٨٦٤ ، وتوفيت في كاكيجارا - تشو بمنطقة نيهومباشي في
مدينة طوكيو في ١٩١٧ . وباعتبارها من بنات طوكيو الخالص ، فإن
قدمها لم تطأ غرب اليابان قط » .

ومن المحقق أن إبداع تانيزاكي الروائي أقل اتساماً بطابع السيرة
الذاتية من أعمال معظم الروائيين اليابانيين ، إذ كان يفضل استخدام
خياله ، وفي عام ١٩٢٦ كتب يقول :

« لقد اكتسبت مؤخراً عادة سيئة ، إذ ليس بمقدوري أن أحمل
نفسي على قراءة أو كتابة أي شيء يتخذ من حقائق الواقع مادة له ،
أو يتسم بالواقعية ، وذلك من أسباب عدم قيامي بمحاولة قراءة أعمال
المؤلفين المعاصرين ، التي تنشر في المجلات شهرياً ، حيث أمر
سريعاً بالسطور الخمسة أو الستة الأولى فأقول لنفسي : « آه ، إنه

يكتب عن نفسه ، وأفقد كل رغبة في مواصلة القراءة . وبصفة عامة ، فإنني أقرأ أشياء لا تربطها بالحاضر صلة ، وعندما أطلع الروايات التاريخية ، أو الحكايات المفرقة في الخيال ، بل والروايات الواقعية التي تعود إلى خمسين عاماً مضت ، أو الروايات الغربية المعاصرة ، البعيدة تماماً عن المجتمع الياباني ، فإن بمقدوري الاستمتاع بها بحسبانها عوالم تنتمي إلى الخيال .

من هنا ، وكما يمكن للمرء أن يتوقع ، فإن الهالة السحرية التي تحيط بأساطير « يوشينو » هي التي اجتذبت تانيزاكي إلى هناك وألهمته كتابة « المرنطة » . وهو في عام ١٩٦٤ يعيد إلى الأذهان أن : « مشاهدة ازدهار الكرز في طوكيو لا تعدو أن تكون مسألة متعلقة بالجلوس في غرفة لشرب الشاي ، وراء ستائر الخيزران ، مع تناول قطع الزلاية والقلقاس المشوي والبيض المسلوق وشرب زجاجات « الماساموني » . وفي ظلال هذه الزهور ، لا وجود لوشيتسوني ، أو واكابا - نو - نايشي ، أو شيزوكا أو تادانوبو أو جينكورو ، الثعلب ، أو طبل هاتسوني ، أو درع هايودوشي . ولا تبدو مشاهدة الازدهار ، دون هذه الأمور المرتبطة بها ، بمثابة مشاهدة حقيقية لازدهار الكرز على الإطلاق . . . فليس هناك خيال محلق يحيط بأزاهير طوكيو . ولكنني حينما ذهبت لمشاهدة المجالي الشهيرة لرؤية الازدهار في غربي اليابان ، أحسست كما لو كنت سألتقي في مكان ما بشبح واكابا - نو - نايشي ، أو بالسيدة شيزوكا ، بل إنني شعرت مرات كما لو كنت قد تحولت إلى ثعلب ، أو إلى « جونتا » ، ورحت أضرب في الأفاق ، وقد اجتذبتني قرع طبل أو صفير .

وشأن راوية « المرنطة » ، ربما كان تانيزاكي قد اعتزم أصلاً أن

يكتب ، على نحو ما أشار في عام ١٩٣٣ ، رواية تاريخية مطولة ، على غرار « كوفاديس » ، تجري أحداثها في يابان العصور الوسطى ، وتحفل برجالات البلاط وبشوجون وكهنة وحسنات ضالعات في علاقات عميقة ومعقدة ، ويتعرضن لتغيرات بعيدة المدى . وتعد رواية « التاريخ السري لأمير موساشي » جزءاً من ثمرة هذا الطموح . وكان تانيزاكي يجد الأعمال التاريخية اليابانية التقليدية التي تأثرت بشدة بالنزعة التقليدية الكونفوشية أعمالاً كثيفة ومفرقة في الطابع التعليمي ، وقد استهجن التأثير الكونفوشي على الأعمال الأدبية اليابانية ، فكتب يقول :

« لن يقدر لنا أن نعرف قط كم عدد العبقریات ، التي فقدھا ما يسمى بالأدب الخفيف ، بسبب المفهوم الذي كان رائجاً في العصر الإقطاعي ، والقاتل بأن الروایات والأعمال المسرحية إنما هي للترفيه عن النساء والأطفال ، ولا تليق بالساموراي . وكان حرياً بأديب مثل راي سانويو (١٧٨٠ - ١٨٣٢) على سبيل المثال ، أن يكتب روايات سياسية أو تاريخية ، تحظى ببعض الدفء الإنساني ، بدلاً من مؤلفه الجاف ذاك الموسوم : التاريخ غير الرسمي لليابان » .

وأحزن تانيزاكي كذلك أن يجد الموقف الكونفوشي والبوذي التقليدي من النساء - والقاتل بأنهن مخلوقات من طينة أدنى ، غير جديرات بالاكتراث - منعكساً في السجلات التاريخية ، فكتب في عام ١٩٣١ يقول :

« غالباً ما أحدث نفسي بأني أود كتابة رواية تاريخية ، تقوم على أساس إحدى شخصيات الماضي ، لكنني أصاب بالإحباط على الدوام من جراء صعوبة تشكيل صورة واضحة لامرأة أحاطت بهذه الشخصية . . فمند عهد غابرة ، قدمت أشجار أنساب

العائلات اليابانية ، من العائلة الإمبراطورية فما دونها ، صوراً مفصلة نسبياً لأنشطة الرجال ، ولكن حينما تظهر امرأة يشار إليها ببساطة على أنها « امرأة » أو « أنثى » ، وعادة ما يكون ذلك دونما إشارة إلى عام ميلادها ، أو وفاتها ، أو حتى اسمها . وبتعبير آخر فإن هناك أفراداً من الرجال في تاريخنا ، ولكن ليس هناك أفراد من النساء .

وفي العام التالي كتب :

« كنت أرغب في إعادة خلق سيكولوجية النساء اليابانيات المنتميات إلى العصر الإقطاعي ، تماماً على نحو ما كانت ، دونما فرض تفسيرات حديثة ، وفي تصويرها على نحو يخاطب عواطف وفهم القراء المحدثين . . حتى المرأة التي تبدو عفيفة ونقية تستشعر ، دونما شك ، الهوى المجافي للأخلاق ، الذي لا يخطر على بال الآخرين ، والغيرة ، والمقت ، والقسوة ، ولا بد أن عواطف أخرى وضعية قد مرت لماماً بفؤادها . ولكن من الصعب ، إلى حد بعيد ، أن نصور على نحو مقنع ، امرأة لا تفصح عن أدنى مؤشر على هذه المشاعر ، عاشت حياتها بكاملها منكفئة على ذاتها » .

وقد كتب تانيزاكي هذا النص مباشرة قبل « التاريخ السري لأمر موساشي » وإبداع شخصية الأميرة كيكو الغارقة في العاطفة والعذاب .

وفيما تمثل رواية « التاريخ السري » ملحقاً للأعمال التاريخية الكونفوشية ، فإنها تسخر منها ، على نحو كاريكاتوري كذلك ؛ فجوانب الحياة ذاتها التي حذفها الأعمال التاريخية الكونفوشية ، في ورع وتقى ، يقدمها تانيزاكي بمبالغة صارخة . والرواية لا يضع موضع التساؤل قط مصداقية الأحداث المنافية للعقل والطبيعة ، التي

يكشف النقاب عنها ، وذلك على الرغم من أنه يتساءل عن دوافع كاتب سيرة حياة أمير موساشي ، ويدلي بتكهنات على نحو حذر ، فيما يتعلق بسلوكية الأمير ، وهو في الوقت نفسه يبدو محاكياً ، على نحو ساخر ، لكتابات السادية - المازوكية ، على نحو ما يصنع في رواية « مذكرات عجوز مجنون » . وقدرة تانيزاكي هذه على أن يسخر من نفسه على رؤوس الأشهاد هي أشد خصائصه جاذبية .

أنطوني م . تشمبرز

التاريخ السري لأمير موساشي

تقدير

يقال إن النبيل المحارب يوسوجي كينشين كان يهوى وُصفاءه الشبان . ويقال كذلك إن فوكوشيما ماسانوري قد حذا حذو « آي » ، أمبراطور السهان ، الذي أثر تمزيق ردن ثوبه على إيقاظ الفتى الغافي إلى جواره ؛ وقد ازدادت نزعات ماسانوري وضوحاً مع كر الأعوام ، وأفضت إلى سقوطه ، في نهاية المطاف . وليس كينشين وماسانوري بالمثالين المعزولين ؛ إذ يمكن أن تروى حكايات غريبة عديدة حول الحياة الجنسية لرجال عرفهم التاريخ باعتبارهم من الأبطال الكماة . وقد نشأت عاداتهم ، ومن بينها اللواط والسادية ، من طريقة حياة المحارب ، وليس من شأننا أن نمعن في استهجانها بمزيد من الضراوة .

ويحكى هذا المجلد قصة أمير موساشي ، الذي ولد في عهد الحروب الأهلية ، في القرن السادس عشر الميلادي ، وطار صيته لسعة وشدة بأسه ؛ فقد كان أكثر قادة عصره جرأة وأشدّهم قسوة . ولكن المقربين منه قالوا إنه كانت تساوره رغبات جنسية مازوكية . ترى هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟ لم أدر ما إذا كان يتعين تصديق هذه الشائعات الغريبة ، لكنها إن صحت لكان الرجل جديراً بالإشفاق عليه . ولا تأتي كتب التاريخ الرسمية على ذكر ميوله الجنسية ، كما أن معظم الناس لا يدري عنها شيئاً ، لكنني فحصت مؤخراً بعض الوثائق التاريخية ، التي تقتنيها عائلة « كيريو » ، فعرفت

أي رجل كان حقاً ، وأحسست بأعظم قدر من التعاطف معه ، حينما ألفت أنه كان يكن حباً ملك عليه نفسه لامرأة حسناء جليلة القدر . وكما قال وانج وانج - مينج فإنه من الأيسر إخضاع قاطع طريق في الجبال على قمع الشر في فؤادك . غير أن أمير موساشي كان يحظى بشجاعة نمر كاسر ، وقلائل على امتداد التاريخ حظوا بقدرته على أن يجلب السلام للبلاد . وإذا تأثرت بقصته على نحو عميق ، عقدت العزم على سرد تفاصيل حياته الجنسية ، في صورة رواية تاريخية . وقد أطلقت عليها « التاريخ السري لأمير موساشي » . وإني لأناشدكم ألا تنحوها جانباً ، متعجلين باعتبارها محض اختلاق .

المؤلف

أوائل خريف ١٩٣٥

الكتاب الأول

عن « حلم ليلة » الراهبة مايوكاكو ومذكرات دواسي

ليس هناك سبيل لمعرفة هوية الراهبة مايوكاكو ، على وجه الدقة ، أو الوقت الذي كتبت فيه مؤلفها « حلم ليلة » ولكنه من الجلي ، من خلال النص ، أنها كانت تعمل في خدمة أمير موساشي في وقت من الأوقات . وبعد سقوط عشيرة الأمير ، حلقت شعرها من جذوره ، وتقاعدت عن العمل ، معتكفة « في كوخ مسقوف بالقش ، في أغوار الجبال ، حيث لا شيء أمامها إلا التعب آناء الليل وأطراف النهار » . هكذا يبدو أنها قد سجلت ذكرياتها عن الماضي ، خلال الفراغ الذي أتاحتها لها الشيخوخة . ولكن ما الذي يدفع راهبة « لا شيء » أمامها إلا التعب « لتأليف مثل هذه المذكرات ؟ إنها تطرح هذا التفسير :

« بعد التأمل طويلاً في سلوك أمير موساشي ، أدركت أن البشر ليسوا بالأخيار ، أو الأشرار ، ولا هم أبطال ، أو جبناء ؛ فالرجل العظيم يغدو وضعياً ، في بعض الأحيان ، والشجاع يصبح متخاذلاً أحياناً ، ومن قهر بالأمس ألف خصم ، في ساحة القتال ، تسوطه اليوم في الدار هولات الجحيم ، وأشد النساء لطفاً ولباقة قد يتبدى مزاجها وحشياً ، وأكثر المحاربين بسالة قد ينقلب إلى بهيمة من الأنعام . وربما كان الأمير موساشي بوذاً رحيماً ، أو بوديسا تقاً * ،

(*) أوضحنا بالتفصيل مفهوم البوديسا تقا ، في الهوامش الضافية لكتاب « مقدمة الهسي » .

أفصح في شخصه عن قانون السبب والنتيجة الذي لا يرحم ودورة
التناسخ ، وتجلّى في هذه الدنيا لبعض الوقت ؛ ليرحل بنا بعيداً عن
الوهم .

وهي تخلص إلى أنه :

« بتحمّل أمير موساشي في بدنه الغالي لعذابات الجحيم ،
أوضح لنا ، نحن معشر البشر الفانين ، الطريق إلى الاستنارة ، وأن
وجوده بركة علينا جميعاً ، وإني لأكتب هذه الصورة للأنشطة التي قام
بها ، عرفاناً بطيبته ، وتقديماً من أجل سكينته روحه ، فليس لي من
مقصد آخر . ولئن وجد من يسخرون من سلوك الأمير ، فلسوف
تحقق بهم اللعنة ، أما أولو الألباب فلن يساورهم إلا الشعور بعرفان
الجميل . »

غير أن ما تذهب إليه يبدو متكلفاً بعض الشيء ، وهناك ما يدعو
إلى التساؤل عما إذا كانت تؤمن حقاً بالتفسير الذي طرحته . كانت
تحيا وحيدة ، بالطبع ، وهكذا فربما كانت احتياجاتها العضوية لا
تلقى إشباعاً ، وربما كتبت ما سطرته في محاولة للتخفيف من وطء
حدثها ، لكن هذا ليس إلا محض تكهن .

أما مؤلف كتاب « اعترافات دوامي » فإنه يشير إلى دوافعه ، لكن
من الجلي أنه ما كان بوسعه أن يمحو من ذاكرته أيّاً من « سلوك أمير
المفزع » ، أو تجاربه الخاصة الغريبة ، في خوف سيده . ولا شك
أن هذه المغامرات تبدّت له أشد غرابة ، كلما أمعن التفكير فيها ،
وفي نهاية المطاف كان إغراء كتابة كل شيء عصياً على المقاومة .

= بوتشي ، من تأليف أنطوني يو ، وترجمتنا ، وإصدار دار الشؤون الثقافية العامة ،
في بغداد . أما هنا فيكفي القول ، ببساطة ، بأن البوديسا تقاهو السالك . وطريق
الخلاص ، الذي يضحى بمراحل في تقدمه ، من أجل خلاص الآخرين . (ه . م .)

وبينما وصلت الراهبة مايوكاكو إلى الخلاصة البهيجة ، وغير
المحتملة ، القائلة بأن الأمير موساشي هو نجل لبوديساتقا ، فإن دوامي
يبدو أنه قد تملك ناصية فهم واضح لعقلية سيده ، وأنه اكتسب
ثقته ، من جراء ذلك . وبين الحين والآخر ، كان الأمير يطلع دوامي
على مكنون ما يحس به من عذاب ، ويقص عليه تاريخ رغباته
الجنسية ، انطلاقاً من الحاجة إلى التعاطف والتفهم . ويبدو أن
دوامي من جانبه كان متملقاً ، ذليلاً ، على نحو ما ، وربما كان
بطبيعته يشارك الأمير في نزعاته ، فإن لم يكن كذلك ، فقد ادعى
هذه المشاركة ، ليحظى برضا الأمير . وفي غمار ذلك ، أضحى
تابعاً حقيقياً للأمير ، يؤمن بما يذهب إليه من آراء وأفكار . وعلى أي
حال ، فمن المؤكد أن دوامي كان رقيقاً لا غنى عنه في « جنة الأمير
السرية » . وبغير دوامي ربما لم يكن من الممكن لألعاب الأمير
الجنسية أن تشق مجراها المرتكن ، ولهذا السبب عينه فإنه كان في
بعض الأحيان يصب اللعنات على وجود دوامي ، وغالباً ما كان ينهال
عليه ضرباً ، وأوشك في أكثر من مرة على أن يطيح بسيفه عنقه ،
لكن دوامي كان محظوظاً ، على نحو فريد ، فقلائل من الرجال
والنساء ، الذين شاركوا في « ألعاب » الأمير ، قدر لهم أن يفلتوا
بجلودهم ، ولما كان دوامي هو الأكثر تعرضاً لسوء المنقلب ، فلا
شك أنه واجه الموت أكثر من أي شخص آخر ، ولا ريب في أنه
أفلت من فكي النمر ؛ لأنه كان موضع احتياج بقدر ما كان مجلب
كراهية ، ولكن النجاة كانت ، في أحد جوانبها ، المكافأة التي
تلقاها عن اليقظة وسعة الحيلة .

**عن درع تيوكاتسو، أمير موساشي ،
ولوحة الأبيرة شوسيتسوين**

تظهر لوحة ، موجودة الآن لدى أحفاد أبناء عشيرة كيرو ،

تيروكاتسو، وهو جالس متربعاً على جلد نمر، وقد أسبغ عليه درعاً ذات
صدارة أوروبية ، وصفائح كتف سوداء مزركشة وشرابات زخرفية ،
وانتعل حذاء من الفرو ، وتعلو خوذته قرون هائلة ممتدة كأنها قرون
جاموس الماء ، ويمسك بعصا قيادة مزخرفة بالشرابات في يده
اليمنى ، أما يده اليسرى فتمتد بعيداً ، على فخذه ، حتى إن الإبهام
يبلغ غمد سيفه . ولو أنه لم يكن يسبغ عليه درعه ، لكان بمقدور
المرء أن يكون فكرة ما عن تركيبه الجسماني . أما وقد أسبغت عليه
درعه ، فما كان يبين منه إلا وجهه . ومن الأمور المألوفة رؤية لوحات
شخصية لأبطال ينتمون إلى فترة الحرب الأهلية وقد أسبغوا عليهم
دروعهم ، ولوحة تيروكاتسو تشبه ، إلى حد بعيد ، لوحات هوندا
هايهاتشيرو ، وساكاكيبارا ياسوماسا ، التي غالباً ما تظهر في كتب
التاريخ ، وهي جميعها توحى بكبرياء وقسوة شديتين ، ولكن هناك
في الوقت نفسه تصلباً وطابعاً رسمياً ، لا يبعثان على الراحة ، في
الطريقة التي يشدون بها قاماتهم .

تشير المصادر الرسمية إلى أن تيروكاتسو قد توفي في الثانية
والأربعين من العمر ، وهو يبدو على نحو ما أصغر سناً في هذه
اللوحة ، ربما في عمر يتراوح بين الخامسة والثلاثين والأربعين ،
ومن المؤكد أنه بخديه الوافرين وبفكه القوي المربع لا يبدو رجلاً
قبيح الهيئة ، على الرغم من أن عينيه وأنفه وفمه تبدو كبيرة ، على
نحو لا يتناسب مع باقي ملامحه . وإجمالاً ، فهو وجه يليق بقائد
جدير بمكانته ، يتسم بالذكاء والثقة بالنفس . وعيناه المتسعتان ،
المحدقتان فيما أمامهما ، تبرقان في غضب من تحت طرف خوذته
الأعلى . وبين العينين وأعلى الأنف نتوء لحمي خفيف ، يقطعه أفقياً
تجعّد عميق ، بحيث أن هذا النتوء يبدو على وجه التقريب كما لو

كان أنفاً ثانياً صغيراً للغاية . وتمتدّ تجعدات عميقة على جانبي أنفه ، وصولاً حتى طرفي فمه ، الأمر الذي يضيف عليه لمحة من النزق والتهيج الغاضب ، كأنما مضغ لتوه شيئاً مرّاً ، وله شارب مسترسل ، في غير اتّساق ، ولحية صغيرة ، مشدّبة على النمط الذي كان شائعاً في ذلك العهد .

وبقدر ما بدا هذا الوجه مؤثراً في النفس ، فإن من شأنه أن يكون أقل هيبه ، إذا تجرد من الخوذة ؛ فإضافة إلى القرون الرائعة ، كانت هناك شارة زخرفية على مقدمة الخوذة ، تصوّر تايشاكوتين ، راعي الشرق البوذي ، وهو يسحق هولة تحت قدمه . وتبدو الصدارة الأوروبية كذلك مؤثرة في النفس ، على نحو غريب . ولست بالحجّة المتضلع في هذا الموضوع ، ولكن يبدو أن الصدارة غريبة الطراز حملها إلى اليابان الهولنديون ، أو البرتغاليون ، في ثلاثينيات أو أربعينيات القرن السادس عشر ، أي في حوالي الوقت الذي دخلت فيه البندقية ذات الفتيل إلى اليابان ، من خلال تانيجا شима . وربما من الممكن وصف هذه الصدارة بأنها درع تشبه صدر الحمامة ، فهي شأن ثمرة الخوخ ، تتضخم عند خط التقاطع في المنتصف ، وتستدير الحافة السفلية عالياً وبعيداً نحو الظهر ، وكان المقاتلون النبلاء ، في ذلك العهد ، يثمنون مثل هذه الصدارة ، حتى إنه جرى تصنيع تقليد لها ، بعد وقت قصير من جلبها إلى اليابان ؛ ولذا فربما لم يكن أمراً لافتاً للأنظار أن تيروكاتسو كان يستخدم صدارة من هذا النوع . ومع ذلك ، ما السر في اختياره لهذه الدرع كي يظهر بها في لوحته ؟ إننا لا نعرف ما إذا كان قد أصدر بنفسه تعليمات بتصوير هذه اللوحة ، أم أن أحداً قد صورها من الذاكرة بعد وفاته ، ولكن في كلتا الحالتين فإن اللوحة فيما أعتقد تقف دليلاً على أن الصدارة الأوروبية كانت درع تيروكاتسو الأثير .

لو أن المرء نظر إلى اللوحة ، دون أن يكون قد قدر له أن يعرف أمير موساشي ، إلا على نحو ما تقدمه كتب التاريخ ، فإنها ستبدو شيئاً لا يتجاوز لوحة لأحد الأبطال ، تشبه لوحتي هوندا تاداكاتسو وساكا كيبارا ياسوماسا . ولكن من يعرف نقاط ضعف الأمير ، ومن قدر له أن يلم بأسرار حياته الجنسية سيرصد (أم أن ذلك يرجع إلى قوة الإيحاء فحسب ؟) قلقاً معيناً ، يقبع خلف الواجهة المهيبة - عذاب روح الأمير المتستر بالدرع الرهيبة - وستبدو الصورة وقد هيمنت عليها كآبة ، تستعصى على الإفصاح ، فالعين المحدقة ، على سبيل المثال ، والشفاه المطبقة في إحكام ، والأنف الغاضب ، ووضع الكتفين سيوحي للناظر بالرهبة ذاتها ، التي تبعثها في نفسه صورة نمر متعطش للدماء . ورغم ذلك ، فإن تيروكاتسو ، إذا نظر إليه في إطار ذهني مختلف ، سيبدو كأنه رجل يعاني من الروماتزم ، ويتجلد ليتمكن من تحمّل الألم المبرح في مفاصله . وبالمثل فإن الصدارة الأوروبية والخوذة بقرونها المسترسلة وشارة تايشاكوتين الزخرفية هي موضع تشكك . وربما كان قد اختار هذه الزخارف المؤثرة في النفس عامداً ؛ لكي يخفي ضعفه الداخلي . ولكن التأثير الذي أحدثته هذه العناصر المكملة هو ما جعل الشخص المتصدي للمصور ، على نحو متصلب ، يبدو أكثر ارتباكاً واصطناعاً . وكان من شأن درع صدر الحمامة أن تبدو مريحة على نحو أكبر ، لو أن تيروكاتسو كان جاثماً فوق مقعد مرتفع ، على الطريقة الغربية ، ولكن بسبب جلوسه متقاطع الساقين ؛ فإن الصدارة تتأ إلى الأمام ، على نحو بعيد عن الرشاقة . وليس هناك ما يوحي باللحم العضلي ، الذي صلبته المعارك ، والذي لا بد أنه كان مستتراً خلف الصدارة ، فالدرع لا تتشبث بجسده ، على نحو ما ينبغي له ، وإنما تبدو مستقلة عنه ، على نحو ما ، وهي أبعد ما تكون عن حماية شخصه وبث

الرعب في قلوب الآخرين ؛ إذ تبدو كمجموعة من القيود تلحق به عذاباً لا نهاية له . ولدى النظر إلى ملامح اللورد ، في هذا الضوء ، فإنها تفصح عن ملمح عذاب مؤثر ، وينحدر شخص المحارب الشجاع ، الذي أسبغت عليه درعه ، إلى أسير يثن متجهماً في الأغلال . ولو جرى النظر إلى النقش الزخرفي المرسوم على مقدمة الخوذة بعين متشككة ، فإن شخص تايشاكوتين الواقف في انتصار فوق الهولة إنما يرمز إلى شجاعة الأمير ، بينما الهولة البشعة المكشورة عن أنيابها ذاتها ، التي تدهس بلا رحمة ، تومىء إلى الجانب المخجل من شخصية الأمير . وبالطبع ، فإن الفنان ما كان يساوره هذا المقصد ، وهو عاكف على عمله ، وربما لم يكن يعلم شيئاً عن حياة الأمير السرية ، وكان يصور لوحة شخصية موضوعية .

وعلى لفيفة مماثلة مودعة بالصندوق ذاته رسمت صورة لزوجـة الأمير . ولا تحمل أي من اللوحتين توقيعاً ، ولكن من المستطاع دونما مخاطرة ، افتراض أنهما من إبداع فنان واحد ، في الوقت ذاته على وجه التقريب . كانت الأميرة هي ابنة تشيريفو ، أمير شينانو ، وهو « ديميو »* يحظى بالمرتبة ذاتها التي تحظى بها عشيرة كيريو . وقد عرفت بخدماتها الجليلة لزوجها تيروكاتسو ، وبعد موته جرت شعرها ، وحملت الاسم الديني شوسيتسوين ، وقد دعمتها عائلة أبيها ، لكن سنواتها الأخيرة كانت منعمة بالوحدة ، على نحو خاص ، حيث لم تكن قد أنجبت أطفالاً ، ولم تعمّر بعد زوجها إلا ثلاث سنوات .

(*) لقب ياباني ، ينتمي إلى أصل صيني ، يتألف من مقطعين من الناحية الحرفية : « داي » بمعنى عظيم و « ميو » بمعنى سم ، وكان من ألقاب النبلاء في القصور الوسطى اليابانية ، ويشير إلى أن حامله يتولى رتبة عسكرية رفيعة وربما حكم مقاطعة ، وقد ألغي هذا اللقب حالياً (هـ . م) .

تتميز لوحات الشخصيات التاريخية في اليابان بأن العديد من لوحات الرجال هي روائع واقعية ، ترتسم فيها الملامح الفردية بدقة . ولكن لوحات النساء لا تعدو أن تكون أداء متفقاً عليه لما كان العصر يعتبره النموذج المثالي للجمال . وللأميرة في هذه اللوحة ملامح جميلة ومتسقة ، وتبدو فيها فاتنة بالتأكيد ، لكن اللوحة لا تختلف كثيراً عن لوحات زوجات الديميو الأخريات المتميمات إلى العصر ذاته . ويمكن بالمثل أن تكون لوحة تصور زوجة هوسوكاوا تاداوكي أو بيسشو تاجاهارو ، والانطباع الذي تتركه لدى الناظر إليها هو نفسه الذي تتركه عنده لوحات الأخريات .

هناك على وجه الدقة انفصال جليدي في الوجوه الشاحبة لهاته الحسنات المتكررات ، وهذه الأميرة ليست استثناء من تلك القاعدة ، ووجه مستدير وممتلئ ، ولكن لدى تفحصه عن كثب ، فإن مسحوق التجميل الأبيض السميك يبدو متشققاً هنا وهناك ، ويلوح خداهما متجردين من الحياة . والشيء عينه ينطبق على أنفها الأشم بديع التكوين . وفي المقام الأول هناك عيناها ، وهما فتحتان ضيقتان طويلتان ، يتألق بؤبؤاهما كبلورتين مستدقتي الرأس تحت جفونها المنسدلة ، وتوحيان بالبرود وبالذكاء المتقد . ولا شك في أن زوجات الديميو في ذلك العهد كنّ يمضين أيامهن المترعة بالملل ، معتكفات في الأجنحة الداخلية من قصورهن ، التي لا يتسلل إليها الضوء إلا نادراً ، وربما لهذا اكتسبن جميعهن هذا التعبير المميز . وقد كان الضجر والوحدة واليأس الذي عانت منه زوجة تيروكاتسو ضارياً ، علي نحو خاص ، ويحس المرء بأن هذه اللوحة قد أفصحت يقيناً عن مشاعرها الحقيقية .

الكتاب الثاني

وفيه ينشأ هوشيمارو رهينة في قلعة « أوجيكا » وحديث حول الرؤوس - المرأة

تتضمن « اعترافات دوامي » الصورة التالية :

« كان اسم مولاي ، في عهد طفولته ، هو « هوشيمارو » . وكان الابن البكر والوارث لتيروكوني ، أمير موساشي ، ولكن حينما كان في السادسة من عمره تم إرساله إلى القلعة الجاثمة على جبل أوجيكا ، مقر الأمير تسوكوما إيكانساي ، في المقاطعة المجاورة ، الذي تصالح معه أبوه . وقد حثني مولاي بقوله : « فصلت عن أبي منذ نعومة أظافري . وعلى امتداد عقد من الزمان درست الأدب وفنون القتال في قلعة جبل أوجيكا ، ولاني لمدين بتنشيتي لإيكانساي » .

تأتي هذه الفقرة على ذكر « مصالحة » . ولكن زعيم عشيرة تسوكون كان ديميو عظيم الشأن ، يحكم عدة مقاطعات ، ومن ثم فمن المؤكد أن تيروكوني لم يكن شريكاً على قدم المساواة في « مصالحة » ، على الرغم من أنه ربما يكون قد أنقذ ماء وجهه ، فلم يضطر للتسليم الكامل . ومن المحتمل أنه أصبح تابعاً لإيكانساي ، وإلا لما عرض تقديم ابنه ووريثه كرهينة .

وفيما يلي جانب من الأحداث التي لم يطلها النسيان من سنوات هوشيمارو الأولى .

في خريف ١٩٤٩ ، حينما كان هوشيمارو في الثانية عشرة من

عمره ، حوصرت قلعة جبل أوجيكا ، لما يزيد على شهر ، من قبل قوات ياكوشييجي دانجو ماساتاكازا الذي كان تابعاً لعائلة هاتاكياما ، التي كانت بدورها تضم المسؤولين بالوراثة في إطار حكم الشوجون لليابان . ولم يكن هوشيمارو قد بلغ مبلغ الفتية ، ولذا لم يسمح له بالاشتراك في القتال ، لكن تقارير المعارك اليومية ، التي كان يستمع إليها داخل القلعة ، جعلت قلبه الفتى يتوثب بين أضلعه . وقد أدرك أن صبيّاً في عمره ليس بمقدوره المضي للمشاركة في الحرب ، لكنه كان في نهاية المطاف سليل عائلة من الساموراي ، وقد أراد أن تتاح له على الأقل مشاهدة القتال ليراكم الخبرة لنفسه . وعلى الرغم من أنه كان أصغر من أن يخوض غمار حملته الأولى ، إلا أنه أقنع نفسه بأن الوقت ليس مبكراً على التسلل إلى ميدان المعركة وتعلم سلوك المحارب . ولكن قلعة جبل أوجيكا - معقل عشيرة تسوكوما على امتداد أجيال عديدة - كانت متاهة فرضت عليها حراسة مشددة . وكان من المستحيل أن يتسلل المرء خارجاً منها دون أن ترصده عين . وقد فرضت مراقبة وثيقة على الرهائن ، بعد بداية الحصار ، كما أن هوشيمارو كان يقوم على رعايته بصفة شخصية ساموراي ، قدم معه من قلعة أبيه . وقد ألفاه هوشيمارو ذا نفع ، من أوجه عديدة ، لكنه كان بمقدوره كذلك أن يكون مصدر ضيق . وكان هوشيمارو ، الذي اعتكف طوال النهار في الغرفة المخصصة له ، يصغي إلى أصوات النيران النائية وصيحات القتال ، فيما وصيفه أوكي شوزين يصف له تطوّر سير المعركة ، فيقول : « ذاك صوت العدو ، وهو يطرد بعيداً » ، أو « ذلك صوت النفير ، يأمر رجالنا بإعادة التجمع داخل البوابات » ، ويوضح أن القتال سيكون ضارياً ، فقد استولى العدو بالفعل على التحصينات المتقدمة التي تحيط بالقلعة الرئيسية ، وأحكم أكثر من عشرين ألف جندي الطوق حول

قاعدة جبل أوجيكا . وكان هناك أقل من خمسة آلاف مدافع عن القلعة ، التي استطاعت ، بفضل التحصينات القوية والموقع الاستراتيجي ، أن تصمد حتى الآن ، ولكن عنصر الوقت كان في صالح المهاجمين ، وقد انقضى حوالي الشهر ، وكان الأمل الوحيد هو أن التغيرات السياسية في كيوتو قد تؤدي إلى قيام العدو برفع الحصار ، الذي ضربه حول القلعة ، أما إذا لم يحدث هذا على جناح السرعة ، فإن القلعة كانت ستسقط في يد مهاجميها .

كان هوشيمارو ، من الناحية الاعتبارية ، يعدّ رهينة ، ولكنه عومل دون شكّ معاملة خاصة ، باعتباره ابناً لديميو ، وخصّصت له غرفة مريحة في الحصن . ولكن ، تدريجياً ، أخذت القلعة الفسيحة في الانكماش ، فقد استولى المهاجمون على التحصينات الخارجية ، ثم غزوا الحصن الثالث ، ودفَعوا بشاغليه إلى الحصن الثاني . ومع احتشاد هذا الأخير بالناس ، تدفّق الناس على قلب القلعة ، فازدحمت بهم الغرف والأبراج كافة . وفي الوقت نفسه بدأ التخصيص المنظم للمهام في التراجع ، فلقد كان لكل رجل مكان محدد للنزال ، ولكن الآن غدا كل من ليست لديه مهمة محددة يبادر بالمساعدة ، حيثما مَنّت الحاجة إليه ، بل إن آوكي شوزين لم يعد بمقدوره البقاء دائماً إلى جانب سيّده اليافع ، ليتابعا المعركة اليائسة عن بعد ، فحينما يتّسم الهجوم بالضراوة ، على نحو خاصّ ، كان يحتلّ موقعاً ، ويشارك في الدفاع . وينقل دوامي عن مولاه قوله :

« عندما أعود بالذاكرة إلى طفولتي ، أجد أنه حتى الأحداث التي كانت مصدر إذلال ، في ذلك العهد ، قد أصبحت ذكريات غالية . وقد أجبرت خلال حصار جبل أوجيكا على السكنى مع نساء وأطفال لا حيثة لهم ، ولم أستطع تعلّم شيء عن استراتيجية

المعركة ، وقد جرح ذلك مشاعري ، ولكنني حينما أعود بذهني إلى هذه التجربة أجدها مثيرة للاهتمام .

وخلاصة القول إن هوشيمارو ابتهج بتراخي إشراف أوكي شوزين عليه . ودبت الحياة في غرفته ، التي كانت معزولة عما في المعركة من إثارة ، مع ازدهامها بنساء وأطفال لا عهد له بهم ، ولا شك أنهم كانوا رهائن بدورهم ، جرى تجميعهم في غرفة هوشيمارو ، لتنجيتهم عن طريق الجنود . ويبدو أن الأطفال ينتهجون بالمواقف التي تحفل بالفوضى : الحروب ، الزلازل ، الحرائق وما إلى ذلك ، حيث يتجمع عدد كبير من الناس معاً ، لاثنين من الخطر ، ومحدثين قدراً من الهياج والحركة ، تماماً على نحو ما يقومون به وهم يستمتعون برحلة يضربون خلالها مخيماتهم . ولربما جرحت مشاعر هوشيمارو ؛ إذ ألقى نفسه مفرداً مع « نساء وأطفال لا حيثة لهم » ، ولكنه ، باعتباره فتى رفيع المنبت لم يعرف عن الدنيا إلا القليل ، لا بد أنه شعر بفضوله يستثار ، وقد أثارت اهتمامه على نحو خاص مجموعة من العجائز .

لم يكن هناك رجال في سن النضج بين الرهائن ، وإنما صبية فحسب ، أما النساء فكان من كل الأعمار ، بينهن جدّات في الخمسين أو الستين ، وزوجات في أواسط العمر ، وفتيات في مئة الصبا . وقد كنّ بالنسبة لهوشيمارو « بلا حيثة » ولكن بما أنهن كنّ هناك باعتبارهن رهينات ، فلا بد أنهن كنّ رفيات المنبت ومن عائلات ساموراي ، وخير دليل على هذا هو أنهن لم يفقدن رباطة جأشهن قط ، حتى خلال أشد الهجمات ضراوة ، وإنما انتظرن في هدوء في ركن الغرفة ، معتصمات بالتحفظ والحرص . وبدون جميعهن ، حتى أصغرهن عمراً ، وقد جرّبن الحرب قبلاً ، رحن

يتجاذبن أطراف الحديث فيما بينهما ، تماماً كما يفعلن وهن عاكفات على ارتشاف الشاي ، ويبدن تقديرتهن لمسار القتال ، بناء على دويّ صيحات القتال وقرع طبول الحرب . كن يقلن بلهجة العارف الخبير : « ربما سيقع هجوم الليلة » ، أو « بمقدورنا توقع هجوم مفاجيء في الصباح » . ولأن هوشيمارو لم يكن معه من يوضح له سير المعركة الآن ، بعد أن شارك أوكي شوزين في القتال ، فقد شرع في إرهاف سمعه لتلقّف أطراف من محادثات النسوة ، وكان يؤدّ لو أدرج ضمن جمعتهنّ ، لكنه كان خجولاً ، حيث كن جميعهن أكبر منه سناً ؛ ولذا كان يستمع إليهن كأنما بمحض الصدفة من بعيد ، أو يتلصق في القسم الخاص بهن من الغرفة ، متذرّعاً بحجة أو بأخرى . وذات مساء ، عندما عادت النسوة الأكثر فتوة من رعاية الجرحى (كان هناك اشتباك ضارٍ في ذلك اليوم) شرعن يتحدّثن جميعاً عن أحداث اليوم ، فانتقل هوشيمارو بهدوء نحوهنّ .

حيثه عجوز في المجموعة قائلة : « هوشيمارو ، هوشيمارو ، هلمّ ، شاركنا مجلسنا ! » . حدّثته بنظرة تبعث على الثقة ، وابتسمت في كياسة ، وقالت ، ملتفتة إلى رفيقاتها : « إنه صبيّ يثير الإعجاب ، يتظاهر بعدم الإصغاء ، عندما نتحدّث عن المعركة ، لكنه يرهف السمع . لا شك أنه سيكبر ويغدو قائداً عظيماً » . كانت العجوز ذات مرتبة رفيعة نسبياً ، وبدا أنها تحظى بتوقير الآخرين جميعهنّ . كانت تقتعد حشية سميقة ، وكوعها مستند إلى وسادة ، وقد تحلّقت حولها قرابة عشرين امرأة .

- هوشيمارو ، أتريد سماع ما كان من أمر القتال ؟

في هذه المرة كانت المتحدّثة امرأة مختلفة . أوما هوشيمارو موافقاً . أحسنّ بعيون المجموعة بأسرها تلتفت إليه ، فيما هو

يتحدث ، واستشعر ذعراً مفارقاً للعقل ، شيئاً يحاكي الرعب الذي قد يحسّ به المرء إذا ما أهدقت به قبيلة عجيبة . كان مجتمع ذلك العهد يتمسك بالتفرقة الحادة بين الجنسين . أما ما يفوق ذلك فهو أن الصبيّ كان قد فصل عن أبويه منذ نعومة أظافره ، ليربّي بين الساموراي غلاظ القلب ؛ وهكذا فلم يقدر له أن يعرف شيئاً عن الحياة في الأجنحة الداخلية ، المعطرة ، الفاتنة . وكان تجمع النسوة أمامه يحاكي بستان أزهار ، يراه المرء لأول مرة ، متوهجاً بالألوان وضائعا بأريج غريب . كان يتطلع إليهنّ من قبل عن بعد ، أما الآن ، وفيما هو يدنو منهنّ ، ويحتويه المناخ الذي يعشن في رحابه ، فربّما لم يصدمه شعور بالجمال أو الرغبة الحسية ، وإنما لطمه مقت لما هو غير مألوف . وقف صامتاً لبعض الوقت .

- اقبل ، واجلس هنا ، رجاء !

أوما موافقاً ، واقتعد الحصير ، محدثاً وقعاً مكتوماً ، لإخفاء شعوره بالخرج .

قالت إحدى النساء ، مخمّنة ما يدور في ذهنه :

- لسوف يكون بمقدورك المضيّ إلى القتال خلال عامين أو ثلاثة أعوام .

- نعم ، حقاً ، إنه طويل ، ووثيق التركيب ، ويمكنك بنظرة واحدة أن ترى أنه فتى واعد .

كانت النساء على معرفة بهويّة هوشيمارو ، وسبب وجوده في القلعة . ولا شك في أنهن تعاطفن معه ؛ حيث انهن بدورهن كن رهينات . وربما كان لبعضهن أبناء أو إخوة صغار في مثل عمره .

قالت إحداهن :

- لكم أودّ أن أراه يخوض غمار حملته الأولى !

- من حظّ أمير موساشي أن يكون له مثل هذا الوريث .

لم يكن أيّ من هذا مما يثير اهتمام هوشيمارو ، وإنما تمنّي لو عجلن بالحديث عن القتال . سألته العجوز ، التي تحدّثت أولاً ، بمزيد من التعاطف :

- إذن فلم يحدث أن شهدت تحركات العدو قط ؟

لم يكن السؤال مما يعكس طويّة سيّئة ، ولكنه أثار ضيق هوشيمارو ، فاحمّر وجهه ، فيما هو يهزّ رأسه نافياً :

- لقد أردت ذلك ، لكنه لم يسمح لي ، ويقول إن الأطفال لا يمكنهم الذهاب إلى الحصن الثاني .

جعلت نغمة صوت العجوز تبتسم ، قالت :

- من الذي قال لك ذلك ؟

- الساموراي الذي يرعى شؤوني ، إنه يحدّثني على الدوام بأنني لا يمكنني فعل هذا ولا إتيان ذاك .

ثم طرح هوشيمارو سؤالاً :

- شاهدتّ الهجوم عن قريب ، أليس كذلك ؟

- بلى ، فحينما يكون القتال ضارياً ، كما كان عليه الحال اليوم ، فإننا نقّدم ما بوسعنا من مساعدة ، وفي بعض الأحيان نمضي إلى الأبراج ، بل ونبلغ البوابة .

- إذن فبمقدوركنّ مشاهدتهم ، وهم يقتلون الأعداء ، ويتزعمون رؤوسهم ؟

- آه ، نعم ، وفي بعض الأحيان تقترب كثيراً حتى ليصيبنا رشاش من دم .

تطلع هو شيمارو إلى محيا العجوز ، في حسد ، وراح يحدث نفسه بأن حظ الكبار عظيم ، فحتى النساء بمقدورهن مشاهدة كل ذلك . لم يستطع كبح جماح نفسه ، فقال :
- ألا تأخذني معكن في الغد ؟

قالت العجوز ، وهي لا تزال تبتسم ، في إعزاز :
- آه ، يا للأسف ! ليس بمقدورنا القيام بذلك حقاً ، ولئن فعلنا ذلك لانهاه علينا أوكي شوزين لوماً وتقريراً .

- لن يكتشف شوزين الأمر ، ولن أعوق حركتكن ، فبمقدوري القيام بما تستطعن إنجازه .
- ولكن نبيلاً شاباً مثلك لا يقوم بمساعدة النساء في عملهن ،
لسوف يسخر الناس منك .

اضطر هو شيمارو إلى الإقرار بما قالته المرأة . ولكن لو أنه كان بمقدوره الذهاب بالفعل إلى ميدان المعركة ، إذن لاستطاع ، على الأقل ، أن يرى جثة محارب شهير ، أو حتى رأسه . والحقيقة أنه لم يحدث أن شاهد قط جثة مثل بها ، أو رأساً احتز لتوه ، يتقاطر الدم منه . إنه يتذكر بالفعل أنه مر برأس بشري معوض ، في مكان ما ، لكنه لم ير أي شيء يستحضر مجد ميدان القتال قط . ومن الطبيعي أن يكون الأمر ، بالطبع ، على هذا النحو ، فهو إذ نشأ في دار ساموراي، كان موضع إشراف صارم للغاية . ورغماً عن ذلك ، فقد أخجله أنه هو ، الابن البالغ اثني عشر عاماً لقائد حربي ، على هذه الشاكلة من انعدام الخبرة . وفي مثل هذا الوقت ! إن أكواماً من الجنود القتلى ترتفع كل يوم غير بعيد عن غرفته ، وحتى النسوة كن قريبات من القتال حتى ينهال الدم عليهن . وهو وحده الذي يفتقر إلى الخبرة . لا شيء يمكن أن يكون أكثر مدعاة للشعور بالمهانة .

أراد أن يختبر شجاعته ، لا لأنه ظن أن مشهد القتال سيبعث الخوف في نفسه ، وإنما لأنه رغب في تدريب نفسه الآن ، بحيث لا يؤخذ على غرة في حملته الأولى .

كان ذلك هو ما ناشد به شيمارو العجوز ، بعد يومين أو ثلاثة أيام .

قلبت الأمر في ذهنها للحظة ، ثم قالت :

- ليكن ، إذن . ليس بمقدوري اصطحابك إلى ميدان القتال ، ولكن إذا كنت ترغب في مشاهدة بعض الرؤوس ، فإنني أستطيع تدبّر الأمر ، من أجلك . وينبغي عليك ألا تحدث أحداً قط ، حول هذا الموضوع . هل فهمت ؟ لئن وعدتني بذلك لأرينك الليلة ما تريد مشاهدته .

أوضحت له ، هامسة ، أنه في كل ليلة ، على وجه التقريب ، يتم اختيار خمس أو ست نساء للقيام على أمر رؤوس الأعداء ، التي احتُزّت في ميدان القتال . كنّ يدقن الرؤوس في ضوء قائمة خاصة ، يصنّفنها ، ويمحّن لطح الدم عنها . كان لرؤوس الجنود العاديين شأن آخر ، أما رؤوس المحاربين البارزين فكانت تنظف بحرص ، وتقدم للقائد كي يتفقدّها . كانت النسوة يقمن بتمشيط شعر الرؤوس ، ويستكملن صبغ الأسنان ، بل وفي بعض الأحيان يضعن بعض مواد التجميل الخفيفة عليها ؛ لجعلها مقبولة المنظر ، لدى تقديمها للقائد . خلاصة القول إنهن كن يبذلن أقصى ما في وسعهن لإعادة رسم وإبراز الملامح ولون بشرة رؤوس الأحياء . وكان « تجميل الرؤوس » على نحو ما دعي هذا النشاط عملاً من الأعمال التي تقوم بها النساء ، وبالنظر إلى وجود نقص في عدد النساء بالقلعة ، فقد صدر الأمر لبعض الرهينات بالمعاونة في هذا الشأن . ولأنهن جميعاً كانت تربطهن أواصر الصداقة ؛ فإن

العجوز كان بوسعها اصطحاب هوشيمارو سراً لرؤية الرؤوس .
- أفهم ؟ لو اكتشف أحد الأمر ، فإننا سنقع في شر أعمالنا .
عليك أن تتبعني ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وأن ترقب المشهد في
هدوء ، و عليك ألا تحاول المساعدة ، في معالجة أمر الرؤوس ، أو
التحدث بأكثر مما يقتضيه المقام .

قالتها العجوز ، وهي تمحص عيني هوشيمارو ، فألفتها
توهجان بالفضول ، فأضافت :
- ليكن ، إذن ، سأوافيك الليلة ، عليك بالتظاهر بأنك غارق في
النوم ، وانتظرنني !

كان الأطفال والنسوة ، الذين غزوا غرفة هوشيمارو ، يرقدون في
صفوف ، دونما اعتبار للسن أو للمرتبة الاجتماعية . وكان هوشيمارو
وآوكي شوزين هما وحدهما اللذان يرقدان بمعزل عن الآخرين ،
خلف ستار في صدر الغرفة . ومن حسن الطالع أن الغرفة لم يكن بها
إلا مصباح واحد مضاء ، في خفوت ، وقد ساد الظلام ما وراء
الستار . وحتى إذا استيقظ شوزين في جوف الليل ، فإنه ربما لا
يلاحظ أن فراش هوشيمارو شاغر ، وإذا أنهكته مشاغل النهار ، فإنه
كان يفرق في الحال في نوم عميق ، يتخلله الشخير العالي . ولم
يكن هو وحده الذي يغط في نومه على هذا النحو ، فباستثناء الجنود
القائمين على الحراسة في نوبات متوالية ، كان الجميع يغطون في
النوم كالموتى ، فكلما استعز الضجيج والحراك نهاراً ، ساد هدوء
أشد رهبة ليلاً . وفي الظلام الملتف بالسكون ، راح هوشيمارو
ينتظر ، لاهث الأنفاس ، تحت أغطية فراشه . وسرعان ما سمع وقع
أقدام العجوز ، ثم خشخشة تصدر عن الستار .

قال الصبيّ ، وهو يزحف حول قاعدة فراش شوزين ، وينزلق
متجاوزاً الستار :

- أيّ طريق نسلك ؟

- هذا الطريق .

قالتها العجوز ، وهي تومىء بذقنها ناحية الباب . وكان بمقدور
هوشيمارو أن يسمع الحفيف المنتظم ، الصادر عن أثوابها
الحريرية ، كأنه تواتر الأمواج في بحر ساج .

كانت ليلة باردة ، في منتصف الشهر العاشر ، والعجوز ترتدي
رداء ضافياً ، منشئ ، فوق كيمونو أبيض اللون ، وقد أحنت كتفيها
الهزيلتين ، ورفعت أطراف أثوابها بيديها كليهما ؛ حتى لا تمسّ من
يغطّون في نومهم ، ولكي تحدّ من حفيفها . لم تكن تحمل
مصباحاً ، لكنهما حينما خرجا من الغرفة إلى الدهليز ، استطاعا أن
يلمحا نيران المراقبة تتوهج هنا وهناك في الحديقة ، وانعكس الضوء
عن ألواح الأرضية ، وآتقد محمراً على محيّا المرأة ، فيما هي تلتفت
لتومىء لهوشيمارو بعينها ، بدا نفسها أبيض ، فيما هي تتحدّث ،
لم تعد توحى بمظهر السيدة طيبة القلب ، رفيعة القدر ، التي اعتاد
على رؤيتها في ضوء النهار ، فقد خلعت عليها الظلال الغائرة في
لحمها المهزول المظهر الخشن لقناع شيطاني ، لاحت مهمة
المظهر وأشدّ إيغالاً في العمر ، مما تبدو عليه في النهار . وكان قد
لاحظ من قبل أن جانباً من شعرها قد كساه الشيب ، أما الآن ، وفيما
النار تتوهج في البعيد ، فإن الجدائل الفضية المنسابة على صدغها
قد التقطت الضوء ، وشعّت متقدّة ، كأنها الأسلاك ، فتذكّر
هوشيمارو ، فجأة ، تحذيرات آوكي شوزين المتكررة : « عليّ
المرء ذي المنبت الطيّب ألا يخرج مع من لا يعرفه . عليك دائماً

بإبلاغي قبل خروجك ! » . إذن ، فقد كان الأمر مؤامرة ، وهو بسبيله إلى الوقوع في فخ ! ولكنه ، في الحال ، أحس بالخجل من هذه الأفكار المتسمة بالجبن ، فقد كان الضوء الليلي هو الذي يضيء هذا الطابع غير المألوف على وجه المرأة ، ولا شيء غير ذلك . ومع ذلك ، فإن تخيل الخطر يظل مؤشراً على الجبن . كانت لحظة التشكك تلك ضربة موجهة لكبريائه .

- انتعل هذين ، رجاء !

عندما وصلا إلى نهاية الدهليز ، فتحت العجوز الباب ، دونما أدنى صوت ، ودلفت إلى الحديقة ، والتقطت خفين من القش ، من طيات الكيمونو الذي ترتديه ، ووضعتهما أمام هوشيمارو . لم يكن هوشيمارو قد لاحظ القمر من قبل ، بسبب أضواء المراقبة ، ولكنه فور الخروج إلى الحديقة رآه بدرأ في تمام جلائه ، والتقطت الجدران المطلية باللون الأبيض من حولها كلها سنا البدر ، وعكسته متألّقا على الأرض . مضت العجوز مسرعة ، عبر النور والظلام المتداخلين ، بحذاء الجدران البيضاء المتعرجة ، وبلغت مبنى صغيراً ، مؤلفاً من طابقين ، وفتحت الباب ، وأومات لهوشيمارو ، قائلة :

- هذا هو المكان المقصود .

تذكر هوشيمارو هذا المبنى ، فقد كانت الأسلحة والدروع تودع به ، وكان هناك طابق علويّ متهالك ، لا يتجاوز العلية في مساحته . عندما ولج المبنى ، وراء المرأة ، رأى المدخل وقد تمّ تغييره خلال الحصار ، فقد نقلت الأسلحة وصناديق الدروع كلّها لاستخدامها في المعركة ، وتركت الغرفة خاوية ، على وجه التقريب ، ونصب موقد مؤقت في أحد الأركان ، وكان بمقدور هوشيمارو تبين هذا القدر ،

في الضوء المنبعث من الموقد وسنا البدر الذي تخلّل المبني ، كما لاحظ كذلك رائحة غريبة نفاذة ، كانت راجعة في أحد جوانبها إلى رائحة العفن ، التي تميّز المخازن ، لكنها كانت رائحة مركّبة ، مزيجاً من أشياء عديدة ، كريهة للغاية ، وكان الجوّ دافئاً ، ورطباً ، على نحو غريب ، ربما بسبب البخار المنبعث من الغلاية الموضوعة فوق الموقد .

- هوذا الدرج ، تخيّر لخطاك موضعها بدقة !

قالتها العجوز ، وهي تسبقه إلى الطابق العلوي ، فحذا حذوها ، وجلس في ضوء المصباح المتوهّج ، عند أعلى الدرج .

ثبت عينيه على أشدّ الأشياء إثارة للفرع في الغرفة ، وقد عقد العزم على ألا يدع شيئاً يبعث الخوف في نفسه . تطلّع أولاً إلى الرأس الموضوع أمام المرأة الأقرب إليه ، ثم انتقل إلى الرؤوس الموضوعة في صف ، واحداً إثر الآخر ، وسرّه أن بمقدوره أن يحدّق في هدوء في أي منها . وفي حقيقة الأمر إن الرؤوس كانت بالغة النظافة ، حتى تبدو مفارقة للواقع وغير حقيقية ، ولم تستحضر شيئاً من هالة المجد أو بسالة المعركة ، التي كان هوشيمارو يتوقعها . وكلما طال تحديقها فيها بدت له أكثر اتساماً بالطابع الاصطناعي .

أومات النسوة ، اللاتي حذرتهن العجوز مسبقاً فيما يبدو ، بالتحية بمزيد من التهذيب إلى هوشيمارو لدى دخوله الغرفة ، وواصلن عملهن في هدوء . ومن بين النسوة الخمس الموجودات ، كانت هناك ثلاث جلسن وأمام كل منهن رأس ، فيما راحت الأخريان تقدمان يد المساعدة . صبّت المرأة الأولى ماء ساخناً في حوض ، وبالاستعانة بإحدى المساعدين غسلت الرأس ، وعندما

فرغت من ذلك ، وضعت الرأس فوق « لوح للرأس » ، ومررت به إلى جارتها ، أما المرأة الثانية فهي تقوم بتمشيط شعر الرأس . على حين تضع الثالثة لافتة تصنيفية عليها . وفي نهاية المطاف يوضع الرأس في صفت واحد مع الرؤوس الأخرى التي فرغن منها ، وذلك فوق لوح خشبي ثقيل وعريض خلفهن ، وحتى لا تنزلق الرؤوس فإنها تثبت بإحكام في مسامير ضخمة ، تبرز من سطح اللوح الخشبي الثقيل .

كان مصباحان وضعا بين النسوة للاستهداء بهما في عملهن ، ينيران الغرفة بضوء ساطع ، والسقف من الانخفاض بحيث إنه كان حرياً بهوشيمارو أن يرتطم بأحد أعمدته الخشبية ، لو أنه نهض واقفاً ، وكان بمقدوره أن يرى كل شيء في الغرفة بوضوح . لم تترك الرؤوس ذاتها تأثيراً قوياً في نفسه ، ولكن المفارقة بين الرؤوس والنسوة الثلاث أيقظت استثارة غريبة في أعماقه . فبالمقارنة بامتقاع الرؤوس المجردة من الحياة كانت أيدي النسوة وأصابعهن تبدو ، على نحو غريب ، متدفقة بالحيوية وبيضاء ومبهجة للحواس . كنّ يمسكن بالرؤوس من الشعر الذي يكسوقمها ، ولما كانت الرؤوس ثقيلة الوزن فقد عمدن إلى لفّ هذا الشعر حول أرسغتهن لإحكام القبض عليها ، وقد بدا هذا وكأنه يزيد من الجمال الغريب الذي تحظى به الأيدي ، كما كانت وجوه النسوة على الدرجة ذاتها من الجمال ، ولما كنّ قد اعتدن على مهامهنّ هذه ، فقد رحن يعملن بشكل آلي ، ودونما انفعال ، وقد تجرّدت وجوههن من التأثير واتسمت بالبرود حتى لتبدو كالحجر ، ولكن تجرّدهن من الانفعال كان على نحو ما مختلفاً عن تجرّد الرؤوس منه ، فالأول مخيف والثاني متسام ، وكانت النساء على الدوام يعاملن الرؤوس بتوقير ولا

يلجأ إلى الخشونة قط . وبدأت حركاتهن مقصودة ومعتدلة ورشيقة .

سلب المشهد لبّ هو شيمارو ، وأفعمه بالنشوة ، ولم يقدر له إلا فيما بعد أن يتفهّم الانفعال الذي أمسك بناصيته ؛ أما في حينه ، فقد نسي نفسه كلية . كان ألمّ به احتياج لم يجربه من قبل قط ، استثارة تستعصى على البوح . وقد خطر له أن النسوة الثلاث كنّ حاضرات في ذلك المساء قبل يومين أو ثلاثة حينما حادثته العجوز للمرة الأولى . وتذكّر وجوههنّ ، لكنه لم يستشعر شيئاً في ذلك الوقت . فلم يتعيّن أن يكنّ فائتات الآن وهنّ جالسات وجهاً لوجه أمام الرؤوس في هذه العلية ؟ راح يراقب كل واحدة منهنّ ، فيما هي عاكفة عليّ أداء مهمتها . كانت المرأة الجالسة إلى أقصى اليمين تربط خيطاً بلافتة خشبية ، وتثبت اللافتة إلى قمة الرأس الموضوع أمامها ، وراحت تحدث ثقباً في إحدى الأذنين بالاستعانة بمخرز ، وتمرر الخيط من خلالها . استشعر لذّة حادّة ، فيما هو يراقبها ، وهي تحدث الثقب . ولكن النشوة الكبرى استشعرها وهو يراقب الفتاة الجالسة في المنتصف ، فيما هي تغسل الشعر . كانت أصغر النسوة الثلاث ، وربما لا يتجاوز عمرها خمس عشرة أو ست عشرة سنة . وكان وجهها البدريّ ، على الرغم من تجرّده من أيّ تعبير ، وجهاً يعكس فتنة طبيعية . وبين الفينة والأخرى ، وفيما هي تحدّق في الرأس ، كانت ابتسامة تتلاعب ، دونما وعي منها ، على شفيتها . وقد كانت هذه الابتسامة هي التي جذبت هو شيمارو إليها . في مثل هذه اللحظات ، كانت قسوة لاختل فيها تسمّ وجهها ، وبدأت يداها أكثر طراوة وأشدّ رشاقة من أيدي النسوة الأخريات ، فيما هي تمشط الشعر . وبين الحين والآخر ، كانت تلتقط مبخرة من مائدة إلى

جانبها ، وتقوم بتبخير الشعر ، ثم حينما تعقد الشعر ، وتهذب قمة الرأس ، تقوم بالترتيب على الجبين بخفة بمؤخرة مشطها ، فيما بدا أنه إيماءة مجاملة . وبالنسبة لهوشيمارو بدت الفتاة جميلة على نحو لا سبيل إلى مقاومته .

- أنمضي الآن ؟

تضرّج وجه هوشيمارو بالحمرة ، على نحو عنيف ، حينما قالتها المرأة . كانت قد عادت فحازت العجوز النبيلة الشفوق مرة أخرى ، ولكن فيما كانت تتطلع إليه مبتسمة في حبور ، خالجه شعور بأنها تغلغلت في أعماق نفسه ، فأدركت سره .

لم يكن قد انقضى على وجودهما في الغرفة ثلث الساعة أو نصفها ؛ وبصورة عادية كان حرياً بهوشيمارو أن يسألها البقاء وقتاً أطول قليلاً ، فمن الطبيعي بالنسبة لصبي أن يرغب في مشاهدة شيء غير مألوف ، ولن يكون مما يبعث على الدهشة أن يطلب المزيد من الوقت ، لكن هوشيمارو كان قد فقد براءة الصبا ، وإذا استحثته العجوز ، فقد هبط الدرج متردداً ، لكن النشوة تطاولت ، وأبقته في حالة تحليق دائمة .

عند مدخل المضاجع ، تحدثت المرأة ثانية :

- هل رأيت ما فيه الكفاية ؟ لقد أعددت هذا بنفسي ، وعليك ألا تحدث أحداً به !

دنت بوجهها من إذنه ، وهي تضيف :

- أتفهم ؟ عد إذن إلى فراشك في هدوء . نوماً هنيئاً !

أحس هوشيمارو بالارتياح ، عندما ألقى آوكي شوزين غافياً في سلام ، وراء الستار . ولكن حينما آوى إلى فراشه ، لم يستطع

السيطرة على انفعاله ، وراح يحدق شاردًا في الظلام . على امتداد الليل طغت الأشباح أمامه ، وراحت تختفي مثل زبد البحر - مشاهد الرؤوس وقد تناثرت في الضوء المتوهج حيناً والمتراجع حيناً آخر ، التعبيرات المرتسمة على وجوهها ، لون جلدها ، أعناقها الملطخة بالدم ، الأصابع الباعثة على البهجة التي تعمل بحدّة وسط الشخوص الصامتة ، وفي المقام الأول وجه الفتاة البيضاء الجميل . كان قد شاهد منظراً فذاً ، وتخلّلت رائحة فظيعة كل شيء ، وكانت النسوة صامتات ، شأن الرؤوس المجتثة . كان قد تسلّل من فراشه ، واقتيد عبر الحديقة الشاحبة المكسوة بضوء القمر إلى ذلك المكان الرهيب ، وانتهى الأمر كله على وجه السرعة . وبالنسبة لصبيّ في الثانية عشرة من عمره ، لا بدّ أنه قد لاح أن عالماً خبيثاً منفصلاً قد تكشف أمامه للحظة ، ثم تبدّد فجأة .

في صباح اليوم التالي ، جدّدت قوات العدو هجومها ، فتواصل انبعاث رائحة البارود ، ودويّ أصوات البنادق ، ونداءات النفير ، وقرع الطبول ، وصيحات القتال ، على امتداد اليوم . ومن جديد عكفت الرهينات في إخلاص على القيام بدورهنّ بحمل المؤن والذخائر إلى الجنود ورعاية الجرحى . وراح هوشيمارو ، لكي يؤكد لنفسه أن مشهد العليّة لم يكن حلمًا ، يبحث بينهنّ عن نسوة البارحة ، ولكنه لم يعثر على أثر للفتاة التي اجتذبتّه على نحو خاصٍ أو للنسوة الأربع الأخريات ، على الرغم من أنهن كن موجودات دوماً في السابق . وجلست العجوز وحدها كالمعتاد في أحد أركان الغرفة متكئة على وسادتها ، وقد تعمّدت تجاهله ، فخمن أن النسوة الخمس كنّ بعد انشغالهنّ طوال الليل بتنظيف الرؤوس ينلن قسطاً من الراحة نهاراً في مكان ما ، وربما كنّ الآن راقدات في العليّة ،

وحدث نفسه بأن الأمر ربما كان كذلك ، وغلب على ظنه أن غيابهن اليوم يعني أنهن سيستأنفن عملهن الليلة .

انتظر مغيب الشمس بصبر نافذ . لا شك أن العجوز سترفض ، إذا ما طلب منها اصطحابه إلى هناك مرة أخرى ، لكنه لم يعد بحاجة إلى إرشادها له ، بل إن وجودها سيكون مصدراً لتشتيت الانتباه حقاً . ولو أنه كان بمقدوره أن ينسلّ خارجاً من الباب ، دون أن تلحظه فحسب ، لاستطاع شقّ طريقه بنفسه . وحينما عقد عزمه على محاولة القيام بذلك ، ادّعى بدوره اللامبالاة ، وتجنّب ركنها من الغرفة .

راح يتساءل عما يدعوّه إلى الشعور برغبة ملحة في زيارة العلية مرة أخرى ، فأدرك أن دافعه كان مختلفاً تمام الاختلاف عن البارحة . وعلى أيّ حال فقد كان متيقناً من أن توقه هذا لا يليق بسليل ساموراي . حاول أن يحدث نفسه بأنه سيقوم مجدداً باختبار مدى شجاعته ، ولكنه أدرك على نحو غامض أنّ في ذهنه هدفاً آخر ، وقد أثقل ذلك ضميره ، وعانى من شعور بالخجل ، لم يستطع فهمه حقّ الفهم .

كان أكثر تخوّفاً من إيقاظ العجوز منه بالنسبة لأوكي شوزين . ومن حسن الطالع أن أياً منهما لم يلحظه ، وهو ينسلّ خارجاً إلى الدهليز ، ولم يكن هناك المزيد من التعقيدات . اجتاز الحديقة التي أنارها البدر في الساعة عينها التي عبرها فيها البارحة . اجتذبتّه قوة خفية فيما يشبه الغيبوبة عبر باب المخزن وإلى قاعدة الدرج ، ولكنه توقّف هنالك ، وراح يصغي لأية أصوات قد تنهّي إليه من الطابق العلويّ ، بل إنه راح يتساءل عما إذا لم يكن ما رآه البارحة وهماً ، وربما استخدمت العجوز السحر لجعله يرى شيئاً لا وجود له . ولكنه

فيما وقف عند قاعدة الدرج ، راح الماء يغلي مجدداً فوق الموقد ، نعم ، لقد ملأت تلك الرائحة الكريهة ، التي لا سبيل إلى نسيانها ، الهواء الدافئ الرطب . لم يصدر صوت من أعلى ، لكن الضوء كان يخفق عند أعلى الدرج ، من المؤكد أن هناك أحداً ، في العلية ، لقد مرّ البارحة بالغلاية ، دون أن يعرف الغرض منها ، أما الآن فقد أدرك أن الماء المغلي بها معدّ لغسل الرؤوس .

أضافت معرفة أن كل شيء حقيقي المزيد إلى شعوره بالخجل . وفيما هو يرقى الدرج ، راح يجالّد شيئاً حاول ، بمزيد من القوة مع كل خطوة ، أن يرده إلى أسفل . وعندما بلغ قمة الدرج تكشّف أمامه مشهد البارحة تؤدّيه النسوة الخمس ذاتهن . لم يتوقّعه الليلة . كفت النسوة الثلاث عن عملهن ، ورمقنه في تشكّك ، ولكن حينما أومأت كبراهن إيماءة مهذّبة ، حذت الباقيات حذوها في رقّة ، دون أن ينتحّن الرؤوس التي كنّ يمسكن بها . لم يتحقّق الشك عبر وجوههن إلا للحظة ، واستأنفن في التوّ عملهن الصامت . تضرّج وجه النبيل الصغير بالحمرة في عنف ، فيما النسوة يحيّينه ، ولكنه رفع وجهه في شموخ ، وأفلح في التمسّك بأهداب الكبرياء ، التي يتوقّعها المرء من سليل ديميو . لم يكن قد تعلّم فنّ إخفاء شعوره بالخرج وراء ابتسامة . وبحسابه نجل نبيل مقاتل ، فإن عليه الاحتفاظ بكبريائه طوال الوقت ، وخاصّة أمام النساء . ولا بدّ أن المشهد كان طريفاً ، فقد وقف الصبي كأنه جندي شامخ في وقفته ، وفيما كان الخجل يعتريه في قرارة نفسه ، كان مظهره الخارجي متشامخاً . وأحسّ بالارتياح لدى عودة النسوة إلى عملهن ، دون أن يلقين عليه نظرة ثانية . ولا شك أن مجيئه بمفرده قد جعل التشكّك يداخلهنّ ، ولكنهن إذ يعلمن أنه سيكون من قبيل الوقاحة توجيه اللوم إليه ، وأن

القيام بذلك ليس مسؤوليتهن ، فقد عكفن باجتهاد على مهامهن .
وفي انشغالهن وسلبيتهن ، كنا على الوضع ذاته الذي عملن في إطاره
البارحة . وكذلك كان الحال بالنسبة لكل شيء ، فقد اضطقت
الرؤوس من طرف الغرفة إلى الطرف الآخر ، وراح مصباحان
يتوهجان تحت السقف المنخفض ، والهواء يفوح برائحة البخور
والدم . وبالنسبة لهوشيمارو كانت الليلة استمراراً للبارحة ، وبدا
عالم سنا النهار ، الذي تخلل الليلتين ، كما لو كان حلماً نائياً . لم
تغب إلا العجوز وحدها . ومن جديد لقه ثمل مغو ، نشوة حادة
مضت تعمل في فؤاده التمزيق .

وكما هو الحال في السابق ، راحت المرأة الجالسة إلى اليمين
تستخدم مخزناً في إحداث ثقب في رأس مقاتل وهب حياته
للحرب . أما الفتاة الجالسة في الوسط ، والتي كان عليها أن تغسل
الشعر ، فقد راحت تربت بمشطها على جبين الرأس . كانت هي
الفتاة التي خلبت لبّ هوشيمارو البارحة . في ملكوت الرؤوس
الملطخة بالدم ، مجمع الموت ذاك ، لا بد أن حسن الفتاة وشبابها قد
برزوا على نحو مفعم بالحيوية . وبالمقارنة بالرؤوس التي كساها لون
الرماد ، ربما بدا خدّها الورديان الأسيلان أشدّ تدفقاً بالحياة . فضلاً
عن ذلك ، فيما أن عملها كان تمشيط الشعر ، فإن أصابعها لا بدّ قد
تغطت بالزيت ، وبإزاء الشعر الأسود اللامع بدت ، دونما شك ،
أشدّ بياضاً ، وأعظم حيوية مما هي عليه بالفعل . والليلة أيضاً رأى
هوشيمارو تلك الابتسامة الغامضة ، وهي تتلاعب حول عينيها
وفمها . ولدى تلقّيها لرأس غُسل لتوه من المرأة الجالسة إلى
اليسار ، كانت تقوم أولاً بقطع الخيط الذي يضمّ الخصلة العلوية ،
ثم تقوم بتصفيف الشعر بحرص ونعومة . وفي بعض الأحيان تضع

قليلاً من الزيت ، وتمسك المساحة ذات الشعر الحليق بموسى ، أو تلتقط مبخرة من المنضدة المجاورة لها ، وتمسك بالشعر فوق الدخان . وعقب ذلك تمسك بخيط جديد في فمها ، فيما هي تلملم الشعر بيدها اليسرى وتعقد الخصلة العلوية من جديد ، تماماً على نحو ما يمكن أن يقوم به مصفف شعر محترف . عكفت على عملها منفصلة عنه ، ولكنها حينما تمعن التدقيق في رأس تم الانتهاء منه ، كما لو كانت تتأمل تصفيفة شعر ، تزحف دوماً تلك الابتسامة الملعونة عبر خديها .

ربما كانت تلك الابتسامة تعبيراً عن دماثة الفتاة ولطف معشرها ، فقد درجت على عادة الابتسام على نحو بهيج أمام الآخرين ، وراحت تبتسم دونما وعي بالطريقة ذاتها أمام الموتى . ومن الطبيعي بالنسبة لها أن تفقد حساسيتها أمام بشاعة الرؤوس التي تعمل بها ، وأن تستشعر عاطفة حيالها ، وأن تستجيب لها على نحو ما تستجيب للأحياء ، فيما هي تضع مواد التجميل عليها . ولكن بالنسبة لشخص يلج إلى هذا المشهد فجأة ، لا بد أن الرؤوس التي تجمدت عذابات الموت على ملامحها الشاحبة ، من ناحية ، والشفيتين الحمرأوين اليافعتين لهذه الفتاة الجميلة ، ابتسامتها مهما كانت عابرة ، من ناحية أخرى ، كانت شيئاً مثيراً . كان جمالها من النوع الساحر تنكّحه مرارة القسوة . هكذا ، فليس أمراً مدهشاً أن هو شيمارو ، الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة ، قد افتتن بمثل هذا الجمال . غير أنه، إضافة إلى هذا الافتتان، استشعر انفعالاً حاداً يتجاوز ما يستشعره الإنسان العادي . وقد جاء في « اعترافات دوامي » ، التي وصفت فيها حالة الصبي الذهنية بالتفصيل ، أن هو شيمارو قد حسد الرأس الموضوع أمام الفتاة الحسناء ، كان يحسن بالغيرة ، ولا

يرجع الأمر إلى أنه حسد الرأس على قيام الفتاة بتمشيط شعرها ،
وحلاقة مقدمته ، أو تحديقها فيه بتلك الابتسامة القاسية ، لقد أراد
أن يلقي مصرعه ، وأن يتحول إلى رأس شاحب يعلوه تعبير مفعم
بالعذاب ، تتلاعب به كفا الفتاة . كان التحول إلى رأس مجتث
شرطاً ضرورياً ، ولكن لئن أصبح رأساً على هذا النحو ، ووضع
أمامها بكل فتنها فما أشد سعادته عندئذ !

باغته وحيرته اللذة التي منحته إيّاها هذه الصورة الغريبة
والمفارقة للمنطق . كان حتى ذلك الوقت سيّد فؤاده ، وبمقدوره أن
يوجهه حيثما شاء . ولكن في أعماق أغوار فؤاده كانت هناك بئر عميقة
الغور ، ذات تكوين مختلف ، لا يطالها انضباطه الذاتي ، وقد
كشف الغطاء فجأة عن هذه البئر ، وفيما وضع يديه على الحافة
وتطلع إلى الظلمة ، روعه العمق السحيق . كانت مشاعره تحاكي
مشاعر إنسان كان يعتقد أنه في أوج الصحة ، ولكنه يكتشف أنه
يعاني من مرض خبيث . لم يدرك هو شيمارو مصدر مرضه ، ولكن
من المحقق أنه قد استشعر ، وإن يكن على نحو غامض ، أن ثمة
شيئاً مَرَضِيّاً في اللذة ، التي انبثقت من البئر السريّة القابعة في
صدره .

ولا بدّ أنه أدرك ، بالطبع ، أنه سيفقد وعيه إذا لقي حتفه ، ومن
هنا فإن تصوّره الخيالي - اللذة التي سيستشعرها لو أنه كان رأساً
موضوعاً أمام الفتاة - كان شيئاً مجرداً من المنطق . لقد كان ذلك
التصوّر الخيالي ذاته هو الذي منحه اللذة . لقد انغمس في تصور أنه
قد أصبح رأساً ، دون أن يفقد وعيه ، وحاول أن يتخيل أن أحد
الرؤوس الموضوعه أمام النسوة هو رأسه . وعندما ربت الفتاة على
رأس بفقار مشطها تخيل أنه هو نفسه يجري التريبت عليه ، فدفع هذا

بلذته إلى القمّة ذاتها ، وطال الخدر فمه ، وارتجف جسده . ومن بين الرؤوس المختلفة ، راح يركز على أشدها قبحاً ، رأس اكتسى بتعبير حزين أو متوسل ، ويقول لنفسه : « ها أنذا » ، ومنحه ذلك لذة أعظم من التوحد مع رأس محارب شاب رائع . وخلاصة القول إنه حسد الرؤوس الجديرة بالثناء والمثيرة للغثيان أكثر من الرؤوس الجميلة .

كان هو شيمارو صبيّاً جريئاً ، يتصرّف بلا توتّر ولا تكلف . ولا بدّ أنه قد استشعر كراهية متفاقمة لنفسه مع ازدياد حدّة لذته الباعثة على الخجل . ولا شك أنه قد اجتهد في كبح جماح استثارته . وقبل مضى وقت طويل ، استجمع كلّ ما لديه من قوة إرادة ، وانسحب من الغرفة الغامضة ، الحافلة بالندير ، التي بدت متأهبة لجرّه إلى الحضيض . كان الليل الخريفيّ الطويل لا يزال حالك السواد ، وهو يسرع عائداً إلى غرفته ، ويغطّ في نومه . ويتمّ على نحو مسهب سرد ما أعقب ذلك من عذاب هو شيمارو في « اعترافات دوامي » . على مدار ثلاث ليال أخرى تباعاً ، انطلق إلى العلّية ، وفي كلّ مرّة ينطلق فيها كان يخدع نفسه بحجّة أو أخرى : فمن الجبن أن يخاف على هذا النحو ، ولسوف يختبر قوة إرادته . ولكن ، في حقيقة الأمر ، كان إغواء المشهد يجتذبه بقوة لا سبيل إلى مقاومتها ، على وجه التقريب . وخلال تلك الأيام الثلاثة تعاوره بالتبادل نسيان النفس والنوم . وفي كلّ مرة ، لدى هبوطه الدرج، كان يكرّر لنفسه ما عقد العزم عليه : « ينبغي ألا أجيء هنا ثانية » ولكن عقب ذلك ، وفي جوف الليل ، كان يزحف منسلّاً من فراشه ، كأنما هو محموم يتخبّط ، ويسرع في يأس نحو بوابة فردوسه السريّ .

عندما وصل هو شيمارو إلى العلّية في الليلة الثالثة ، ألفى رأساً

غريباً أمام الفتاة . كان رأس ساموراي شاب ، لا يتجاوز عمره الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين ، وكان الأنف ، ويا للغرابة ، مفقوداً . كان وجهاً جذاباً ، البشرة شاحبة على نحو رائع ، والأجزاء حديثة الحلاقة تلتصق ، والشعر الأسود اللامع رائعاً ، كالشعر الذي ينسدل فاتناً على كتفي الفتاة وصولاً إلى ظهرها . لا شك أن هذا المحارب كان رجلاً شديد الوسامة . كان لعينه وفمه تكوين تقليدي ، وأفصحت الملامح الرجولية المتناسقة عن رقة من نوع ما . ولو أنه كان هناك أنف بديع ومستقيم في المنتصف ، لكان الوجه خير تجسيد للمحارب الشاب ، تماماً كما لو كان صانع دمي محنك قد أبدعه . ولكن لسبب ما كان الأنف مفقوداً ، كأنما اجتث بنصل حاد ، عظماً وجلداً ولحماً ، من الجبين وحتى الشفة العليا . وربما كان من شأن الأنف الأفطس ألا يفتقد على هذا النحو المؤلم ، ولكن المرء حريّ به أن يتوقع أن يجد امتداداً بديعاً ينهض من منتصف هذا الوجه الرائع . وبدلاً من ذلك ، كان هذا الملمح الحيوي قد أزيل تماماً ، كأنما أزالته سكين حادة ، تاركة جرحاً دمويّاً مسطحاً ، وكنيجة لهذا كان الوجه أكثر قبحاً وهزلية من وجوه البشر العاديين المتسمين بالقبح . مرّرت الفتاة مشطها بعناية في الشعر الأسود الكثّ للرأس المجرد من الأنف ، وأعادت ربط الخصلة العلوية ، ثم على نحو ما تعمل دوماً حدّقت في محور الوجه ، حيث كان ينبغي للأنف أن يكون ، وابتسمت . وكالمعتاد أثار التعبير المرتسم على وجهها النشوة في نفس الصبي . ولكن دفع الانفعال ، الذي استشعره في تلك اللحظة ، كان أقوى بكثير من أيّ انفعال أحسّ به في السابق . ففي مواجهة الرأس مجدوع الأنف ، توهّج محياً الفتاة بكبرياء وبهجة الأحياء ، تجسيدا لجمال لا يشوبه عيب . والآن بدت ابتسامتها ، لأنها على وجه الدقة ابتسامة صبيانية وغير مصطنعة ،

مترعة بأشد ألوان الخبث إغراقاً في النزعة الكليّة ، وأتاحت للصبيّ ما ينسج عليه تخیلات لا تنتهي . راح يحدث نفسه بأنه لن يسأم قط التحديق في وجهها الباسم . وكانت الخيالات التي ألهمه إياها هذا الوجه بلا حصر ، وقبل أن يدرك الأمر ، اجتذب الوجه روحه إلى أرض الأحلام المترعة بشراب الآلهة ، حيث أصبح هو نفسه هذا الرأس مبتور الأنف وعاش مع الفتاة في عالم خلا إلا منهما . وقد أحب هذا التصور الخيالي ، إلى أبعد الحدود ، حيث جعله أكثر سعادة من أي وقت مضى .

تحوّلت بهجته إلى نشوة ، ولكن ابتسامة الفتاة تلاشت تدريجياً منجاة عن خديها ، ولبعض الوقت وقف الصبي ذاهلاً ، وهو يتابع بقايا حلمه . وعندما رأى الفتاة تشرع في تمرير الرأس إلى المرأة الجالسة إلى يسارها ، بدد الصمت القاتل بقوله :

- ما الذي حدث لذلك الرأس ؟ ذلك الرأس الذي تمسكين به . . .

وإذ أدرك أن صوته يرتجف ، توقف عن الحديث ، ثم تكلم بقوة :

- ماذا يجري ؟ ذلك الرأس مبتور الأنف .

- ليس له أنف يا سيدي !

قالت الفتاة ، وقد وضعت يديها المتألفتين بالزيت على لوح الرؤوس أمامها ، واتخذت وضع التوقير المألوف لدى مخاطبة النبلاء . وفي غمار قيامها بهذا ، رشقت محيّا الصبي بلحظها في لمحة عجلي ، لكنها خفضت رأسها تواءً ، في انحناءة رشيقة مفعمة بالإجلال .

قال الصبي :

- لا بد أنه كان من الحماقة بحيث تسبب في بتر أنفه .

انبعثت من حلقه ضحكة مبحوحة ، أقرب إلى سعال عجوز منها إلى ضحكة صبي ، وجلجلت على نحو غريب في العلّة .

- لم بتر أنفه ؟

- ولكن ، يا سيدي ، هذا رأس - امرأة * !

- رأس امرأة ؟

- لا يا سيدي !

ربما كانت الفتاة في سنّها ذاك تحسّ بعدم الارتياح ، لدى الحديث مع الرجال ، وربما استشعرت من سلوك الصبي ، أو من الطريقة التي غمغم طارحاً الأسئلة بها ، أن هناك شيئاً غير عاديّ يحيط به . على أية حال ، فقد ظلت منكسة عينيها ، فيما هي توضح ، على استحياء ، وبتردد ، جلّة الأمر :

- إن رأساً - امرأة ليس هو رأس امرأة . لست أدري الكثير عن الأمر ، ولكن قيل لي إن المحارب لا يتمكن على الدوام في المعركة من أخذ رأس العدو ، الذي أرداه قتيلاً ، وحمله معه ، وفي مثل هذه الحالات ، فإنه لا يأخذ إلا الأنف فحسب ، حتى يكون بمقدوره أن يعود ، في وقت لاحق ، ليعثر على الرأس ذاته .

فيما راح هوشيمارو يلحّ بأسئلته ، زادت الفتاة رأسها انحناء ، وردّت بأكثر الإجابات إيجازاً . كان يريد أن يعرف ، على سبيل المثال السبب في أن هذا الرأس يُدعى بـ «الرأس - المرأة» . كان ذلك يرجع إلى

(*) المقصود رأس مبتور الأنف ، وقد دُعي بما هو وارد في المتن للإشارة إلى هذه الصفة وللإيماء إلى أن الأنف غير كافٍ للفصل بما إذا كان عائداً لرجل أو لامرأة (هـ . م) .

أنه إذا جلب الأنف وحده من ميدان المعركة فإن أحداً لن يستطيع القول ما إذا كان أنف رجل أو امرأة. وبشكل عام، لم تكن الرؤوس مجدوعة الأنوف من الأشياء المرغوب فيها. ولكن المقاتل الذي انتزع ثلاث أو أربع رؤوس في ميدان المعركة لا يمكنه أن يحملها جميعها، وبدلاً من ذلك فإنه ينتزع الأنوف، ويستخدمها في العثور على الرؤوس بعد المعركة. ولم يكن بتر الأنوف مسموحاً به إلا في حالة الضرورة القصوى، فيما أوضحته الفتاة، ولذا فإنه كقاعدة عامة نادراً ما يتم جلب رؤوس مبتورة الأنوف. وهذا الرأس هو الأول من نوعه الذي عاجلته بطريقتها تلك في الحصار الحالي. وقد استطاع هوشيمارو انتزاع هذا القدر من المعلومات منها، دون أن تضيف المزيد.

وإذا شئنا أن نقتطف من « اعترافات دوامي » لوجدنا ما يلي :

« أبلغني مولاي بقوله : ما من شيء في غرابة فؤاد الإنسان . قلو أنني لم ألتق بتلك الفتاة ، ولم يقدر لي قط أن أشهد رأساً - امرأة ، لما أسلمت لمثل هذه الأنشطة الباعثة على الشعور بالعار . وعاري ينهض من ذكرى محيّا تلك الفتاة ، الغائرة عميقاً في فؤادي ، بحيث لا أملك لها نسياناً صباحاً أو مساء . لقد أردت جلب رأس - امرأة ، وأن أرى وجه الفتاة الباسم من جديد . وبعد أن عقدت العزم على هذا غلبني نفاق صبري ، وذات ليلة انسللت خارجاً من القلعة إلى معسكر العدو » .

وفيه ينتزع هوشيمارو أنفاً في

معسكر العدو، ويبرهن على شجاعته

وقفت عقبات عديدة بين هوشيمارو وتحقيق رغبته في رؤية رأس آخر مبتور الأنف ، وهو يوضع أمام الفتاة في العلّة . فبادىء ذي

بدء ، لم يكن بمقدوره الاعتماد على شخص آخر في جلب رأس - امرأة ، ويتعين عليه أن يجلبه بنفسه . ومع ذلك فقد حظر عليه الخروج إلى ميدان القتال . وحتى إذا كان بمقدوره أن يتسلل خارجاً من القلعة ، فثمة عقبة أخرى ، إذ يتعين عليه رصد محارب بارز من مقاتلي العدو ، وصرعه أرضاً ، ثم اجتثاث رأسه وبتراً أنفه . لسوف يتعين عليه أن يخفي حقيقة أنه هو الذي احتز الرأس ، ثم أن يرسله إلى الفتاة ، على أنه مرسلٌ من شخص آخر . ولكي يكتسب المرء الجدارة في الميدان كان من الضروري وجود شاهد على ما اجتريه ، لكن هدف هوشيمارو لم يكن تأكيد جدارته وتميّزه ، وإنما ببساطة هدفه أن يرى الفتاة وهي تبتسم من جديد أمام الرأس مبتور الأنف ، وأيسر الحلول هو أن يطلب جثة مناسبة ، من بين الجثث المتناثرة في ساحة القتال ، فيحتزّ رأسها ، وإما أن « يخترع » شاهداً أو يرشو أحد الجنود المشاة ، ولكن ذلك أمر كان ضمير المحارب الكامن في أعماقه يأباه ، وما كان لسليل عائلة من الساموراي أن يقرّ مثل هذه الخطة الخسيسة . لا بدّ له من أن يقتل أحد محاربي العدو بنفسه ، وأن يحتزّ رأسه ، ويبتز الأنف . راح يصارع معضلته في تكتم ، وكان عليه أن يبدع خطة على وجه السرعة ؛ ذلك أن النسوة قد تستبدل بهنّ غيرهنّ .

فيما كان هوشيمارو يغذي آماله وخططه الغريبة ، واصل الجيشان معركتهما اليائسة ، عند التخم الحرجي للقلعة والحصن الثاني ، وإذا استشارها احتمال إحراز النصر الوشيك اندفعت قوات ياكوشيجي عبر الأسوار الحجرية ، وحطّمت البوابات ومضت قدماً في كتلة سوداء إلى حرم القلعة ، فلم يوقفها إلا المدافعون الذين نال منهم الاضطراب وردّوا إلى الحصن الثاني ، وقد ألقى في قلوبهم

السرعب ، صيحات غاضبة ، دويّ مدافع ، صرخات ، والزئير
الكثيب للجيش ، وهي تكرر وتفر . طوال اليوم ، راح عجيج الذبح
والدمار يتردد صداه ، كالرعد ، في أذني هوشيمارو . لم يكن هناك
إلا أمل واهن في أن قلق أوجيكا ، التي تناهبتها الشكوك ، يمكن أن
تصمد أكثر من هذا . وكان آوكي شوزين يضع ضماداً حول فخذه
الذي أصابته حربة ، وأصيب بجرحين في ذراعه ، ولكنه تحامل على
نفسه ، وواصل القتال ، ولم يعد يرعى شؤون هوشيمارو إلا قليلاً ،
وفي كل مرة ، فيما هو ينسحب ماضياً إلى المعركة كان يقول ، وقد
ارتسمت نظرة مأساوية في عينيه : « أمستعدّ أنت يا سيدي ؟ حينما
يحين الأوان لا تنس ما حدثتك به دائماً ! » . كان يبدو أنه يعني أن
على هوشيمارو أن يتأهب للقاء الموت في أية لحظة بشجاعة ، عن
طريق شقّ بطنه . وفي غضون ذلك ، كانت النسوة ، بمن فيهن
العجوز ، التي أرشدته إلى المبنى ، منهنكات في العناية بالجرحى
ونقل الموتى . وفي بعض الأحيان ، كان عملهنّ يستمر طوال الليل .

ولكن إذا كان مصير القلعة وحياة هوشيمارو يتدليان من خيط
رفيع ، فإنه لم يكثر لذلك ، فكلّ ما يعنيه الآن هو أن بمقدوره أن
يصنع ما يحلو له ، بفضل الفوضى ضاربة الأطناب في القلعة . لن
يكون من المتعذر أن ينسلّ خارجاً ، دون أن يلحظه أحد . أما
المشكلة الوحيدة فهي كيفية التسلّل إلى معسكر العدو . في الليلة
الثانية بعد تجربته الغريبة في العلية ، هبط في هدوء التلّ المترامي
وراء حرم القلعة ، وسلك ممراً سرّياً ، يفضي إلى خارج جدرانها .
حدّث نفسه بأن الحراسة ستكون متراخية في المعسكر الرئيسي
للعدوّ ، فيما وراء الخندق الخارجي ؛ لأن معظم جنود العدو حشدوا
داخل الحصنين الثاني والثالث . ومع وجود عدد محدود من

المحاربين ، من المؤكد أن الفرصة ستسبح له ، إذا لزم الطريق وبرز مباشرة وراء مركز قيادة العدو . دوى وجيب قلبه ، وراحت مفاصله ترتجف ، من فرط الלהفة ، شأن محارب يمضي للقتال للمرة الأولى . تراقصت أمام عينيه ابتسامة الفتاة الجميلة وحشود من الرؤوس مبتورة الأنوف .

بلغت الساعة الثانية من بعد منتصف الليل ، عندما بدأ الصبي في الانحدار مع الممر . كان البدر ، الذي ألقى بوجهه الشاحب على زياراته الليلية للعلية ، يرتاح الآن على قمة جبل أوجيكا ، وينقش ظلّه بحدة على الأرض . أرخى نقاباً شفيفاً على وجهه ، بحيث يبدو كما لو كان امرأة تهرب من القلعة ، وفيما هو يغذ السير شاهد ظلّ القلعة المرتجف يطفو عبر الأرض ، كما لو كان قنديل ماء .

لا بدّ أن معسكر الأعداء كان مجهّزاً خير تجهيز ، بعد أن داوم على إحكام الحصار لمدة شهرين ، وضّم ما يزيد على عشرين ألف رجل . كانت قلعة جبل أوجيكا تتصب عند حافة منطقة جبلية ، فوق نتوء جبلي ، يندفع في السهل ، كأنه شبه جزيرة ، وقد ضرب العدو معسكره ، على شكل حدوة حصان ، حول الطرف الأدنى لشبه الجزيرة تلك . وأقام الأعداء سوراً من الخيزران حول المعسكر ، وأشعلوا نيران المراقبة كل عشرة أو خمسة عشر متراً ، وبنوا أبراجاً للمراقبة هنا وهناك ، فيما يلي السور مباشرة . وأخيراً أقاموا عدداً من الملاجئ المؤقتة من ألواح الأخشاب ، لتكون بمثابة ثكنات ، يرقد فيها الجيش ابتداء من القائد العام فما دونه . وقد شقّ هوشيمارو طريقه عبر القمة المفتوحة لحدوة الحصان ، وسار بحذو أسفل ظهر معسكر العدو إلى أن بلغ قاع الحدوة . كان الآن وراء مقر قيادة

المعسكر الذي يواجه البوابة الأمامية للقلعة . اخترق سور الخيزران ، وانسل دون أن يلحظه أحد إلى الداخل . وما كان يمكن ، بالطبع ، في الظروف العادية أن يكون التسلل إلى معسكر الأعداء على مثل هذا القدر من اليسر . ولكن ، وكما توقّع ، كان معظم جنود العدو في مواقعهم داخل الحصنين الثاني والثالث ، تاركين المعسكر يعاني من النقص في الجنود ، ومراكز المراقبة لاهية عما عهد إليها به .

كان الصبي قد اعتاد الحياة داخل قلعة ، أما الليلة فقد كان يرى ، للمرة الأولى ، ترتيب معسكر ميدانيّ ، فأوغل في إرضاء فضوله ، بالانزلاق إلى داخل السور . وإذا أدرك أن تنكره لن يعود عليه إلا بإثارة التشكك ، داخل المعسكر ؛ فقد طوى النقاب الذي كان يضربه على وجهه ، ودسّه في صدر الكيمونو الذي يرتديه ، ثم بسرعة الطائر المحلق وخفّته ، انطلق يعدو من مبنى إلى آخر ، مشمّحاً بالظلال القاتمة ، التي ألقاها البدر الساطع . راح يتوقّف تحت طنف كل مبنى ، ويحدّق داخله . ومن حسن طالعهِ أن سنا البدر قد محا الضوء المنبعث من نيران الحراسة فبدت كأنها دخان أشهب شاحب . أحدث التوهّج العشوائيّ للبدر انعكاساً ذهبياً على الأرض ، وخلع إشعاعاً ضوئياً على كل شيء مهما صغر بحيث يحجبه عن النظر في هواء الخريف الليليّ الرائق . وجعل هذا التوهّج غير العاديّ نظر الحراس يغرق في ضرب من الغش . زحف الصبيّ بعيداً عن مجموعة من الحراس الجاثمين ، فيما هم يتحلّقون النار ، ومضى تحت برج حراسة بصورة مباشرة ، ملتصقاً بالظلّ الذي ألقاه البرج ، كأنه وشاح على الأرض ، لكن أحداً لم يعترض سبيله . وبما أن مدافعي القلعة قد ردّوا على أعقابهم إلى حرمها

الداخلي ، فلا شك أن الحراس قد تراخوا في المراقبة وغطوا في نومهم . وحتى لو أن أحداً كان قد رآه فلا بد أنه خلط بينه وبين وصيف شاب فتنه القمر .

كانت كل ثكنة محاطة بخيمة معسكر ، تحمل شعار شاغل الثكنة ، وانتصبت لافتة عند كل مدخل ، فيما احتشدت وراء الستائر الأعلام والرايات والحرايب وما إلى ذلك . وفيما كان هوشيمارو يتفحص هذه المقار ، أحدها بعد الآخر ، ألقته الصدفة أمام ستارة فاخرة ، على نحو خاص ، تحمل شعاراً مميزاً ، فتجمّد في موضعه ؛ كان الشعار هو شعار ياكوشيجي دانجوما ساتاكا ، وعرف أن الستارة تلفت بالتأكيد مقر قيادة القائد العام للعدوّ . رفع الستارة ، وزجّ بنفسه ملاصقاً للحائط الخشبي للثكنة ، وأرهف السمع للحظة ، لكنه لم يسمع شيئاً ، ثم دار حول المبنى ، فألقى اسطبلًا به خمسة أو ستة جياذ مقيّدة بحبال إلى أوتاد ، بدا أنها تخصّ القائد العام . أحسّ هوشيمارو بأنه حتى وإن كان الجميع يرقدون بسلام فإن القدر أهداه فرصة لاجترّاح أعمال بطوليّة لم تخطر له على بال قط . كان هدفه هو الحصول على رأس - امرأة وليس على رأس القائد العام ، ولكن لو أنه ترك هذه اللحظة التي ألقى بها العناية الإلهية إليه تنقضي لما كان جديراً بتراث ساموراي . ولأن شعار القائد العام وراياته كانت ها هنا فمن الممكن ألا يكون قد انضمّ إلى القوات القائمة بالحصار ، وأنه يغطّ في نومه ، في غرفة داخلية بهذه الثكنة . ولو أن كل شيء مضى على ما يرام ، واستطاع أن يحتزّ رأس القائد العام لحقّق جدارة لم يسبق إليها سابق . كانت هذه الفكرة بمثابة حافز أطلق مشروعه المغامر من عقاله ، وبرباطة جأش رجل ناضج وشجاعته ، فتح الباب الخلفي في هدوء . وفي لحظة ، راح

يتحسس طريقه على امتداد أرضية الدهليز الخشبية باتجاه ما خمن أنه
الغرف الداخلية . كان كل شيء يحيط به غارقاً في ظلام دامس ،
ولكن بالاستعانة بسنا البدر ، الذي انسلّ عبر الثقوب ومن الفرج
بين ألواح الخشب ، تلمس طريقه إلى نهاية الدهليز ، وأخيراً إلى
باب . من خلال فتحة ضيقة ، انساب ضوء لهب من الغرفة التي
يسدها الباب . فتح الصبي الباب لمسافة قدم تقريباً ، كان الداخل
مقسماً إلى منطقتين ، وبدت المنطقة التي استطاع هوشيمارو أن
يلمحها غرفة أمامية ، يرقد فيها وصيفان في مثل عمره ، على وجه
التقريب ، وفصل ستار الغرفة الأمامية عن المساحة الخلفية ، وثمة
مصباح مضيء خلف الستار . ومحاذراً إيقاظ الوصيفين تسلل
هوشيمارو على أطراف أصابعه عبر الغرفة الأمامية ، وجثم في ظل
الستار ، وحدق في وجه المحارب الراقد وراءه . وعلى الرغم من
أن الثكنة مقامة من كتل خشبية خشنة ، فإن الغرفة كانت فسيحة ،
وقرب الوسادة فجوة علقت فيها لفيفة تضم صور « هاتشيمان » إله
الحرب ، ووضعت أيقونة لـ « فودو مايو » إله النار الرهيب على
مذبح نقال جوار الفراش . ولم تترك الأدوات الكمالية والسيف
الطويل والدرع ، حامل السيف وقطع الأثاث الثرية المطلية باللك
الذهبي والفضي شكاً في نفسه حول أن هذا المقر ليس ثكنة
ساموراي عادي . وإضافة إلى ذلك ، كان شعر الرجل معقوصاً
بأسلوب يقتصر على القادة وحدهم ، واستقر رأسه على وسادة في
لون اللك الأسود ، على جانب كبير من الفخامة ، وكان يرتدي
منامة من الدمقس . لم تكن لهوشيمارو معرفة سابقة بعمر أو مظهر
ماساتاكَا . وقد بدا هذا الرجل في الخمسين من العمر ، عريض
الجبين ، له محيّا بيضاوي وسيم ، وبشرة رقيقة ، وملامح دقيقة ،
ولاح في سكونه أقرب إلى رجل بلاط منه إلى ساموراي . ومعظم

المحاربين ، ممن هم في مثل عمره ، تميّزهم بشرة خشنة ، لَوَحْتها الشمس ، وتحمل بعض آثار ساحات القتال ؛ أما بشرة هذا الوجه الغافي فرغم سمرتها الداكنة ، إلا أنها كانت تحاكي سطح خشب تم تلميعه إلى حدّ التألّق ، وله النسيج الرقيق الذي يميّز أبداع أنواع الرق . لم يكن هذا الجلد جلد محارب ، أمضى أيامه على ظهر جواد ، ينهمر عليه المطر ، وتعصف به الريح ، وإنما كان جلد رجل أرستقراطي ، آوى إلى هذا الملجأ كما لو كان طفلاً ، ولا يعرف شيئاً إلا مباحج الشعر والموسيقى في البلاط .

كان ياكوشيجي دانجوما ساتاكا رجلاً قوياً حقاً ، رغم أنه لم يكن إلا تابعاً لعشيرة هاتاكياما . ومنذ عهد أبيه فاق نفوذ أسرته نفوذ آل هاتاكياما ، وبين الحين والآخر وحتى باعتباره تابعاً هامشياً كان بمقدوره أن يوجه إرادة نظام شوجون موروماتشي . وقد ارتفع إلى هذه المرتبة الخاصة بفضل قدرات أبيه في المقام الأول ، ولم تكن منجزاته العسكرية مجيدة على نحو خاص ، وإنما بالأحرى استخدم الوضع المؤثني الذي حققه أبوه كمنطلق للحركة ، وبلاستعانة بفصاحته الخاصة ولماحيته وبعد نظره ، فاز بالخطوة لدى رؤسائه ، واستفاد من عصر كان التابعون فيه يسيطرون على سادتهم . هكذا ، فعلى الرغم من أنه كان من الناحية الإسمية ديميو ، إلا أنه كان من وجوه الطبقة النبيلة ، التي استعارت لنفسها أجواء أعضاء البلاط . وفي هاتيك الأيام ، كان الكثيرون من ساموراي كيوتو من أعضاء نظام الشوجون فيما دون ذلك يتأثرون تدريجياً بالبلاط ، وبدأوا في انتحال طرق سلوك الأرستقراطيين ذوي الأعصاب المرفهة ؛ ومن هنا فليس من المدهش أن ماساكاتا كان أكثر تملكاً لناصرية الشعر من الحرب ؛ وقد جاء إلى هذا الحصار بنفسه باعتباره القائد العام ، ولكنه لثقته في التقدم الذي أحرزته قواته ، أغفى الآن بارتياح في ثكنته . هكذا كان

الرجل الذي راح هوشيارو يحدق في وجهه الغافي .

أحسن الصبيّ بأن هذا الرجل ، الذي خلص إلى أنه ماساتاكاف
نفسه ، ينقصه شيء . حقاً إنه يتميز بالكبرياء والوقار اللائقين بديميو
بارز ، لكنه بدا أكثر اعتدالاً مما ينبغي ، كان يفتقر إلى الجلال الذي
يتوقعه المرء في كبير عشيرة حربية وقائد لجيش مؤلف من عشرين
ألف رجل . لقد تصور الصبي القائد العام ، متمتعاً بالمناقب ذاتها
التي رآها في أبيه تيروكولوني ، أمير موساشي ، وفي إيكانساي
صاحب قلعة أوجيكا : بدن كال فولاذ ، وجه جريء يتوهج بالرغبة في
الغزو . أما هذا الشخص الناعم فمن الممكن التخلص منه بغاية
السرعة ، حدث الصبي نفسه بأن الرجل ليس تحدياً يعتدّ به . لكن
ذلك لم يكن سبباً لاستيائه أو لشعوره بخيبة الأمل ، لربما كان حرياً
به أن يحسّ بشيء من هذه المشاعر ، لو أنه كان بسبيله لإظهار
شجاعته أو للقيام بإنجاز هائل ، ولكنه كان يتطلع إلى الوجه الغافي
من وجهة نظر مختلفة . ففي محور الوجه استقرّ أنف جميل ،
نحيل ، رقيق ، وأرستقراطي . وكان بمقدوره ، من موقفه ، أن
يتطلع مباشرة إلى خيشومي الأنف المقلوب إلى أعلى قليلاً ، وأن
يحكم انطلاقاً من الفاصل المستطيل الناحل الذي يفصل الخيشومين
أحدهما عن الآخر ، بأن اللحم ليس بالغليظ . وكما هو الحال في
الأنوف النبيلة ، تقوّست أرنبة الأنف قليلاً ، وبدا تكوين أطراف
العظم واضحاً هوناً ما تحت الجلد . ولو أنه قدّر له أن يتر هذا
الأنف ، فإن الابتهاج الذي يحدثه هذا الدمار لن يكون أقل من ذلك
الذي أحدثه الرأس - المرأة في العلّة . هنالك كان رأس محارب
شاب وسيم ، ولكنه ملتصق ببدن القائد العام للعدو ، الذي ربما لم
يكن مناسباً تماماً ، وكان رأساً بديعاً ، رقيقاً ، حسن المنظر ،

الأمر الذي يعوض عن النقص المتمثل في أن صاحبه في أواسط العمر . لا ، لا بد أن هذا الأنف أكثر إغواء من الأنف الآخر ، وكافٍ لكي يفعم الضبي ، الذي استمد مثل هذه اللذة من ذلك المشهد في العلية ، بالحنين .

فيما كان يحدق ، تأرجح الضوء المنبعث من المصباح الزيتي الصغير ، وارتجف في مجرى التيار الهوائي . ومع كل خفقة راح الظل الذي يلقيه الأنف على الوجه الغافي يتأرجح بدوره . في بعض الأحيان ، وبحسب حركة اللهب ، تبتلع الظلمة الأنف بكامله ، فجأة يعاود الأنف الظهور ، ثم يختفي . بدا الأمر كما لو أن الضوء المتقلب يحاول غواية الصبي ، ومضى الأنف ذاته يستحثه إذ يبدو كما لو اجتث من موضعه ، لاح حريصاً على أن يبتز بأسرع ما يمكن . ومن جديد تراءت ابتسامة الفتاة الملعزة لهوشيمارو ، لسوف يحول هذا الوجه إلى رأس بلا أنف، يضعه أمام ركبتيها، يعرضه أمام عينيها المحدثتين - لا يمكن أن تكون هنالك لذة أعظم من تلك.

كان هوشيمارو ثقيلاً وقوياً بالمقارنة بمن هم في مثل سنّه ، وواثقاً من قدرته على إعمال سيفه . لطم بغتة وسادة الرجل الغافي بقدمه ، وقبل أن يفلح خصمه في مدّ يده إلى سيفه ، وثب على صدره ، وهو يحاول الجلوس ، واقتعد الصدر ، واخترق زوره بضربة باطشة واحدة . كان السيف القصير الذي أهده والده تيروكوني إليه من صنع المبدع الشهير كانيمتسو ، ولكن براعة الصبي كانت أكثر تأثيراً من السلاح ، بعد أن دفع بالسيف غائراً بضربة واحدة ، ونهض على جناح السرعة حتى أن الدم المنبثق لم يكد يمسه . أدهشه حذقه وبراعته ، فلم تتح للرجل حتى الفرصة

للصراخ . ورأى هوشيمارو العينين المترعتين رعباً والفم المفتوح والمتأهب للنطق ، ثم بعد لحظة وجه الموت متجمداً ، والملامح متقلصة تحت وطأة العذاب . وفي تلك اللحظة عينها ، لمح وميض نصل خلفه عن كشب ، فقد استل الصبّتان الراقدان في الغرفة الأمامية سيفيهما في وقت واحد ، واندفعا نحوه ، ولكنه إذ دعمت ثقته بنفسه الضربة التي وقّق في توجيهها تنحّى جانباً ، واندفع باتجاه الفجوة الموجودة في الجدار ، وهنالك وقف متأهباً ، وخلفه الليفة التي تحمل صورة « هاتشيمان » وقد كفل له هذا الوضع التمتع بميزة واضحة ، حيث إن نصف الفراغ الموجود أمام الفجوة شغلته الجثة والمذبح النقال والأثاث المجاور للسريّر ، وهكذا اضطر العدوّان المقبلان إلى الاقتراب من جانب واحد . لاح جلياً أن الوصيفين قد اضطربا أشدّ الاضطراب لمراى مولاها الصريع ولإدراكهما أن القاتل يافع في مثل سنّهما . ولا بدّ أن هوشيمارو فيما هو يثب إلى الفجوة وينتظر مطارديه بصمود بطل مخضرم قد بدا لهما كما لو كان شيطانياً انشقت عنه الأرض . ورغم القوة الأولى التي اندفعا بها ، فإنهما تحلّقا جثة مولاها في حذر حريصين على عدم دهسها ومقتربين في بطاء من الفجوة .

امتشقا سيفيهما وذباباتاهما على استقامة واحدة ، وتقدما باتجاه حافة الفجوة ، ولكن فيما أوشكا على ولوجها ، تراجع أقلّهما ثباتاً ، وراح هوشيمارو يرقب تحركات أدناهما إليه ، وفي اللحظة التي وضع الوصيف قدمه على عتبة الفجوة ، اندفع هوشيمارو إلى الأمام ، طاعناً بسيفه ، فتراجع الوصيف ، وقد أذهله هذا الهجوم الضاري ، من صبيّ كان يقف محصوراً في ركن لا يبعد عنه إلا بستة أقدام . وقد أتاحت الفجوة ، نظراً لانخفاضها ، ميزة لهوشيمارو ،

وإذ رأى أن ضربته الأولى قد أحدثت جرحاً غائراً في كتف الوصيف ،
بادر إلى ضمّه إليه ، وطعنه في جنبه ، فتهالك الصبيّ وثيداً والدم
يتدفّق من جرحيه ، كأنه سفينة تغوص إلى القاع ، وحتى قبل أن
يرتطم الوصيف الأول بالأرض كان هوشيمارو يهاجم الآخر ، وإذ قهر
الرعب هذا الصبيّ التعس ، بدا مجرداً من إرادة القتال ، ولكنه صمد
نتيجة لإصرار على أن يلحق بمولاه في موته ، أشاح بعينه عن وميض
سيف هوشيمارو ، وصدّ النصل مرتين أو ثلاثاً ، لكن مقاومته كانت
من النوع الحافل بالاستسلام ، ومن قبيل رفع العتب ، والمترع
بالدمع ، فأطاح هوشيمارو بالسيف من يده ، وألقاه أرضاً ، وأغمد
السيف في صدره .

وإذ تخلص من الوصيفين ، انحنى إلى جوار جثة القائد العام ،
وقابضاً على خصلة الشعر العلوية بيده اليسرى ، شرع في احتزاز
الرأس بيده اليمنى . وعند ذاك سمع وقع أقدام العديد من الرجال ،
وهم يعدون باتجاهه عبر الدهليز . ورغم سرعة الصبيّ ، فلا بدّ أن
الأمر استغرق منه خمس عشرة أو عشرين دقيقة لينجز كل هذا القدر
من الأعمال . ولم يكن ثمة أحد يقف حارساً قرب الغرفة الداخلية ،
فيما يبدو ، ولم تفجأ الضجّة محاربين في البعيد إلا الآن فحسب ،
فأقبلوا عدّواً ، ولم يكن أمام هوشيمارو الكثير من الوقت ، ولكن
احتزاز الرأس من الجثة برهن على أنه أمر أكثر صعوبة من طعن رجل
حيّ ، فداخله الفزع ، فيما هو يصغي للأصوات المتناهية من
خلفه . ولئن أراد الهرب ، فعليه أن ينطلق الآن ، لقد نجحت خطته
حتى الآن ، على نحو عجائبيّ ، ولكنه سيتعين عليه في نهاية
المطاف التخلي عن هدفه ، أو أن تتعاوره السيوف . صرّ على
أسنانه ، شاعراً بالإحباط ، وانتزع السيف ، ولكنه عندئذ ، وأياً كان

السبب ، احتز أنف الجثة ، فتهات كتلة اللحم إلى الأرض ،
ومنتزعا إياها ، في رد فعل عصبي ، نحتى جانباً باباً منزلقاً ، ولاذ
بالهرب .

عندما يقرأ المرء سيرة حياة بطل عظيم ، يبدو في غالب الأحوال
أن السماء قد منحته حماية خاصة ، الأمر الذي يمكنه من المغامرة
باقتحام مواقف تعلو على مطال تجربة الإنسان العادي والنجاة منها
دون أن يمتسه أذى . وما العمل الجريء الذي اجتريه هو شيمارو إلا
مثال على صحة هذا القول . وربما كان قد بتر الأنف تنفيساً عن
شعوره بالإحباط ، وربما أراد أن يحقق جزءاً على الأقل من الهدف
الذي رمى إليه ، وربما مجدداً تصرف الفتى الجسور ، في نهاية
المطاف ، بدافع من فزعه . لا سبيل إلى معرفة حقيقة الأمر . ولكن
كائناً ما كان كبد الحقيقة ، فإنه لو لم يأخذ الأنف معه حينما لاذ
بالهرب لربما كان قد وقع في أيدي مطارديه . لا يعدو ذلك أن يكون
مجرد تخمين ، لكن المحاربين عندما وصلوا إلى المخدع واكتشفوا
أن شيئاً مهماً قد اختفى من محيّا مولا هم ، لم تمض إلا قلة منهم وراء
مقترف هذا الجرم ، لكن الباقين ، وقد قفزوا إلى استنتاج أن الأنف
قد بتر بمحض الصدفة ولأنهم ما كانوا ليخمنوا قط أن المهاجم قد
مضى به ، ربما راحوا ينقبون الغرفة بحثاً عن قطعة من وجه
مولا هم . في البداية ، لم يطارد هو شيمارو إلا رجلان أو ثلاثة ،
ويبدو أنهم ظنوا أن الصبي ، الذي يعدو أمامهم ، هو أحد الوصفاء من
المعسكر استيقظ وقدم معهم . وبالكاد أفلح هو شيمارو في الابتعاد
الغرفة ، وقبل أن يستطيع اجتياز السور الخارجي ، سمع دويّ النفير
وقرع الطبول في أبراج المراقبة ، في كل الاتجاهات . وإذا انتزع
الرجال من أحلامهم انتزاعاً ، تدفقوا خارجين من الثكنات . عمّ

الهرج والمرج المعسكر ، لكن هذه الفوضى كانت في صالح هوشيمارو ، فقد شقّ طريقاً بين المشاعل المتعددة في ثبات ، وفي نهاية المطاف انتزع مشعلاً ، وراح يلتوح به ؛ ذلك أن الصبي كان من الحذق بحيث أدرك أن قوامه سيلفه الغموض إذا كان يحمل مشعلاً في يده ، ولدى وصوله سالماً إلى خارج مجمع المعسكر ، ألقى بالمشعل ، وبعد العدو لمسافة ستمائة أو سبعمائة متر ، أرخى نقابه على وجهه ، وذاب في سنا البدر المترامي بلا انتهاء .

وفيه تصيب الحيرة الطرفين ،

وترفع قوات ياكوشيجي الدمار

تقول أسفار التاريخ إن ياكوشيجي دانجو ماساتاكاسا سقط مريضاً ، خلال الهجوم على قلعة أوجيكا ، في الشهر العاشر من العام ١٥٤٩ ، فرفع الحصار ، وانسحب إلى كيوتو ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة ، بعد عشرة أيام في دارته في أبوراكوجي . ومن الجليّ من كتابي « اعترافات دواجي » و « حلم ليلة » أن هذه الصورة عارية عن الصحة ، ولكن في الوقت نفسه لم يعرف القصة الحقيقية إلا قلائل من القوة المهاجمة ، وهوشيمارو وحده في القلعة .

ويبدو أنه خلال دقائق من هرب هوشيمارو اندلع حريق في المعسكر لاح ظاهراً للعيان من القلعة ، ولم تحترق إلا ثكنة واحدة ، وسرعان ما تمّ حصر النيران ، ويلوح أن شخصاً ما في المعسكر كان من الحكمة بحيث أضرم النار عمداً ، لتقديم تفسير محتمل للهرج والمرج السائدين . وخلاصة القول إن مصرع القائد العام كان نتيجة للتقصير ، وزاد الطين بلة أن القاتل سمح له بأن يلوذ بالهرب ، ولا بدّ أن الحرج الذي ساد القيادة العليا كان بالغاً ، ولكن في المقام

الأول أجري بحث لاهف عن الأنف ، فالأنف ، المفقود أصعب بكثير في التعامل معه من الرأس المفقود . لقد استهان إماماواه يوشيموتو بخصمه ، ففقد حياته جزاء وفاقاً في معركة أوكيها زاما ، ولكن بعد مضيّ بعض الوقت أعيد الرأس والأنف ثابت في موضعه منها بالطبع . غير أنه كان إذلالاً مضاعفاً ، بالنسبة لرأس ماساكاتا ، أن يتركه القاتل وراءه ، ويأخذ معه الأنف ، وما كان يمكن أن يذاع هذا النبأ في المعسكر . وهكذا يبدو أنه كوسيلة لمعالجة الموقف فرض القادة التزام الصمت على من شاهدوا ساحة القتل ، وعزيت الطبول والأبواق إلى الحريق .

ولكن حتى إذا كانت هذه الاستراتيجية قد أفلحت في إخفاء الحقيقة عن المعسكر ، فإنها قد تصدر عن العدو ، فيصل رسول حاملاً الأنف على صحيفة ، ويقول : «لقد سقط شيء ثمين ينتمي إلى الأمير ماساتاكاتا ، على نحو غير متوقع ، في أيدينا . ولا شك في أنكم بحاجة إليه ، ولذا فإننا بمقتضى هذا وبمزيد من التوقير نعيده إليكم » . وقد روّعت إمكانية حدوث شيء من هذا القبيل القائمين على إدارة دمة الأمور في معسكر ياكوشيجي . وعندما أطلّ الفجر ، خفقوا من ضراوة الهجوم ، ورصدوا ما ستقدم القلعة عليه ، ولكن ما من رسالة وصلت ، ومع انحسار الهجوم ، ساد القلعة المحاصرة بدورها صمت غريب ، الأمر الذي زاد رجالات الحاشية قلقاً . وشرع الشكّ في وجود مؤامرة يراودهم . وأشار البعض إلى أنه كائناً من كان ذلك الذي اخترق مخدع القائد العام فإنه ليس عميلاً للقلعة ، وإنما لصّ ، أو ربما شخص يكنّ ضغينة شخصية للأمير . فلو أن المهاجم كان ساموراي لما اقترف جرم بتر الأنف الذي يبدو عبثياً . وقد لاحت هذه الحجّة مقنعة ، ولكن آخرين اعتقدوا أن

ساموراي من القلعة قد مضى بالأنف ، إذ لم يتح له الوقت الكافي لاحتراز الرأس . وأن العدو يعتزم استخدام الأنف لإذلالهم .

وفيما كان قادة الياكوشييجي عاكفين على سبر أغوار نوايا القلعة ، ساور القلق القوات المدافعة عن القلعة بدورها ؛ إذ لم يكن لها علم بالسر الذي جعل محاصري القلعة الموشكين على الانتصار يوقفون هجومهم ، على حين غرّة . كان المدافعون ، وهم يخوضون غمار القتال ، يعتقدون أنه لا سبيل أمامهم للنجاة إلا بحدوث تغير سياسي في كيوتو ، ولكن لم ترد تقارير عن وقوع أي شيء من هذا القبيل .

لقد مضى القائمون بالحصار قدماً في هجومهم حتى غدا سقوط القلعة وشيكاً ، ولم يكن ثمة ما يدعوهم الآن للانسحاب ، لكنهم لزموا جانب الحذر ، على نحو غريب ، منذ الصباح . لم يعودوا يقرعون طبول الهجوم ، أو حتى يردون على نيران القلعة ، وإنما قنوا دفاعاتهم ، ولزموا الصمت ، وكل ذلك دونما سبب واضح .

لقد شب حريق في معسكر الأعداء البارحة ، ربما وقع خطب فادح . وأرسل الجواسيس إلى خارج القلعة ، لكنهم لم يرجعوا بشيء له مغزاه . من المؤكد أن ثمة حقيقة غائبة ، وهكذا اجتمع إيكانساي مع كبار ضباطه لمحاولة اجتلاء كنه الأمر ، ولكن ما من أحد منهم استطاع أن يطرح شيئاً يتجاوز التخمينات العرضية ، وكان لكل منهم نظريته ، لكنهم لم يخرجوا بشيء . وذهب أحدهم إلى القول بأن على القلعة أن تشن هجوماً يائساً ، ولكن آخرين ردوا عليه بأن ذلك من شأنه أن يكون أمراً خطيراً ؛ لأن أحداً لا يستطيع التكهّن بالمخططات السرية ، التي يعد لها العدو ، ولسوف يكشف لهم مرور الوقت عما يصير إليه الحال ، وعلى قوات القلعة أن تلزم السكوت إلى أن يشرع العدو في التحرك ، وفي نهاية المطاف أوشك النهار على الانتهاء .

فيما كان الجيشان المتصارعان يقفان فريسة لشياطين من صنع خيالهما ، أخذ العذاب بخناق هوشيمارو لإخفاقه البارحة . وعلى الرغم من أنه لم يكن واثقاً في ذلك الوقت من أن الرجل الذي قتل هو القائد العام للعدو ، إلا أنه اقتنع أخيراً بذلك ، حينما هلّ الصباح ، وانحسر الهجوم بغتة . لكنه ما كان ليمضي في حبور ليبلغ الآخرين بما أقدم عليه . غالباً ما يشير الأطفال الحيرة والاضطراب ، لدى الكبار ، بمزحة بريئة مندفعة تؤدي إلى تعقيدات لم تخطر لهم على بال . وفي مثل هذه الحالات ، فإن الجميع سيوفرّ عليهم عناء طائل لو أن الطفل أوضح فحسب أنه هو الذي أشعل شرارة الأمر كله ، ولكنه في غمار خشيته من اللوم ، أو تردده في الحديث حينما تأخذ الأمور هذا المعنى ، يدعي الجهل بالأمر ، ويأمل في ألا يكون أحد قد اطلع على جلّيته . وقد كانت مشاعر هوشيمارو قريبة من هذا ، فلو أنه تقدم وأقر بأنه هو الذي أحدث التغيير في موقف العدو ، بما أقدم عليه البارحة ، لالتقط المدافعون عن القلعة أنفاسهم تَوّاً ، ووفروا على أنفسهم قلقاً هم في غنى عنه . وقد تاق هوشيمارو إلى الكشف عن جلّية الأمر ، عندما أدرك مدى براعته في إنجاز ما قام به ، وكيف أن أباه وإيكانساي سيمتدحانه إذا ما علما بما اجتريه ، وهو في عمره ذاك ، ولكنه أحس بالفزع ، حيال الفكرة القائلة بأن العمل الجسور ، الذي قام به ، قد يكون جرى بمحض الصدفة ، وأن الدافع المخزي الكامن وراءه قد يتكشف للعيان . وعلى أية حال فمن ذا الذي سيصدق إذا حاول نسبة ما قام به إلى شخصه بلا دليل ولا شاهد ؟ لو أنه قدم نفسه في لحظة عودته إلى حرم القلعة للمسؤولين ، لربما كانوا قد صدقوه ، ولكنه في حقيقة الأمر ، وقبل أن ينسل تحت أغطية فراشه ، كان حريصاً على القضاء على هذا الدليل ، بإلقاء الملابس المخضبة بالدم في نيران الحراسة

الكبرى . أما الآن فإن البرهان الوحيد الموجود لديه هو الأنف ذاته ،
الذي لفه في ورقه ، وأخفاه في صدر ثوبه . ولكن لو أنه قدّمه ،
لفضح سره الحيوي .

أما ما شغل خاطر هو شيمارو أكثر من غيره فهو أن خطة البارحة
باءت بالخذلان ، في اللحظة الحرجة ، ولا شك أن العدو قد تعلم
من الدرس الذي تلقنه ، وسيكون أشد يقظة ؛ الأمر الذي يجعل من
المسحيل عليه أن يتسلل إلى المعسكر من جديد بمثل هذه
السهولة . وبين الفينة والأخرى ، وبعد التأكد من أنه بمفرده ، راح
يلتقط الأنف من صدره ، ويسرح بخاطره في حلم من أحلام اليقظة .
لقد ارتسم بعمق وجه الجثة لحظة بتره للأنف في خياله ، وازدادت
الصورة حيوية في كل مرة يستخرج كتلة اللحم الصغيرة تلك من
صدره . ولكن آه لو أنه كان لديه الرأس ذاته ! طال به الحنين إلى
المضي طلباً له . لا شك في أن جثمان القائد العام سيكون الآن
مسجى ، في تلك الغرفة الداخلية . وراح يتصور الغرفة ثم وجه
الجثة المسجاة الناعم الرقيق ، وأخيراً التجويف في وسط الوجه .
وشأن شيء نادر عظيم القيمة ، أثارت الصورة رغبته في
الاستحواذ . ولكن الآن وقد انتهى القتال ، كفت النسوة في العلية
عن عملهن ، وحتى لو أنه استطاع سرقة الرأس وإحضاره إلى
القلعة ، فقد ضاع منه إلى الأبد الأمل في وضعه أمام الفتاة . غير أنه
كان بمقدوره أن يختلس نظرات إليها ، فيما هي تجلس وسط النسوة
اللاتي لم يعد لديهن شيء يشغلهن ، فتجمعن في غرفته من جديد
ليشكلن حلقة حول المعجوز ويوغلن في الشرثرة ، من الصباح حتى
المساء .

ولكن ربما لم يكن هناك شيء أكثر تجرداً من الأمل وتعرضاً

للاكتشاف من الهوى ، المكنون ، والذي لا يلقى استجابة ، إذ يستشعره صبي ، حيال امرأة تكبره سناً ، فالفتاة ، دونما إدراك منها ، أشعلت لهيب العاطفة في صدر هوشيمارو ، ودشنت حياته الجنسية التي لا تطاق . ومع ذلك ، فإن هوشيمارو لم يستشعر إلا افتتاناً ، نائياً ، يحاكي الحلك ، ولم يقدر له بالفعل أي اتصال مباشر بها . وفيما هو يختلط بالنساء الشرثارات ، داخله شعور بالارتياح ، إزاء قدرته على الإصغاء لصلاتها واختلاس النظر إلى الابتسامة التي تزحف على خديها ، لكن هذه الابتسامة أوحى إليه بأخيلة مكنونة عن مشهد العلية ، رغم أنها لم تتجاوز كونها الابتسامة الودود لفتاة لطيفة المعشر . أما هوشيمارو فقد رأى القسوة في هذه الابتسامة ، الأمر الذي أغرقه في شعور حاد بالنشوة . وأحزنه سماع القسوة ، وهن يقلن : « يبدو أن الحصار قد انتهى » ، أو « يلوح أن القلعة ستنجو » ، فكل يوم استمر فيه الحصار كان يوماً آخر يمكنه خلاله أن يكون قريباً من الفتاة ، وتاق إلى استمرار هذا الوضع .

تواجه الجيشان ، في وجل ، لمدة أربعة أيام ، ولكن في اليوم الخامس رفع المهاجمون الحصار ، واقتلعوا معسكرهم ، وانسحبوا . وحتى اللحظة الأخيرة ، عجز كبار رجال حاشية ياكوشيغي عن العثور على أنف مولاهم ، ولم يتمكنوا من معرفة هوية المهاجم ، وربما فقدوا تماسك أعصابهم . أعلنوا عن : « المرض المفاجيء الذي أصاب الأمير ماساتاكازا » ، وحملوا الجثة في محفة . وفي ذلك الوقت ، شاع في صفوف الجانبين أن القائد العام ليس على ما يرام ، وضمن الكثيرون أنه قد لقي حتفه بالفعل ، على الرغم من أن أحداً لم يشك في صحة الشائعات ، التي عزت موته إلى المرض . ولكن لو أن الجنود الذين يحملون المحفة ألقوا نظرة واحدة على وجه

« المريض » لسرت الرجفة في عروقهم . كانت بكتيريا المرض الذي يؤدي إلى تآكل أنف المرء قد دخلت اليابان ، حوالي ذلك الوقت ، مع الطباقي ، ولكن من المؤكد أنها لم تكن قد انتشرت كثيراً .

بهذا تختتم الطرائف المختارة من طفولة موساشي ، تلك الفترة التي كان يدعى فيها بهوشيمارو . ويضيف كتاب « اعترافات دوامي » ملاحظة ختامية :

« قال مولاي : » غطى كواجو جيمبي تراجع العدو من الحصنين الثاني والثالث ، اندفع جانبنا من حرم القلعة مهاجماً في السحال لمضايقة العدو ، فيما هو ينسحب ، ولكن إيكانساي كبج جماح رجاله ، قائلاً إن الساموراي لا يستفيد من محنة ساموراي آخر ، وإذا كان ماساتاكاً مريضاً ، فعلينا أن ندعهم يرحلون ، إن كل من في القلعة قد أيقنوا أن مآلهم في نهاية المطاف إلى موت أكيد . أما الآن فقد عمتهم البهجة ، ومدت الموائد الحافلة في الأبراج ، وثلج الجميع بالساكي ، الذي تدفق احتفالاً بهذه المناسبة . لست أدري إلى أين مضت لرهينات ، ربما منذ انتهى الحصار ودّعن القلعة ، وعدن من حيث جئن . وقد رغبت في رؤية الفتاة مرة أخرى ، ولكن رغم بحثي عنها ، في كل مكان ، لم أعثر لها على أثر قط . علمت أن اسمها تيرو بنت أمير إيدا من سوروجا . رحت أحدث نفسي قائلاً : « آه ، لو وقع حصار آخر ، إذن لكان بمقدوري أن ألقاها مرة أخرى ، وراودني الأمل في أنه ذات يوم سيجدد الأعداء هجومهم » .

« آه ، لو وقع حصار آخر ، إذن لكان بمقدوري أن ألقاها مرة أخرى » . هنا يبدو الصبي مثل أوسيتشي ، ابنة الخضري ، التي أضرمت النار في دارها ، لكي تتمكن من الانضمام إلى محبوبها في معبد الحي . يا لها من فكرة تثير غرابتها الضحك !

الكتاب الثالث

وفيه يبلغ هوشيمارو سن النضج وحدث هول الأميرة كيكيو

بلغ هوشيمارو سنّ النضج في اليوم الحادي عشر من الشهر الأول في ربيع ١٥٥٢ ، حيث دخل عامه الخامس عشر . كان لا يزال يقيم في قلعة أوجيكا ، باعتباره تابعاً لإيكانساي . وقد وصف الاحتفال ببلوغ سنّ النضج في كتاب « حلم ليلة » بذلك الاهتمام التفصيلي المدقّق الذي يميّز الكاتبات ، لكنها صورة حافلة بالإطناب ، وما من حاجة تدعو إلى التطرّق لمثل هذه التفاصيل هنا . وقد أقيم الحفل في قاعة بدارة إيكانساي ، حسب ما أوردته الكاهنة مايوكاكو ، وأقبل تيروكوني ، والد هوشيمارو ، من مقاطعته ؛ ليضع قلنسوة رمزية على رأس ابنه . في ذلك الوقت كان طول هوشيمارو خمسة أقدام وبوصتين ، وعندما اعتمر القلنسوة ذات الخيوط الطويلة ، وسار وراء أبيه ، بدا جلياً أن لهما الطول ذاته .

على القارئ أن يلاحظ أن هوشيمارو بلغ طول خمسة أقدام وبوصتين ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وليس من البين ما الذي كان عليه متوسط طول الرجال ، في عصر الحروب الأهلية ، ولكن من المحتمل أن خمسة أقدام وبوصتين لم يكن بالطول المتميّز بالنسبة لفتى في مثل سنّه . وغالباً ما تعقب مايوكاكو ، مؤلفة كتاب « حلم ليلة » على مظهره بعد بلوغه ، فهي تقول ، على سبيل المثال : « كان وجه مولاي في لون الحديد ، وتركيبه الجسماني يفوق

أي رجل آخر . وعلى الرغم من أنه لم يكن طويل القامة ، إلا أنه كان الأضخم جثة . وفي موضع آخر تضيف : « كان وميض عينيه حاداً ، وعظام خديه ناتئة ، وشفته غليظتين ، ووجهه كبيراً بالنسبة لرجل في مثل طوله » . وبمقدورنا أن نستبين من هذا أن قامته لم تزد طولاً بعد بلوغه سن النضج ، وربما ورث قصر القامة من تيروكوي ، الذي لم يكن يفوق ابنه الشاب طولاً ، ولكنه ليس من المتعذر تخيل الفزع ، الذي يثيره هذا الوجه الضخم بالمقارنة بطول صاحبه ، في النفوس .

وبالمثل حمل هوشيارو اسم تيروكاتسو مجتزأً مقطعاً من لقب أبيه وكذلك اللقب المراسيمي « نائب حاكم كاواتشي » . وفي وقت يعود إلى صيف ذلك العام ، خلال حصار إيكانساي لقلعة ميزوكوري ، قدم اقتحاماً أولياً رائعاً لميدان القتال ، فهو لم ينتزع رأس هوتا ميزايمون القائد العام للعدو فحسب ، وإنما كان أول من اعتلى السور ، ووثب إلى داخل القلعة . ومستحثاً جنوده بقوله : « لا تدعوا تيروكاتسو يلقى حتفه ! » استولى إيكانساي أخيراً على القلعة . ويقال إن تيروكوني ، الذي أقام في جبل تامون ، قد بكى من فرط السعادة ، حينما حدثه أوكي شوزين عن بسالة ابنه . وبدوره أشاد إيكانساي في حرارة بشجاعة تيروكاتسو ، في ذلك اليوم ، ولكن يبدو أنه أعرب لخاصته عن قلقه ، بقوله : « لسوف يغدو رجلاً مرهوب الجانب . ترى ما الذي سيحل بآل تسوكوما بعد رحيلي ؟ » . وهكذا ، فلا بد أنه اتخذ للأمر حيطته بالفعل ، إذ أدرك أن تيروكاتسو لم يكن ماهراً في القتال فحسب ، وإنما كان حاذقاً على نحو خاص وجريئاً كذلك . وقد قال تيروكاتسو نفسه (كما هو مسجل في كتاب « اعترافات دوامي ») إن نجل إيكانساي الأكبر المسمى أوريبينوشو نوريشيجي قد شارك في

الحصار كذلك . وكان نوريشيجي يكبر تيروكاتسو بعامين ، لكنه أدنى منه كثيراً في المظهر والتركيب الجسماني والاقتدار . ولا بد أن هذا لم يغيب عن بصيرة أبيه ، إيكانساي ، الذي بدا حزنه الداخلي جلياً ، فعقد تيروكاتسو العزم على ألا يستشير عدم ثقة الأب أو الابن به .

ولكن هذه الحكاية لا تستهدف تقديم صورة عن تيروكاتسو بكل ساحات القتال البارز ، فالتفاصيل الواردة أعلاه مسجلة في ذلك الفصل من كتاب « حوليات حرب تسوكوما » الذي يحمل العنوان التالي : « حول سقوط قلعة ميزوكوري » وفي كتب حوليات أخرى عديدة . والسؤال الذي يبقى مطروحاً هو : ما الذي صار إليه أمر لذة تيروكاتسو الغامضة ، وأخيلته الوحشية ، ورغبته في الانطلاق قدماً نحو « الفردوس السري » التي فجرتها فيه صبية الرأس - المرأة ؟ لربما يعتقد المرء ، بناء على ظهوره الأول المشهور في ساحات القتال ، أن هذه الذكرى الجهنمية قد تلاشت ، دون أن تترك أثراً في فؤاد المحارب الشاب ، وحل محلها طموح مؤرق ، على نحو وحشي . وفي حقيقة الأمر فإن جميع الصبية ربما يتعرضون مرة أو مرتين لشيء قريب من اللذة السرية ، التي انتشى بها الصبي . ولكن حينما يتفق أن صبياً يوضع وسط محيط صارم ، ويحيا من جديد تلك المشاعر مراراً وتكراراً ، فإن اللذة المكنونة تلتهم طريقها الى فؤاده ، وتضرب جذورها هناك ، باعتبارها انحرافاً مُرضياً ، يحكم حياته الجنسية بأسرها . وينبني على هذا أن تيروكاتسو ربما ما كان ليكتشف أبداً وجود ذلك « الفردوس المكنون » لو أنه لم ير في صباه امرأة - رأساً . وحتى لو أنه اكتشفها لمرة واحدة ، فمن المؤكد أن غرائزه الجنسية ما كانت لتصاغ على هذا النحو لو أن جرح الطفولة لم

ينكأ من جديد قط . وفي نهاية المطاف ، فإن نجل ديميو في عصر الحروب الأهلية لم يكن يحيا الحياة الهادئة ، التي يعيشها الشباب الأرستقراطيون اليوم . وما كان ليتاح للشباب الوقت لتغذية مثل هذه الأخيلة الوحشية الوضيعة ؛ ومن ثم يمكن القول بمزيد من الاطمئنان بأن الشاب تيروكاتسو لم يكن أمامه خيار إلا الإحجام عن لذته المضمخة بالعار لبعض الوقت وأن يهب نفسه دونما تردد لاكتساب صيت حميد في ساحات القتال . ومن سوء طالعها أن المرأة التي قدر لها أن تعيد إشعال النار في ميوله الكريهة قد اقتحمت الساحة في هذه المرحلة .

كانت الأميرة كيكيو ، زوجة تسوكوما أوريينو شو نوريشيبي ، ابنة ياكوشييجي دانجوما ساتاكا نفسه ، الذي « سحقه المرض » ، بعد حصار قلعة أوجيكا . وقد زُفّت إلى نوريشييجي في ١٥٥١ ، أي بعد عامين من الحصار ، وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، وهكذا كانت أصغر من نوريشييجي بعام واحد ، وأكبر من تيروكاتسو بعام كذلك . ويرد هذا الوصف لها في كتاب « حلم ليلة » .

« باعتبارها أميرة رفيعة النسب ، قدمت من العاصمة ، كانت ضليعة في الشعر والموسيقى ، وما كانت يانج كوي - في من كاثي ، ولا الأميرة سوتوري من أرضنا ، لتضارع الجمال اللؤلؤي لحاجبيها التويجين وشفيتها الورديتين . . . » إن هذه السلسلة من عبارات الإطناب التقليدية لا توضح مدى ما كانت الأميرة عليه من جمال . أما كونها جذابة ، على نحو استثنائي ، فهو أمر ربما كان صحيحاً ، إذ قيل إنها لم تكن أقل في هذا الشأن من أمها ، ابنة المستشار الأوسط لقصر الأقحوان ، والتي ترددت الشائعات حول أن حسننها لا مثيل له ، ولهذا السبب فإن نوريشييجي ، الذي كان رجلاً عاطفياً غزلاً

بطبيعته ، كان يتوق منذ وقت طويل إلى من تسايره وتجاريه .

كان التأييد الحاسم من جانب الحكومة العسكرية هو الذي وصل بالمفاوضات التي جرت حول إتمام هذا الزواج إلى نهاية مكلفة بالنجاح . وحينما قام ياكوشييجي دانجو ماساتاكافا في ١٥٤٩ بمحاصرة قلعة جبل أوجيكا بجيش جرّار ، وأوشك على إجبار إيكانساي على الانتحار بالطريقة الطقوسية التقليدية ، كان ذلك تنويعاً لسنوات طويلة من الحروب التي تواصلت بلا هوادة بين عشيرتي ياكوشييجي وتسوكوما . وما كان يمكن أن يعمّ السلام ربوع البلاد ، طالما واصلت هاتان العشيرتان ، اللتان تتمتعان بقوة متعادلة ، على وجه التقريب ، الاقتتال فيما بينهما ؛ من هنا انتهزت حكومة موروماتشي العسكرية الفرصة التي أتاحتها موت ماساتاكافا للتدخل ، فخلف الجانبان وراءهما عداؤهما ، الذي دام طويلاً ، وتمّ ترتيب الزواج تكريساً لتصالحهما . ومن ناحية ياكوشييجي كان ماساهايو ، شقيق الأميرة كيكيو قد أحرز نجاحاً باعتباره كبير العائلة . وكان يعلم أن أباه ماساتاكافا لم يمت من جراء مرض ألمّ به ، وإنما اغتيل في ثكناته على يد مقتحم ، ألمّ بالمعسكر ليلاً ، وأن جثته قد لحق بها تمثيل لا يحتمل ؛ وكنتيجة لهذا ، فإن حقد ماساهايو على تسوكوما وعدم ثقته بهم لم يعرف التراجع ، ولكنه تجلّد لمواجهة الموقف ، وقبل اقتراح الحكومة العسكرية بمزيد من الامتنان . أما بالنسبة لتسوكوما فما من أحد ، باستثناء تيروكاتسو ، كان يعرف الظروف التي لقي ماساتاكافا حتفه فيها ؛ ومن ثم فبوسعنا التأكد من أن العشيرة بأسرها قد ابتهجت بالمصالحة والزواج ؛ إذ لم يكن لديها ما يحملها على التشكك في نوايا ماساهايو ، وكان العريس نوريشييجي هو أشد أبناء العشيرة بهجة وحبوراً .

في الشهر الثالث من عام ١٥٥٣ - أي بعد مرور ما يزيد عن العام على الزفاف - مات إيكانساي على فراش مرضه ، بحسب ما يؤكد كتاب « حوليات حرب تسوكوما » وغيره من السجلات التاريخية . وإذا استعيد المرء أحداث الماضي ، ويمعن النظر فيها ، فإن هذا الموت يبدو بدوره مثيراً للشكوك ، على الرغم من أن أياً من كتابي « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » لم يشر إلى أن هناك غموضاً يلفه ؛ فقد لقي حتفه من جراء الإصابة بالدوستاريا عن ثلاثة وخمسين عاماً ، حسبما يقولان ، وهذا أمر محتمل تماماً ، ومع ذلك فإنه في « حوليات حرب تسوكوما » تبدو صورة سبب المرض وأطراده أكثر تفصيلاً من المألوف ، وبشكل مما فإنها لا تحمل سمة الصدق . ولكن بدلاً من أن نتوغل بصورة أعمق في بحث ظروف وفاة إيكانساي ، دعنا ننطلق إلى الحادث الذي أعقبها .

في خريف الغام ١٥٥٤ ، وبعد أن تلقى تسوكوما أوريبينوشو نوريشيجي تقارير عن انتفاضة قام بها تابعه يوكوا بوزين ، صاحب قلعة تسوكيجاتا ، انطلق على رأس سبعة آلاف من الفرسان لاستعادة القلعة ، وقد صحبه تيروكاتسو ، باعتباره أحد أفراد حاشيته . وفي اليوم العاشر من الشهر الثامن ، وعندما حمي وطيس القتال ، أوقف نوريشيجي جواده ، في ظل أجمة ، على بعد قرابة الميل من البوابة الأمامية للقلعة ، وراح يوجه قواته من تلك البقعة المميزة ، فإذا بطلق ناري يندفع بغتة ماراً لصيق قصبة أنفه ، فأخطأه بما لا يتجاوز قيد أنملة . شهق نوريشيجي ، مذهولاً ، وأطبق بصورة غريزية كفيه على أنفه . وفي الحال ، دوى طلق ناري ثان ، أوشك هذه المرة على أن يكتسح الأنف من وجهه اكتساحاً ، وتكوّن كشط على قصبة أنفه ، كما لو كانت مشرّرة قد أصابته بشرارة أحرقت جلده ، وانساب خيط

من الدم مثلاً من الجلد المكشوط . سارع تيروكاتسو ، الذي كان يقف أمام الجواد ، إلى حماية قائده بترسه ، ومضى به وعينه تمسحان ، في ومضة ، ميدان المعركة ، نحو ملاذ يقيه في الأجمة . ومن الطبيعي أن نوريشيجي ، باعتباره هدف القناص ، قد أخذ منه الانزعاج كل مأخذ ، لكن القلق أخذ بناصية تيروكاتسو بدوره ، كان انزعاج نوريشيجي راجعاً إلى اعتقاده بوقوع محاولة لاغتياله ، ولكن تيروكاتسو تشكك في أن الأمر كذلك ؛ فمن الجلي أن القناص صوّب رصاصه على أنف القائد ، وبما أن الرصاصتين كلتيهما أطلقتا من اتجاه واحد ، وبما أن الثانية جاءت أقرب إلى الهدف من الأولى ، فإنهما لا يمكن أن تكونا رصاصتين طائشتين ، وكان مسارهما موازياً لوجه نوريشيجي ، فيما هو على صهوة جواده ، وبتعبير آخر بزاوية قائمة مع كتلة أنفه ، وتلك ليست بالتأكيد الزاوية التي يختارها مَنْ هدفه الاغتيال . لكن تلك الافتراضات لم تكن الأسس الوحيدة للشكوك التي ساورت تيروكاتسو ؛ فقد كان شاهداً من قبل ، حينما حل حادث مماثل بساحة إيكانساي ، وقد وقع ذلك الحادث قبل شهرين من بداية المرض الذي أودى بحياته ، وذلك خلال معركة تشيجوساجاوا في الشهر الثاني عشر من عام ١٥٥٢ . وفي تلك الواقعة بدورها سلكت الرصاصة خطأ أفقياً ، أمام وجه إيكانساي ، ولكن بما أنه لم تطلق إلا رصاصة واحدة ، فلم يكثرث بها أحد ، إلا تيروكاتسو ، وإذا واجه الأخير موقفاً متطابقاً ، على وجه التقريب ، مع ذلك الموقف تفاقم شعوره بالقلق . لقد أراد أحدهم انتزاع أنف إيكانساي ، وهو الآن ينشد أنف ولده ووريثه نوريشيجي . وفي قلب عجاج المعركة الضارية ونقعها استعداد تيروكاتسو فجأة ذكرى الحدث الوحشي ، الذي تخلل طفولته ، ونسيه منذ زمن بعيد . وجه ماساتاكاه الخالي من الحياة والمجرد من

الأنف، الرأس - المرأة، ابتسامة الفتاة الجميلة الملهفة، وهي تحقق في الرأس.. لا شك أن هذه الأشباح راحت ترفّ أمام عينيه، كلمع البرق. وفي الوقت نفسه، تذكر واجبه. كانت الأشباح تهدد باجتذاب روحه إلى مسارب النشوة، لكنه نحّاه جانباً، بتلويحة من يده، وحاول الجزم بهوية من أطلق الرصاصتين. كان محاربو قلعة تسوكيجاتا، وقد قرّ في يقينهم أنهم ملاقوحتهم، قد اندفعوا قدماً، وانقضوا لسحقه، وتحول الميدان إلى ساحة عراك وحشي صاخب، فيما صفوف المقاتلين تتقاطع، وانتشر القتال المتلاحم، حتى عتبة مقر قيادة نوريشيجي، على وجه التقريب. ولكن تيروكاتسو تحول بناظره، في الحال، إلى الاتجاه الذي أطلقت منه الرصاصتان، ولمح شبح ساموراي، يقف على بعد مائتي متر يحرق باتجاهه، كان يسدل على صدره صدارة بديعة، مطلية باللك الأسود، وموشاة بالذهب. أدرك تيروكاتسو أنه هو القناص؛ فقد كان يتأهب لإطلاق النار للمرة الثالثة، ولكنه بدلاً من ذلك ألقى بالبندقية القصيرة، وانطلق مبتعداً.

لما كانت المسافة بينهما أبعد من أن تتيح لتيروكاتسو اعتقال الرجل فقد احتجب عن ناظره، وتتبعه، واقترب منه، حتى لم تعد المسافة بينهما تتجاوز ستة أقدام، وهنا بلغ الساموراي حافة الخندق، في مواجهة البوابة الأمامية للقلعة:
- قف!

هتف بها تيروكاتسو من وراء الرجل، بغتة.

- نعم؟

التفت الرجل، متشداً، وتراجع خطوة إلى الوراء. بدا من قريب ساموراي حسن المظهر، يعتمر خوذة وافرة الزخرف، والشعار

المتألق على صدارته هو الحرف الذي يرمز إلى « التنين » ، وقد رسم كبيراً باللكّ الذهبي .

- أفصح عن هويتك ! إنني تيروكاتسو ، نائب حاكم كاواتشي ،
الابن الأكبر لكيريوتيروكوني ، أمير ماساشي .

- من العبث ذكر اسمي .

- أيها الجبان، لم استخدمت البندقية ؟

- لم أقم بهذا .

- صمتاً ! لقد رأيتك تلقي بها ، وتلوذ بالهرب .

- لقد اختلط عليك الأمر ؛ فحسبتي غيري .

- ليكن ، عليك بالإنكار إن أحببت !

حتى قبل أن يلفظ تيروكاتسو بهذه الكلمات الأخيرة ، كان رُجّ
حربته يتألق عند « التنين » . استهدف تجميد حركة الساموراي
الغامض بجرح عميق ، وأخذه حياً . في البداية ، نظر الرجل إلى
تيروكاتسو بحسبانة مجرد طفل ، ولكن في تلك اللحظة كان رُجّ
الحربة يواجهه ، كأنه سرب جراد . وبعد ثلاث أو أربع حركات
دفاعية ، غلب على أمره ، وطعن في ساقه ، من خلال الشريط
المجدول في أسفل درعه ، ثم طعنه تيروكاتسو في أعلى عضده
الأيمن ، وجثم فوقه ، فتناهد إليه شهقة يأس وإحباط من أدناه .

- اسمك !

- لا ، عليك بقطع رأسي !

- لسوف آخذك حياً .

عندما سمع المحارب كلمتي « آخذك حياً » شرع في التلوي

والتقلص بعنف ، على الرغم من جراحه . تطلع تيروكاتسو حوله إلى من يساعده ، لكن كل ما كان بوسعه أن يراه لم يعد نقعاً هائلاً ، وفيما وراءه امتدت كتل كالظلال ، تتلاحم ، وتفرق ، كأنها أمواج بحر صاخب . وفي غضون ذلك ، تشبث المحارب الصريع بنطاق تيروكاتسو بيده اليمنى ، واستل سيفه القصير بيسراه ، وشرع في الطعن عشوائياً . ولم يعد بمقدور تيروكاتسو أن يأمل في أخذه أسيراً ، دونما عون من أحد ، فدفع ، متردداً ، بطرف نصله في زور الرجل .

- سأمنحك ما أردته ، فقل لي ما اسمك !
قالها تيروكاتسو ، مطالباً للمرة الأخيرة ، لكن الرجل صرخ فيه :
- هلم أجهز عليّ !

« دون إضافة المزيد ، أطبق شفتيه ، وأغمض عيني ، كان حرياً بي أن أسأله عن هوية من أرسله وراء نوريشيجي ، لكن علمت من سلوكه أنه لن يعترف قط ؛ ولذا احتزرت رأسه . لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره إلا بعامين أو ثلاثة ، وبدا وسيماً . تفاقم شكى ، ففتشت تحت درعه ، وعثرت على كيس من القماش المقصب مربوطاً بكتفه ، ضم أيقونة صغيرة مؤطرة لبوذا ، وقد لفت حول الإطار رسالة كتبت بخط نسائي رشيق . »

جاء في كتاب « اعترافات دوامي » أن الرسالة كانت على النحو التالي :

« إلى زوشو الشهر السابع ١٥٥٤
لكي تشار لأبي ، عليك بمحو أنف نوريشيجي بالرصاص ، ولكن احرص على ألا تقتله . لئن أنجزت ذلك من أجلي ، لكان عملاً يعبر عن أعمق مشاعر الإخلاص . »

وقف تيروكاتسو للحظة ، ممسكاً بالوريقة ، في حيرة ، في ميدان القتال ، الذي كساه النقع . إن المحارب الصريع هنالك هو زوشو ، الذي وجهت الرسالة إليه . ولكن ماذا عن المرسلة ؟ أي امرأة تلك التي طلبت من الساموراي زوشو أن « يمحو أنف نوريشيجي بالرصاص » ؟ لم يكن هناك توقيع . ولكن من العبارة القائلة : « لئن أنجزت ذلك من أجلي ، لكان عملاً يعبر عن أعظم مشاعر الإخلاص » ، ومن الطريقة التي كتبت بها الرسالة ، فجاءت موجزة ، وفي الصميم ، استخلص تيروكاتسو أن الرسالة سطرت إلى تابع من سيدة رفيعة المرتبة ، ترغب في حجب اسمها . ولو أن أحداً غير تيروكاتسو قرأ الرسالة ، لحرار في فهم السر في أن كاتبها تسعى وراء أنف نوريشيجي وليس وراء حياته ، وكيف أن ذلك من شأنه « الثأر لأبي » بل لاستعصى حمل الرسالة على محمل الجد حقاً . ولكن فيما راح تيروكاتسو يحدق في الآثار الغامضة لفرشاة الكتابة ، شرع الأمر ينجلي له ناصعاً .

- الأميرة كيكيو . . .

بعثت الفكرة الرعدة في بدن تيروكاتسو ، وجعلت جسده يتصبب عرقاً ، تحت درعه . فعلى الرغم من أنه كان في حاشية آل تسوكوما ، منذ عهد الراحل إيكانساي ، إلا أنه من الطبيعي ألا يسمح له بدخول المقر الخاص للعائلة ، ولم يقدر له قط أن يلمح محيياً الأميرة كيكيو ، وقد تناهت إليه شائعات عن بديع حسننها ، ولكن لم يبلغه شيء عن شخصيتها ؛ ومن هنا فإنه لم يتعرف هذا الخط النسائي ، لكن الرجل المشار إليه من قبل المرأة التي سطرت الرسالة باعتباره « الأب » لا يعدو أن يكون أحداً غير ماساتاكَا ، الذي بتر هو نفسه أنفه ، وهكذا أصبح معنى الرسالة السرية جلياً له ، فلا بد أن

الأميرة كيكيو كانت من أعضاء العائلة القلائل الذين علموا بأن شيئاً شديد الأهمية فقد من أنف أبيها القتل . وإذا أخذ الحزن بجماع فؤادها ، أرادت الثأر له ، بأن تلحق بالوجه الحيّ لزعيم آل تسوكوما ما حل بوجه أبيها الصريع ، وسواء أكانت قد زُفّت إلى رحاب آل تشوكوما بهذا القصد ، أم اتجهت إلى تحقيقه بعد زواجها ، فإن الأمر كان بلا شك من بنات أفكارها ، وليس من رغبات أخيها ماساهايو . فلو أن هذا الأخير كان يستشعر ذلك القدر من المرارة حيال مصرع أبيه ، على هذا النحو الخارج عن المألوف ، لما وافق على التصالح مع عشيرة التسوكوما قط ، ومن باب أولى لما وافق على زواج أخته من نوريشيجي ، كائناً ما كان معسول قول الحكومة العسكرية ، وأسلوب الانتقام هو أشد مراوغة وختلاً من أن يتصوره رجل ، وما كان يمكن لماساهايو أن يكون على مثل هذا القدر من الجبن ؛ إذ حريّ به اللجوء إلى أسلوب صريح وواضح . وبما أن الرسالة التي حملها زوشو سَطرت بخط نسائي ، ومؤامرة الانتقام تشي في فكرتها بالطابع النسائي الدامغ ؛ فقد خلص تيروكاتسو إلى أن الأميرة كيكيو قد أبلغت زوشو ، وهو ساموراي موثوق به ، الخطة السرية ، التي غذتها كالنبته في صدرها . ودون أن تبلغ عائلتها بشيء ، عقدت العزم على الثأر لأبيها بأشد الأساليب إيغالاً في الاتسام بالطابع الكلبي .

اجتذبت هذه التكهّنات فؤاد تيروكاتسو ، في اتجاه غير متوقع ، فمن المؤكد أن خدمته لآل تسوكوما كانت مهمة مؤقتة ، وليست نتيجة لعلاقة موروثية تربطه كتابع بهم كأمرء ، ولكنه كان مديناً لتلك العائلة بالعرفان ، لقيامها بتنشئته ؛ وهكذا فمن الطبيعي تماماً أنه لم يختلف عن باقي أعضاء حاشية نوريشيجي في مشاعر التقدير والمودة التي

يكنها له ، وفي رغبته في أن يخدمه بإخلاص . وحينما أوقعت ضربة من ضربات الحظ هذه الرسالة الخطيرة في يده ، كان عليه أن يطير فرحاً لتمكنه من الحيلولة دون الكارثة ، التي تهددت نوريشيجي ، وإبلاغه بالأمر في التو واللحظة . هكذا كان الواجب يقتضيه ، في ظل تلك الظروف . ولكن ، بدلاً من ذلك ، اتخذت أفكاره مساراً مذهلاً ؛ فقد استيقظ فجأة الانجذاب إلى الرؤوس - المرأة ، الذي قبع ساكناً كل هذا الوقت في ذهنه ، واتخذ شكلاً مترعاً بالحيوية والنشاط ؛ راح يتخيل نصف الابتسامة تلك التي ارتسمت على خدي الفتاة في العلية ، ثم نقلها إلى محيا تلك السيدة الارستقراطية ، التي تقبع في أعماق قلعة جبل أوجيكا . ورسم مسرعاً صورة للمرأة الحسنة التي لم يرها قط ، فإذا تعتكف في غرفة تحيطها الستائر الذهبية ، التي تعكس في ومض الضوء المترامي من الحديقة ، وترتفع وسادة ، في ظل مصاريع نوافذها الخيزرانية ، ستحديق صامته في الدنيا المترامية خارج الغرفة ، بعينين باردتين ، فانتين . واجتذبت الابتسامة المراوغة ، التي من شأنها أن تتلاعب على خديها الشاحبين الصافيين ، فيما هي تتصور زوجها نوريشيجي وقد حرم من أنفه ، تيروكاتسو على نحو يفوق في قوته بكثير اجتذاب ابتسامة فتاة العلية له ، فتلك الفتاة لم تكن إلا ابنة شخص يدعى إيدا من سوروجا ، أما تلك فهي سيدة كريمة المنبت ، انحدرت من صلب المستشار الوسيط لقصر الأقحوان . لقد كانت الابتسامة غير الواعية لابنة إيدا تكسوها لمسة من القسوة ، لا أقل ولا أكثر ، بينما الابتسامة المتلاعببة على الخدين الأسيلين لتلك السيدة تضم دفقاً عميقاً من السخرية والاستهزاء . كانت تلك هي الابتسامة المترعة بالضغينة ، التي ترسمها امرأة تدعي التمسك بأهداب الفضيلة ، حتى وهي تحيك في هدوء نسج شبكة الانتقام . راح تيروكاتسو يفكر أولاً في

هذه السيدة ، التي تملكها حقد مخيف ، ثم في زوجها نوريشيجي ، وقد مثلت به حيلتها اليائسة ، وإن ظل على قيد الحياة . وعندما وضع وجهيهما أحدهما قبالة الآخر ، الوجه الأول تجسيد للجمال ، والثاني للقبح ، تجاوزت البهجة الوحشية التي أثارها بكثير أي شيء سبق أن استشعره في العلية . كان قد حلم بالبهجة المضمخة بالنشوة ، التي سيحس بها ، لو أنه كان رأساً - امرأة ، تجردت من الوعي ، ووضعت على ركبتي الفتاة ، فراحت يداها تتلاعبان بها . أما الآن فإن واحداً من الرجال ، الذين يعرفهم حق المعرفة ، سيصبح « رأساً - امرأة » تسري الحياة في عروقه ، ينعم بتحديد زوجته البارد فيه ، وليس من المستحيل أن تيروكاتسو سيشهد عما قريب هذا المشهد بالفعل .

كما لعلك تعلم ، فإن كتب التاريخ وسير الحياة اليابانية ، وخاصة بعد إرساء الحكم العسكري في عهد كاماكورا ، كانت شديدة الإسهاب في سرد أقوال وأعمال الأبطال ، ولكنها تلتزم الصمت حيال شخصيات النساء ، اللاتي تحمّلن هؤلاء الأبطال ، واللاتي كنّ في الغالب يتلاعبن بهن من وراء الكواليس . وهكذا كان الأمر في حالة الأميرة كيكيو بدورها ، حيث يمكننا من خلال كتاب « شجرة أنساب آل تسوكوما » ومواد متناثرة في الحوليات العسكرية المعاصرة ، التحقق من نسبها ، ومن تواريخ زواجها ، ووفاتها ، وأنها أنجبت طفلاً وطفلة من نوريشيجي ، ولكن الإيماة الوحيدة إلى أنها قد تأمرت مع تيروكاتسو ، للقضاء على نوريشيجي ، ترد في سطر أو سطرين موحين في كتاب « حوليات حرب تسوكوما » ، وما من شيء على الإطلاق يمكن الوصول إليه من كتب التاريخ الرسمية حول الظروف التي واكبت المؤامرة أو حول طبيعة شخصيتها . ومن

شأن رجل له ميول جنسية مازوكية ، كما هو حال أمير موساشي ، أن يجنح نحو بناء صرح تصوّرات خيالية ، تتوافق فيها شريكته مع متطلباته المرتكسة . وهكذا ، فإن المرأة ، في معظم الحالات ، ليست على الإطلاق ذلك المخلوق عديم الرحمة ، الذي تُصوّر في إهابه . وفيما يتعلق بتمثيل الأميرة كيكيو بزوجها ، فإن لدينا رواية تيروكاتسو الواردة في كتاب « اعترافات دوامي » وملاحظات الكاهنة مايوكاكو الواردة في كتاب « حلم ليلة » ، ولكن هاتين الروايتين هما من التناقض بحيث يبدو أنهما تصفان أشخاصاً مختلفين ، وإذا ما صدقنا المصدر الأول ، فإن الأميرة كيكيو تبدو امرأة سادية بالسليقة ، أما إذا أخذناه بالمصدر الثاني ، فإن إصرارها الرهيب لم ينبع إلا من رغبتها الجارفة في الانتقام لما حل بساحة أبيها من هوان فحسب ، وأنها في حالتها العادية كانت امرأة رقيقة القلب ، وربما كانت الصورة الأخيرة أقرب إلى الحقيقة . ولكن من المحتمل أن الكاهنة مايوكاكو ، بسبب افتقارها إلى المعرفة المباشرة بالأميرة كيكيو ، آثرت التزام الحذر . وأياً ما كان الأمر ، فلا بد أن ميول تيروكاتسو الفريدة قد استثارها ضراوة زوجة ، ما كانت لتتردد في التمثيل بزوجها ، ثم الاستمتاع بالتحديق في تشوّهه ، فيما هي تقوم على رعايته والاهتمام بأمره . ومنذ تلك اللحظة ، غدا مفتونا بالأميرة ، وحليفاً سرياً لها ، وألقى جانباً بولائه لنوريشيجي ، كما يلقي بحذاء بال .

« علمت فيما بعد أن زوشو كان ابن ماتوبا سايمون أحد أفراد حاشية ياكوشيجي وكانت أمه هي مربية الأميرة كيكيو ؛ ومن ثم فإنه والأميرة كانا بمثابة أخ وأخته . وكان من أبرز الرماة المهرة ، واعتمد أن قطع علاقاته بمولاه ، في الوقت الذي قامت فيه انتفاضة قلعة

تسوكيجاتا ، وانطلق مسرعاً من العاصمة للانضمام إلى يوكوا بوزين ، وكان هو نفسه الذي أطلق النار على إيكانساي ، في العام السابق . وإذ تركت رأسه في ساحة القتال ، أخفيت الأيقونة والرسالة ، تحت درعي ، وعدت إلى المعسكر . لم يعلم أحد بخيانة لأميرة كيكيو . وكان قتل هذا الرجل الخطأ الكبير في حياتي ، ولكن منذ تلك اللحظة تغير ولائي ، فلسوف أغدو حليفاً لها ، وسأساعدها في تلبية رغبتها .

وبتعبير آخر ، فإن شهوة تيروكاتسو المريضة ورغبة الأميرة كيكيو في الانتقام قد سعيًا ، بمحض المصادفة ، إلى الإشباع ، من خلال هدف واحد : الإطاحة بأنف نوريشيجي ، دون قتله . وهكذا ، فقد كان أمراً غير ملائم لكل منهما أن يقدم تيروكاتسو على قتل زوشو ، أهم شخص بالنسبة لتحقيق هدفهما . ومن سوء طالع نوريشيجي أن حدثاً مضحكاً قدر له أن يحل بساحته ، قبل انقضاء وقت طويل .

وفيه يغدو تسوكوما نوريشيجي أشهر ،

ويتم وصف مراض سيحات الطبقة العليا

في ربيع عام ١٥٥٥ ، وبعد حوالي ستة أشهر من وقوع معركة قلعة تسوكيجاتا ، أقام تسوكوما أوريينوشو نوريشيجي حفلاً لمشاهدة تفتح البراعم ، في حديقة القصر الداخلي ، في قلعة أوجيكا . كانت أزهار الكرز في قمة ازدهارها ، فمد سجادة في ظل الأشجار ، وأسدل من حولها الستائر ، وهنالك عكف على احتساء الساكي ، والتسرية عن نفسه بالشعر والموسيقى ، بصحبة زوجته والوصيفات . بدأ الحفل في الصباح ، وتواصل حتى اعتلى قمر أشهب كبد السماء . وعندما جلبت المصابيح ، وتم تزيينها على السجادة ، جعل نوريشيجي ، الذي تعتبه السكر الآن ، موسيقياً ضريراً

ي صاحبه بالقرع على طبل يدوي * ، فيما هو يغني ، ويرقص
« كوسيماي » ، وفيما هو يقترب من نهاية الرقصة .

زنار البراعم المقصب
انحل ، لكنما بلا طائل ،
وخيوط الحور منطلقة ، فؤادي
لا يسعه ، أبداً ،

أن ينسى ذلك الشعر في انطلاقه الحلمى .

كشط سهم ، على حين غرة ، وجه نوريشيجي ، مهدداً بنثر أنفه
بدداً ، مع براعم الكرز ، لكنه جاء منخفضاً ، فأصاب شفته العليا .
- أيها الوغد !

كان نوريشيجي على يقين من أنه رأى شخصاً ، ملتفاً بالسواد ،
يثب من فوق غصن شجرة كرز ، على بعد حوالي أربعين قدماً ،
وضاغطاً بيده على فمه النازف دماً صاح - أو حاول أن يصيح ، ولكن
لسبب ما جاء نطقه بعيداً عن الوضوح . حاول ، في هياج شديد ،
أن يصرخ : « هناك ، مضى في ذلك الاتجاه ! » لكنه لم يستطع
التفوه إلا بضوضاء غريبة ، غير محكمة النطق ، وبلا معنى على
الإطلاق ، كأنها لثغ طفل وليد ؛ ذلك أن السهم كان قد شرم شفته
العليا ولثته ، وجعل الألم من المتعذر عليه تحريك شفثيه ، على نحو
سليم ، وتلاحق انسياب تنفسه عبر الجرح ، الذي أحدث ما يشبه
الهوة في وجهه . ولكنه في ذلك الوقت ، وفيما الدم يتدفق من

* التايكو : أو طبول اليابان هي عالم بكامله ، يبدأ من الطبول الدقيقة وينتهي بطبول
المعابد الهائلة ، والطبل المشار إليه ، يحمل باليد اليسرى ، على الكتف اليسرى
ويدق عليه بكف اليد اليمنى في إيقاع شبه ثابت تقريباً لمصاحبة الأغاني وربما
القصائد (هـ . م) .

وجهه ، لم يستطع التيقن مما إذا كانت الضربة قد أصابت أنفه أو فمه ، وعندما أدرك أنه لا يفقه ما يقول ، أخذت منه الحيرة كل مأخذ .

وبما أن الرجال لا يسمح لهم ، إلا نادراً ، بولوج هذا الجزء من القلعة ، فقد بادرت الوصيفات إلى مطاردة القناص . وفي غضون ذلك ، هرع عدد من الساموراي إلى الساحة ، وراحوا يفتشون كل أركان الحديقة الفسيحة ، لكن القناص أفلح بشكل ما في الاختفاء ، ولم يعثر له على أثر . لم يستطع أحد فهم كيفية وقوع هذا الحدث الغامض ، ذلك أن القصر الداخلي هو قلب الحصن الرئيسي ، ومن شأن أي مقتحم متطفل من الخارج أن يضطر إلى اجتياز عدد كبير من المراكز الدفاعية ، للوصول إليه ، وعلى الرغم من أن القصر كان بمثابة جزيرة للنساء ، ولا مجال للوصول الرجال إليه ، فإن الحراس كانوا يراقبونه ليلاً ونهاراً ، من مراكز استراتيجية ، تحيط به من كل الأنحاء . وربما كان شخص ممن يعرفون الطريق قد سار عبر الممر الجبلي السري ، واقترب من حرم القلعة من الخلف ، إلا أنه كان سيجد من المتعذر عليه التسلل إلى الحديقة الداخلية ، فلم يكن بمقدور أحد ، حتى ولا ساموراي من القلعة ، الوصول إلى هذه الحديقة دون المرور بنقطتين أو ثلاث نقاط للحراسة ؛ من هنا فقد كان من قبيل الأعاجيب أن القناص قد أفلح في التسلل إلى الداخل ، وقد تفاقم الغموض حينما لم يسفر التنقيب الدقيق في أرجاء الحديقة في العثور على أثر له . وذهب الجميع إلى القول بأنه ليس بوسعه الهرب إلى الخارج وأنه بالقطع مختبئ في مكان ما في القلعة ، فاستمر البحث طوال الليل في الحديقة ، وفي كل غرف وقاعات القصر ، وفي العليات والدهاليز والأقبية ، ولكن بلا طائل ، الأمر

الذي أثار الضيق الشديد ، في نفوس قاطني القلعة ، فشددت الحراسة ، وصدرت الأوامر بالقيام بدوريات ليلية لا تنقطع ، لكن شهراً انقضى ، ثم شهرين ، دون وقوع المزيد من الحوادث ، فيما ظلت هوية القناص لغزاً ، لم تنكشف أسرارته .

ابتهج الساموراي جميعاً ؛ لتراجع الخطر الذي تهدد حياة سيدهم ، لكن كل من قابله عقب الحادث شعر بالإشفاق عليه ، في قرارة نفسه . وعندما اندمل جرحه بما يتيح له استقبال رجاله ، بدا جلياً ، للجميع أنه أصبح أشرم ، وما كان ذلك ليوصف بالإصابة الخطرة ، فعدم الانتظام نسبياً في السطح العلوي لشفته لن يؤثر على أنشطته اليومية ، ولن يمنعه من إعمال سيفه في الميدان ، شأن أي رجل عادي . وبالمقارنة بأعرج أو أعور فإنه لا يمكن القول ، على الإطلاق ، بأنه رجل معوق ، وهكذا هنا رجاله على حسن طالعهم ، لكن أياً منهم عندما انحنى بتوقيع مصطنع ، لم ينظر مباشرة إلى محياه . وقد أصابهم فتور كبير من الانزعاج ، عندما تبينوا أنهم لا يستطيعون دائماً فهم ما يقوله . وتحسن الوضع هوناً ، مع استمرار اندمال الجرح ، لكن هوة مثثة ظلت قابضة في منتصف شفته العليا ، وفقدت سنتان أو ثلاث ؛ الأمر الذي نتج عنه أن بعض الأصوات لم تكن مميزة . ذلك كان مدى الضرر الجسماني الذي لحق به .

لكن المرء يألف هذه الأمور ، ومع مضي الوقت لا يكثرث الشخص المعني ، ولا من يحيطون به ، أدنى اكتراث بها . وفي البداية ، اغتم نوريشيجي ، أما الآن فقد غدا بمقدور رجاله حاشيته النظر إلى وجهه ، وكأن شيئاً لم يكن ، وتعلموا كيف يتفهمون حديثه . وسلم الجميع بهذا الشرم ، كأنه أمر طبيعي ، فنسي نوريشيجي الجرح ، الذي كان يستشعره في بادئ الأمر .

ومضرب له بعض أعضاء حاشيته مثلاً برجل الاستراتيجية البارز يماموتو كانسوكي ، الذي كان أعرج ، أحول ، يوشك أن يكون قزماً ، تقتحمه العين ، وأكدوا له أن العيوب البدنية لا تأثير لها في زيادة كبرياء المرء ومكانته ، وقد جرى تدريجياً إقناعه بأن ذلك هو الحق الصراح . ولكن بالنسبة لمراقب محايد ، أو لشخص خبيث الطوية ، فإنه ما من شيء مضحكاً . وكلما زاد اعتياد أعضاء الحاشية الآخرين لوجه نوريشيجي وحديثه ، لاحا بصورة أكبر أكثر اتساعاً بالطابع الفكاهي ، من منظور تيروكاتسو ، وأياً كانت محاولاته لمنع نفسه من الانسياق مع هذا الشعور ، فقد كان يعرف أنه لا يسعه أن يكون موالياً للرجل فيما هو ينظر إلى شفته ذات الشرم الثلاثي . بل إن الأمر كان على العكس من ذلك ، فقد أدى قبح وجه نوريشيجي إلى زيادة إخلاص الأميرة كيكيو . وتاق إلى اختلاس نظرة إلى الأميرة ، وخاصة إذا ما كانت منفردة بالديميو الأشرم ، في مخدعهما . لسوف يتفوه الأمير ذو الوجه المثير للرتاء بعبثياته العذبة ، بذلك الصوت المميز بغرابته ، وستقمع زوجته الحبيبة الأميرة كيكيو ضحكة ، وتخفي سوء طويتها ، وتبتسم في غنج ودلال . لقد تجسد هذا المشهد ، الذي لا شك أنه تكرر كل ليلة في جوف القصر ، في أحلام يقظة تيروكاتسو ، كلما مثل في حضرة نوريشيجي . في بعض الأوقات ، راح يحدث نفسه بأن بمقدوره أن يرى محياً الأميرة النبيلة ، المكسو بالذرور ، يرفّ كأنه الشبح ، في الفجوة الظليلة ، وراء نوريشيجي ، فيما هو يقتعد منصته .

أمضى تيروكاتسو أياماً عديدة ، مستمتعاً بالأخيلة ، التي ألهمه إياها وجه نوريشيجي ، ولكنه بدوره لم تكن لديه أدنى فكرة عن هوية من تسلل إلى الحديقة ، وأطلق السهم ، الذي مثل بوجه

نوريشيحي . وربما لعلكم افترضتم أن الفاعل هو تيروكاتسو نفسه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فيما يبدو . وفي كل الظروف القائمة ، سيكون التشكك فيه أمراً طبيعياً ، ولكن كتابي « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » يتحدثان عن فاعل آخر ، على نحو ما سنرى ، ويبدو من المنطقي تماماً القبول بالصورة ، التي يرسمانها ، وهما صريحان أشد الصراحة ، فيما يتعلق بالجوانب الأكثر قتامة في الحياة السرية لأمير موساشي ، بحيث أنه لا يحتمل أن يتكتما أمره ويتلاعبا بالحقائق ، إذا كان مذنّباً في هذه الحالة . إضافة إلى هذا ، فلم يتم بعد إجراء اتصال بينه وبين الأميرة كيكيو . وربما كان حرياً به أن يحاول القيام بعمل خبيث ما ، ولكن من المؤكد أن مآل هذا العمل إلى الفشل ، لم يكن على اتصال بالأميرة . وعندما كانت عاطفته المرتكسة تجتاحه ، كان ينقلب إلى شيء لا صلة له به في حالته العادية بالمرة ، لكنه كان في أعماق نفسه محارباً نبيلاً ، مكتمل الرجولة . وربما شعر ، في ذلك الحين ، بما لا يتجاوز كونه حافزاً للقيام بعمل خبيث ، ولكن من المؤكد أن ميوله المَرَضِيَّة لم تكن قد نمت بالقدر الكافي لجعله ينحدر إلى هذا الدرك . وبدون أدنى شك فإن هذه الفعلة اقترفها غيره . وقد وقعت حادثة مشاهدة ازدهار الكرز ، حينما كان تيروكاتسو قد شرع لتوّه يستشعر أعظم قدر من الندم على قتله لزوشو ، وإحباطه لخطة الأميرة . وبما أنه لم يكن بمعية نوريشيحي في ساحة الواقعة ، فلم يدر بالتفاصيل ، ولكنه أحس ، على الفور ، بأن الأميرة أبت التخلّي عن خططها ، بل وعثرت على من يضطلع بدور زوشو . وبالطبع ، لم يعلم بالكيفية التي دخل بها هذا الرجل ، أو المرأة ، الحديقة الداخلية ، ثم أفلح في الهرب ، ولكنه بدا جلياً أن كل شيء تم القيام بإنجازه بمباركة الأميرة ، وأدرك أن السهم الذي شرم نوريشيحي إنما وُجّه إلى أنفه ،

فهل تكتفي الأميرة بما حلّ بزوجهما من شرم ؟ أم أن الهجمات ستواصل إلى أن تطيح بأنفه ؟ من المحتمل أن اهتمام تيروكاتسو قد انصبّ على هذه النقطة .

ذات مساء صيفيّ حار ، في الشهر السادس من العام نفسه ، كان نوريشيجي مسترخياً في الشرفة مع زوجته ، يستروح النسيم ، ويعاقر الساكي ، عندما اندفع سهم ، بغتة ، باتجاهه من أجمة كثيفة في الحديقة . كان قد أطلق من الاتجاه ذاته ، وبالزاوية عينها ، مع وجه نوريشيجي ، كالسهم السابق ، ولكن في هذه المرة سمعه نوريشيجي يشق طريقه ، عبر هواء الليل الساكن ، فحوّل وجهه وتراجع إلى الخلف ، في ردّ فعل انعكاسي ، ولو أنه لم يفعل هذا لتسطّح البروز الناتئ فوق شرمه . ورغم ذلك ، فلم يخرج من الأمر سالماً ؛ ذلك أن السهم كان أسرع من حركته المفاجئة ، ففيما هو يميل بجسمه إلى الخلف ، ويلوي عنقه إلى اليسار ، اكتسح السهم الجانب الأيمن من وجهه ، ومضى في سبيله بكتله ناتئة من اللحم والغضروف ، هما أذنه اليمنى .

تحركت الوصيفات مسرعات ، فاهتمّت مجموعة بالعناية بنوريشيجي ، واندفعت أخرى إلى الحديقة بالحرايب . لم يطرأ شيء خلال الأشهر الثلاثة ، التي انقضت منذ حفل مشاهدة ازدهار الكرز ، وتم التخلي عن التفتيش عن الجاني ، بحسبانه أمراً لا طائل ورائه ، وتراجعت اليقظة في الحراسة هونا ، لكن الحراس كانوا على الدوام يضربون نطاقاً محكماً ، معتمدين على خبرتهم من الهجوم السابق . غير أن القناص قد طار لا بدّ إلى عنان السماء ، أو انشقت الأرض وابتلعتة ، ففي هذه المرة أيضاً أفلح في الهرب ، دون أن يعثر له على أثر .

كَانَ الضَّرَرُ النَاجِمُ عَنْ جَرَحِ نَوْرِشِيْجِي مَحْدُوْدًا كَسَابِقِهِ ، بَلْ
وَأَقْلَ مِنْهُ حَقًّا . بِالطَّبَعِ ، كَانَتْ تِلْكَ لَطْمَةٌ ثَقِيْلَةٌ حَلَّتْ بِمَظْهَرِهِ ، إِذْ
فَقَدَ أُذُنَهُ الْيَمْنَى ، بَعْدَ أَنْ غَدَا رَجُلًا أَشْرَمَ ، مِنْ قَبْلِ ، لَكِنْ ذَلِكَ
أَفْضَلُ مِنْ فَقْدَانِ أَنْفِهِ . رَبَّمَا يُمْكِنُ الذَّهَابُ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنْ فَقْدَانِ أُذُنٍ
هُوَ أَسْوَأُ مِنَ الشَّرْمِ ، أَوِ الْمَضْيِ بِلَا أَنْفٍ ، لِأَنَّهُ يَقْلِبُ تَوَازِنَ وَانْسِيَابِ
الْوَجْهِ ، لَكِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ يَتَعَيَّنُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ أَنْ يَقْرَرُ لِنَفْسِهِ مَا يَرَاهُ
فِيهِ . أَمَّا سَكَانُ قَلْعَةِ أَوْجِيْكََا ، وَهُمْ أَبْعَدُ مَا يَكُونُونَ عَنْ تَمْحِصِ مِثْلِ
هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، فَقَدْ حَلَّتْ بِهِمْ حَالَةٌ رَهِيْبَةٌ مِنَ الْقَلْقِ وَالْإِهْتِيَاجِ ،
وَخَلَصُوا إِلَى أَنْ الْجَانِي هُوَ ، عَلَى وَجْهِ الْيَقِيْنِ ، الشَّخْصُ نَفْسُهُ
الَّذِي أَتَى هَذَا الْأَمْرَ قَبْلًا . وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْقَنَاصُ قَدْ اخْتَفَى كُلُّ هَذَا
الْوَقْتُ فِي الْقَصْرِ الدَّاخِلِيِّ ، فَلَا بَدَّ إِذْنٍ مِنْ أَنَّهُ أَوْ أَنَّهَا مِنْ أَهْلِ
الدَّارِ ؛ وَبِنَاءِ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَدَأَتْ عَمَلِيَّاتُ التَّفْتِيْشِ وَالتَّحْقِيْقِ مَعَ
الْحِجَابِ وَالْأَمْنَاءِ فِي الْقَصْرِ (فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَفْتَرِضُ أَلَّا
يَدْخُلُهُ الرِّجَالُ ، إِلَّا أَنْ بَعْضَ الْخُدَمِ مِنَ الذُّكُورِ الْحَقِّ بِهِ) وَطَالَتْ
الْوَصِيْفَاتُ ، وَلَكِنْ التَّشَكُّكَ حَاقَ دَاهِمًا بِالْمَحْظِيَّاتِ . وَعَادَةً مَا يُوْثِّرُ
الدِّيمِيُو محْظِيَّاتُهُ عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَلَكِنْ نَوْرِشِيْجِي تَزَوَّجَ مِنَ الْمَرْأَةِ
الَّتِي يَهْوَاهَا ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى محْظِيَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثِ محْظِيَّاتٍ إِلَّا بِتَأْثِيرِ
الْعَادَةِ ، وَلَآئِنْ أَمْرٌ مُتَوَقَّعٌ مِنْ أَمِيرٍ إِقْطَاعِي . وَيُظْهَرُ مَدَى إِهْمَالِهِ لِهِنَّ
مِنْ خِلَالِ الْحَقِيْقَةِ الْمَتَمَثِّلَةِ فِي أَنَّهُ وَلَدَ لَهُ طِفْلٌ وَطِفْلَةٌ مِنْ زَوْجَتِهِ ،
عَلَى حِينٍ لَمْ يُعَقِّبْ مِنْ محْظِيَّاتِهِ . وَكَانَ فِي السَّابِقِ يَمْضِي لِرُؤْيَيْتِهِنَّ
حَسْبَمَا يَعْنِي لَهُ ، مِنْ حِينٍ لآخِرٍ ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ تَعَرُّضِ وَجْهِهِ لِلْحَادِثِ
الْمَشْؤُومِ لَمْ يَكُنْ يَتْرَكَ جَوَارِ زَوْجَتِهِ لَيْلًا إِلَّا نَادِرًا ، وَاسْتَشْعَرَ مَقْتًا
شَدِيدًا لِرُؤْيَا محْظِيَّاتِهِ لَهُ ، عَلَى هَذَا النِّحْوِ . وَفِي غَمَارِ هَذِهِ
التَّدَاعِيَّاتِ ، أَفْرَدَتْ محْظِيَّةٌ ، عُرِفَتْ بِغَيْرَتِهَا ، عَلَى نَحْوِ خَاصٍ ،

لمزيد من التحقيق ، ولكن ، في نهاية المطاف ، لم يعثر على دليل ضدها ، ولم يسفر التحقيق عن شيء .

وعلى الرغم من أنه لم يتمّ التخلي عن القيام بالتفتيش كلية ، فإن التوقعات لم تكن مشجعة . وتم تنفيذ دورات المراقبة ، بمزيد من الصراحة ، وزيدت مواقع الحرس ، وعيّن أحد أفراد الحاشية الموثوق بهم ، كل شهر ، ليتولى مهمة الإشراف على هذه المواقع . وبعد حوالي شهرين ، في منتصف الخريف ، حل دور تيروكاتسو ، أخيراً ، للإشراف على مواقع الحرس . وكان ينتظر هذا التطور بلهفة ، فيما أنه كان الوحيد الذي اشتّم رائحة السرّ وراء ما يحدث ، فإنه وحده هو الأنسب للاضطلاع بهذا الواجب . ولكن بالطبع لم تكن الرغبة في خدمة نوريشيجي ، بالعثور على الدليل على المؤامرة ، هي السبب في لهفته . وبما أن مواقع الحرس كانت عند طرف ناءٍ ، بالنسبة للغرف الخاصة بالأميرة كيكيو ، فلم يكن هناك كبير أمل في تحقيق ولو اتصال غير مباشر بها ، دع جانباً استراق النظر خلصة إليها وهي غافلة ، ومع ذلك فإنه بالنسبة لرجل يعشقها عن بعد إلى حدّ التبتّل كان أمراً مريحاً أن يغدو أكثر قرباً منها ، وأن يرى أسقف وجدران القصر الذي تقطنه . وبعد تولي مسؤولياته الجديدة ، راح تيروكاتسو يتجول على مهل عند السور الخارجي للقصر الداخلي كل ليلة ، مصدراً توجيهاته بالنسبة لمواقع الحرس والمراقبة ، مستغرقاً طوال الوقت في بهجة أخيلته المعتادة ، وهو يرسم لنفسه صورة الثنائي المتناقض ، في مخدعهما . وحتى خلال النهار ، كان يستند إلى سور حجري مشمس أسفل القصر ، ويحدق في سماء الخريف الصافية ، ويتابع الأشباح في ذهنه شارداً . وفي مثل هذه الأوقات ، يغدو بطل ساحات القتال شاعراً . كانت تلك أكثر البقاع

هدوءاً وعزلة في أراضي القلعة ، المكان المثالي لشاب أخذ الهوى بمجامع قلبه ، ليمضي فيه الوقت ، في حوار مع أحلام يقظته . وعلى نحو ما رأينا ، فإن قلعة تسوكوما كانت سلسلة حصون جبلية ، تستغل الموقع الحصين الذي يحتله جبل أوجيكا . وهي لا تتبع الأساليب الفنية الغربية ، في بناء الحصون ، على نحو ما غدا الحال عليه ، في وقت لاحق ، بالنسبة لقلعة أروتشي ، وإنما كانت قلعة مبنية بأسلوب القرون الوسطى ، الذي لا تشوبه شائبة : فالمدخل يخضع لما تمليه الاعتبارات الطبوغرافية ، وعلى الرغم من أنها فسيحة الأرجاء ، إلا أنها غير منتظمة الشكل ، إلى أقصى حد ؛ إذ تضم داخلها غابات وأودية وأغواراً ، تحيط بها أسوارها . وقد استقر القصر الداخلي على قمة تل ، يرتبط بتل آخر ، يأخذ شكل اليقطينة ، شيد فوقه القصر الخارجي ، ويصل عنق اليقطينة الضيق التلّين أحدهما بالآخر ، ويقاطعه ، مستعرضاً ، ممر طويل يفضي من القصر الخارجي إلى الغرف الخاصة ، ومثل باب خشبي الفاصل بين الجنسين . وكان هذا هو الطريق الداخلي الوحيد ، الذي يفضي من عالم الرجال إلى دنيا النساء . وشملت المنطقة ، التي يراقبها الحراس ، التل الذي يتربع القصر الداخلي عليه بكامله ، وبالتالي فلا بد أنها ضمت مساحة يعتدّ بها . وكانت المساحة المسطحة يحيطها سور طيني ، يرتكز على سور حجري شديد التحدر ، وترك المنحدر الذي يعلوه السور على حالته الطبيعية ، حيث نمت الأعشاب البرية كثيفة وعالية ، وثمره هوة صخرية هنا وهناك ، إلى جانب غابة عذراء كثيفة الأشجار ، يلفها الظلام ، على نحو يبعث الرعدة في النفوس . وإذا ما غامر أحدهم باقتحام هذا المكان ، لاعتقد أنه ضل الطريق ، في هذه البرية الجبلية ، التي لا تبين فيها المعالم .

ذات أصيل ، أقبل تيروكاتسو ، كمألف عادته ، إلى هذه البقعة
النائية ، عند قاعدة السور الحجري . وفيما هو يجلس شارد الذهن ،
على الجذر الباقي من شجرة مجتثة ، امتدّ ناظره صعوداً على السور
الحجري والسور الطيني الذي يعلوه ، وصولاً إلى قمم أشجار الغابة
الرائعة ، التي تشكل امتداداً للحديقة الداخلية ، وأخيراً إلى
السقف ، الذي يتخايل من بين قمم الأشجار . قال محدثاً نفسه :
« ذلك هو القصر » . رغم قربه ، لم يكن أمامه من سبيل إلى إعلانها
برغبته في أن يكون تابعاً موالياً لها ، وأن ينفذ أي مهمة تعهد بها
إليه ، دونما شعور بالامتنان من جانبها . أفعمته هذه الخاطرة بالأسى
والحنين ، في آن واحد . وإذ أفعمه الحنين العاجز ، كان يمكن أن
تظل عيناه تطوفان إلى ما لا نهاية بالسور الحجري والسقف ، لكنه
لاحظ ، فجأة ، موضعاً في أدنى السور جُرد من الطحالب . لم
يكثرث به ، في البداية ، ولكن على الرغم من أن باقي الجدار كان
مكسواً باللون الأخضر ، كانت هناك علامات في هذا الموضع تدل
على أن أحدهم قد أحدث خدوشاً في الطحالب ، ثم لإخفائها انتزع
أجزاء من الطحالب المجاورة . نهض تيروكاتسو ، وطرق مرتين أو
ثلاث مرات على سطح الحجر الأكثر انكشافاً ، فبدا من الصوت كما
لو كان هناك فراغ وراء الحجر ، وقد أكد هذا بالطرق على الصخور
الأخرى ، على سبيل المقارنة ، ثم لاحظ أن الأرض قد وُطئت ،
وأن الأعشاب دهست ، كما لو كان أحدهم قد نقل الحجر ، ثم أعاده
إلى موضعه ، ولما عثر على فراغ مناسب لدس أصابعه حاول قلقلة
الحجر ، فإذا به ينزلق خارجاً ، فيما هو يجذبه . أحس تيروكاتسو
بدهمول شديد يتملك ناصيته ، فقد كان من اليسير نزع الحجر ؛ لأنه
قلّص إلى أقل من نصف سمك الأحجار المجاورة له ، وألفى مقبضاً
قد نُحت في خلفية الحجر ، طوله سبع أو ثمانى بوصات ، بحيث

يمكن إعادته إلى موضعه ، من داخل السور . وبإزاحة الحجر من الطريق ، وجد أن للثغرة القائمة بالسور من السعة بحيث تسمح بدخول رأس رجل وكتفيه . تخلى عن سيفه الطويل ، وزرق خلال الفتحة ، تماماً على نحو ما يفعل المرء في طقوس التطهر البوذية ، المعروفة باسم « اجتياز الرحم » . وما إن غدا في داخل الثغرة ، حتى وجد فراغاً يكفي للزحف قدماً ، وهكذا استرد سيفه ، ثم أمسك بالمقبض بقوة ، وأعاد الحجر وراءه إلى موضعه . لقه الظلام الحالِك ، لكن النفق ، الذي سمح اتساعه بالزحف خلاله ، كان يمضي به إلى أعلى بصورة طبيعية . وفي بعض الأحيان كانت أرضية النفق تتحول إلى درج متحرر من الحجر . بدا له أنه قد شق طريقه زحفاً طوال آماذ عبثية ، لم يكن بمقدوره أن يخمن ، على وجه الدقة ، كم من الأمتار ، بل كم من مئات الأمتار ، امتد هذا النفق ، ولكن في نهاية المطاف أفضى الممر ، الواقع تحت الأرض ، إلى حافة ممر رأسي ، يتقاطع معه بزاوية قائمة ، . أمسك بحصاة ، وألقاها في الممر الرأسي ، فألفاه شديد الغور ، وأدرك ، على نحو تقريبي ، أين هو الآن .

عند هذه النقطة ، أمل أن تغفروا لي طرح موضوع شديد الغلاظة والخشونة ، هو تصميم المراحيض ، التي كانت السيدات الارستقراطيات تستخدمها ، في ذلك العهد . يقال إن سيدة شهيرة ، من سيدات بلاط يوشوار ، أبدت رقتها ورهافتها بالتظاهر بالخلط بين خيط ينتظم قطعاً من العملات المعدنية وبين يرقانة فراشة ، ولكن السيدات اللاتي يولدن في رحاب عائلة ديميو لم يكن جاهلات بالنقود والعملات فحسب ، وإنما لم يسمحن لأحد ، ولا حتى لأنفسهن برؤية فضلاتهن قط . وقد تم تحقيق هذا الأمر الدقيق بحفر

بئر عميقة تحت المرحاض ، تظمر للأبد لدى وفاة السيدة النبيلة .
ومن المؤكد أنه ليست هناك وسيلة أكثر رهافة للتخلص من الغائط ،
ويدهش المرء من فخامة مرحاض ناي يون - لين ، الذي صُمم على
نحو يجعل الفضلات الصلبة الجافة المتساقطة فيه تلتهمها في التو
أعداد لا تحصى من الفراشات المحلقة ، لكن ذلك لا يضارع
الدمائة ، التي يعكسها الأسلوب الآخر ، الذي يحقق الغرض
المطلوب ، دون السماح حتى للخادومات برؤية أي شيء . ثم هناك
القصة التي تروى عن سيدة البلاط الهائية الحسناء ، التي عذبت
بالإدناء ثم الاقصاء خاطباً لودّها ، بأن أهدته نسخة من غائطها صنعت
من فصوص الثوم . وقد جمع التكتّم في هذا الخصوص بين
السيدات النبيلات كافة . وبالمقابل فإن المرحاض الغيطي
الحديث ، إذ يحقق متطلبات النظافة ومراعاة الجوانب الصحية ، إلا
أنه يضع كل شيء أمام ناظريك ؛ ولذا فإنه ينبغي أن يقال إنه ابتكار
وضيع وبذيء ، لا بد أن مصممه نسي أن هناك شيئاً اسمه الذوق
واللياقة في خلوة المرء بنفسه .

كانت هذه المراحض قصراً على السيدات والفتيات
الارستقراطيات ، ولما كانت البنت الصغيرة في القصر لا يتجاوز
عمرها العامين ، فإن هذا النفق لم يكن يستخدمه إلا شخص واحد .
وبتعبير آخر ، ألفى تيروكاتسو نفسه غائراً في الأرض تحت مرحاض
الأميرة كيكيو مباشرة .

الكتاب الرابع

وفيه تلتقي الأميرة كيكيو بتيروكاتسو وتتألم

لشدّ ما بدا بعيداً عن اللياقة ، بالنسبة لتيروكاتسو ، الذي قدّر له أن يغدو أمير موساشي مرهوب الجانب والمحارب الجليل ، الذي نقلت لنا تلك اللوحة ملامحه ، أن يجثم كالخلد في نفق تحت مرحاض الأميرة كيكيو ، ولا شك أن تقطية علت ملامحه ، عندما تأمل الوضع الزري الذي ألفى نفسه فيه . ومهما كان قدر إعجابه بالأميرة ، فلا شك أنه سيسيء إلى كرامتها ، ويخدش كبريائه اعتباره ساموراي ، إذا ما حاول الوصول إليها ، بالتسلل عبر هذا الطريق الجانبي المشين . وحتى بفرض قبول المتسلل لهذه العراقيل ، فكيف يصل إلى الأميرة كيكيو ، دون أن يثير الفزع في نفسها ؟ ولو أنه جعلها تصرخ من هول المفاجأة ، أو يغشى عليها ، لانتهت هذه الفرصة الفريدة بالفشل التام . لكن تيروكاتسو شجّع تخمينه أن القناص ، بدوره ، قد استخدم هذا الممرّ القابع تحت الأرض . ولئن كان الأمر كذلك ، فإن الأميرة كيكيو قد اعتادت أن يشب الناس من مرحاضها ، ولن تعتبر ذلك بالضرورة أمراً غير لائق ، وعلى الأقل فإنها لن تكون من الاندفاع بحيث تصرخ طالبة النجدة ، لمجرد أن رجلاً قد ظهر لها على غير انتظار . وقد أجّج هذا الإدراك ، على وجه السرعة ، فضوله وحسّ المغامر القابع في أعماقه .

انتظر بعض الوقت دنوّ السيدة النبيلة في الأعالي ، ولكن لم

يستطع المكوث طويلاً ، عند حافة الثغرة ، واضطر للانسحاب سريعاً ، وقد خاب أمله . وفي حوالي الوقت ذاته من الأيام الثلاثة التالية ، تسلل إلى قاعدة السور ، ودخل الممر القابيع تحت الأرض ، وانتظر صابراً حوالي الساعة ، عند حافة النفق الرأسي . وفي نهاية المطاف ، كوفىء على جهوده الدائبة ، التي تحاكي إلى حد كبير الجولة الجهنمية في معبد زنكو ، وذلك في أصيل اليوم الثالث ، عندما تردد وقع خطى لينة على الأرضية ، في الأعالي ، واخترق شعاع واهن الظلام في الممر ، فأصدر صوتاً خفيفاً ليجتذب انتباهها .

هتف بأقصى قدر يستطيعه من الهدوء والليونة :
- مولاتي ، لطفاً منك ، فلديّ ما أقوله لك . أسمحين لي بالمشول بين يديك ؟

توقف في التوحيف الحريير . خمن أنها تجمدت في موضعها ، وراحت تصيخ السمع ، إلى جوار حافة الحفرة المطلية باللك الأسود ، حيث صدر صوته . اجتذب رسالة زوشو السرية من صدره .

قال ، ممسكاً بالرسالة حيث تستطيع أن تراها :
- الأمر خاص بهذه الرسالة ، ليس هناك ما تخشينه مني . أرجوك اسمحي لي !

أحدث خطته التأثير المطلوب ، فقد ردت بنعومة :
- لك أن تصعد .

كان النفق ، الذي استخدم غالباً لهذا الغرض ، مزوداً بمقابض مناسبة ، بحيث يستطيع المرء التسلق ، دون أن تلتطخه الفضلات ،

وبأقل مجهود ممكن ، ليصل إلى الغرفة ، وهكذا استطاع تيروكاتسو النهوض بنعومة عبر الحافة المطلية باللك الأسود ، والانحناء على الأرض أمامها ، دون اللجوء إلى أوضاع قد تمسّ شرفه أو تسيء إلى كرامتها . كان المشهد قريباً ، إلى حد كبير ، من ذلك المشهد في مسرحية « أشجار الكرز الألف » ، حيث يظهر الثعلب في هيئة تادانوبو ، من أسفل دهليز في القصر ، وينحني أمام الأميرة شيزوكا . وفي حقيقة الأمر ، أن الغرفة رغم كونها مرحاضاً (أحيطت بالأسوار والأبواب المزدوجة) إلا أنها كانت من السعة بحيث تستطيع الأميرة ، التي بدت مثل زهرة ضخمة في أرديتها الفضفاضة ، أن تتحرك فيها بحرية . وقد كسيت أرضيتها بالحصر المصنوعة من القشّ ، وأعطت الانطباع بالامتداد الصامت ، الذي يتوقعه المرء من غرفة في قصر . مذهولاً ، راح تيروكاتسو يلصق جبينه بالأرضية المكسوة بالحصر . أوحى له باقة البخور البديع ذات الرائحة الهفافة بمزيد من الذهول والرغبة ، والهواء يضوع بها حوله ، فأحنى رأسه ، حتى لامس صدره . ربما كانت ملابس الأميرة مضمخة بعبق نوع نادر من البخور ، أو لعلها كانت رائحة صبار يحترق وثيداً ، فقد كانت هناك نافذة صغيرة قرب رأسه ، وإن لم يستطع رؤيتها ، وعلى الرف القريب من النافذة كانت هناك مبخرة ذات لون أخضر شاحب .

- من أنت ؟

- إنني تيروكاتسو ، نائب حاكم كاواتشي ، الابن الأكبر لكيريوتيروكوني ، أمير موساشي .

لدى حديثه ، أصدر النسيج السميك ، الذي حيكت منه ملابسها ، التي كان أسفلها يمتدّ ويعلو في طيّات ثقيلة ، على بعد

قدمين أو ثلاثة من وجهه ، حفيفاً ليناً ، فيما الأميرة تتراجع خطوة إلى الوراء ، وقد استبدت بها الدهشة .

- أتقول إنك تيروكاتسو ؟

- أجل ، يا مولاتي !

- ارفع وجهك !

رفع الساموراي الشاب رأسه ، في إجلال ، وصدق للمرة الأولى في المرأة ، التي كانت مناط أشواقه . وفي أفضل الأحوال ، فإن من الطبيعي ألا يستطيع المرء التحديق في وجه شخصية بارزة ، دع جانباً أن يتمكن ذلك الشاب ، الذي لم تحنكه التجارب من القيام بذلك ، عندما يجد نفسه وجهاً لوجه مع المرأة ، التي عشقها حد التبتل من بعيد . لا تخترق أشعة الشمس طريقها أبداً إلى الغرف المعتمدة الموجودة خلف القصور ، ولم يكن يضيء غرفة المرحاض إلا ضوء واهن ينسل إلى الداخل ، في ذلك الأصيل الخريفي ، عبر النافذة الورقية ، بدا محيا الأميرة ، فيما هو يمعن النظر فيه ، عبر عتمة الشفق ، غائماً ، ربما كالشبح الذي رسم صورته في ذهنه . أما فيما يتعلق بباقي التفاصيل فلسوف يتعين عليه أن يتخيل مدى رشاقتها وليونتها ، على أساس محياها الأبيض دونما توهج . كان كل ما استطاع تبيّنه بوضوح هو الزخارف المطرزة على أثوابها بخيوط الذهب ورقائقه ، التي تتألق كأفضل ما تكون في الأماكن المعتمدة . وإذ رآها تقف وإحدى يديها ممسكة في خدر بمقبض خنجرها ، أحنى رأسه من جديد ، بمزيد من التوقير .

- إنك تيروكاتسو حقاً .

قالتها ، كأنما تحدثت نفسها . لم يكن تيروكاتسو قد رآها من قبل ، لكنها شاهدته كثيراً ، فقد كانت نساء الطبقة العليا ، في ذلك

العهد ، ينطلقن محمولات في هودج ، عندما يمضين إلى خارج دورهن ، أو يحكمن إسدال نقاب كثيف على وجوههن . وفي دورهن كن يحتجبن على الدوام وراء ستائر ومصاريع خيزرانية ، من هنا لم تكن هناك إمكانية لأن يرى الأتباع محياها ، ولكنها كانت حرة في التطلع إلى وجوههم .

في مآدب استهلال الفصول والعروض المسرحية والجولات والحفلات الغنائية ، من المحقق أن الأميرة كيكيو قد لاحظت كثيراً طلعة وقوام الشاب الواعد ، في صفوف الاتباع . ولا بد أن وصيفاتها قد همسن لها ، فيما هي تتطلع عبر مصاريعها الخيزرانية : « ذلك هو تيروكاتسو ، الذي طارت شهرته محدثة عن شجاعته » . وقد توقع تيروكاتسو ذلك مسبقاً ، لكن ما قالته أشعره بالاعتداد البالغ بنفسه ، وزادت معرفته بأنها تذكرته من شعوره العميق بالامتنان لهذا اللقاء الأول .

- إذا سمحت لي ، فقد جئت إلى هنا حليفاً لك !

حينما لمح التساؤل الصامت في عينيها ، كان همه الأول هو اكتساب ثقتها . فواصل حديثه ، في لهفة وانفعال :

- حليفك . . . إني حليفك . أرجوك أن تعهدي لي بالمهمة المتضمنة في هذه الرسالة ، بواجبات ماتوبا زوشو !

عندما أتى على ذكر ماتوبا زوشو نددت « آه » مرتجفة من شفتيها ، لكنها سرعان ما تماكنت نفسها .

- أرني الرسالة !

قالتها بأقصى ما في وسعها من الرقة والليونة . فرفعها إليها تيروكاتسو ، كأنه يقدم لها التماساً ، حولت الرسالة إلى الضوء

الواهن المتناهي من النافذة ، وفحصتها على عجل ، ودستها في صدرها .

- من أين حصلت عليها ؟

- كنت أنا من قتل ماتوبا زوشو ، في خريف العام الماضي ، في معركة قلعة تسوكيجاتا ؛ فقد ظننت أنه يحاول قتل الأمير ببندقيته ، وبعد أن احتزرت رأسه ، فتشته ، فعثرت على الرسالة داخل كيس ثمين ، وكانت القوات منهمكة في معركة ضارية ، في ذلك الوقت ، فلم يدر أحد غيري بهذا الأمر .
- ولماذا ...

شرعت في التساؤل ، ولكنها لم تدر ما عساها تقول ، فكفت عن الحديث ، وحدثت في تيروكاتسو للحظة . إن من شأنه أن يكون عدواً لا يستهان به ، ولكن هوذا يعفر جبينه بالتراب عند قدميها ، متوسلاً لها أن تقبله حليفاً . لا يمكن أن يكون هناك حظ أفضل من هذا ، ولكنها لم تستطع فهم ما يدفع هذا الشاب لنسيان التزاماته حيال آل تسوكوما ، وأن يكرس نفسه لخدمتها ، هي التي لا تربطه بها أي روابط على الإطلاق . بيد أنها لم يكن بمقدورها التشكك في حسن نواياه ، حينما أمعنت التفكير في الحقيقة القائلة بأنه لم يكشف أمر الرسالة السرية قط . كان ذلك العصر زمناً لجأ فيه الناس إلى أشد المخططات يأساً للإيقاع بأعدائهم ، فعلیها بالتزام الحذر ، ولكن لو أنه كان يعتزم فضح جرمها فلماذا يتخلى عن حذره بحيث يسلم لها هذا الدليل الذي لا سبيل إلى تفنيده ؟ لقد تركها تفعل ما يحلو لها بالرسالة ، وبدا بالغ الدهول ، وذلك ليس بموقف الرجل الذي يتآمر ضدها .

- أرجوك ، ألقى نظرة على هذا !

قالها تيروكاتسو ، بعد أن أدرك أن حذرهما منه لا يوشك على
التقلص ، واستخرج من صدره كيساً صغيراً مقصباً ، ورفعته في
إجلال إلى رأسه .

- هذه أيقونة كان زوشو يحملها مع الرسالة ، تحت درعه ، وقد
حفظتها معي ، منذ ذلك الحين كإيماء إلى أنني ، رغم عدم جدارتي
بذلك ، سوف أضطلع بهذه المهمة .

قالها تيروكاتسو ، وفي غمار حماسه فتح الكيس ، خلال حديثه
وأوشك على إخراج الأيقونة .
- ها هنا !

قالتها محتدة ، ولتذكره بأنهما ليسا في موضع طاهر ، راحت
توجه إليه بعينها سهام اللوم ، وأومات مانعة إياه من القيام بأي عمل
يدنس الأيقونة ، ولكن لا بد أن حماسه قد أثر فيها .

- ولمَ ترغب في أن تغدو حليفي ؟
قالتها متجهمة ، وإن وشت الرقة صوتها .
- لدي ، يا مولاتي ، شيء آخر أقدمه لك .

ودون أن يردّ على سؤالها ، دسّ يده في صدره من جديد ،
واستخرج كيساً مطرزاً بالذهب ، يضم حُقاً صغيراً ، ودفعه بإجلال
إلى الأميرة . أضاف :

- داخل هذا الكيس تذكّار من أبيك ، الأمير ماساتاك ، أرجو أن
تقبّليه !

سألته ، كأنما هي عاجزة عن تصديق ما تسمعه أذناها :
- ماذا ؟ تذكّار من أبي ؟
- نعم ، يا مولاتي !

رد تيروكاتسو تواء ، رافعا الكيس عالياً بكلتا يديه ، وأحنى رأسه بعمق ، مستطرداً :

- أعتقد أن شيئاً ثميناً قد فُقد ، على نحو يثير أشد الاستنكار ، من جثمان الأمير ماساتاكازا .

- أترمي إلى القول بأن هذا الشيء موجود في هذا الكيس ؟

- أجل ، يا مولاتي !

وقفت أمام تيروكاتسو في أثواب يفوق حجمها ثلاثة أمثال حجم أثوابه ، متمائلة في رشاقة ، كأنها نبات الفاوانيا ، الذي يميل ويتساقط ، ثم تردّد حفيف حادّ للحرير ، كأنه زفيف الريح ، خلال أشجار الصنوبر ، على قمة جبلية . عندما سمعت رد تيروكاتسو ، ضمت كفيها ضاغطة في إجلال أمام الجسم ، الذي كان يمسك به ، وجثت على ركبتها .

شرعت في الحديث ، بعد لحظة سادها الصمت ، متخلية عن تحفظها السابق ، وبأرق ما في صوتها من رنين أنثوي :

- تيروكاتسو من أين حصلت على تذكّار والدي هذا ؟

- عندما حاصر الأمير ماساتاكازا هذه القلعة ، شدد الهجوم حتى بلغ الحصن الثالث ثم الثاني ، وكانت القلعة توشك على السقوط . حينما استدعى السيد الراحل إيكانساي جاسوساً في السر ، وأمره بأن يصرع ماساتاكازا تحت جناح الليل ، ولم يسمع ذلك أحد سواي .

ندّت عنها تنهيدة حرّى ، وهي تقول :

- إذن ، فقد كان الأمر على نحو ما ظننت تماماً .

قالت ، فجأة ، مهتاجة ، وهي تنحني إلى الأمام :

- قلت إنك كنت الوحيد الذي سمعه ؟

- ذلك صحيح . كنت في الثانية عشرة من عمري ، في ذلك الوقت ، وخلال اجتيازي الدهليز قرب مكتب السيد الراحل ، سمعته قائلاً : «إذا لم يتح لك الوقت لتحتز رأسه ، ففي الأنف الكفاية» . كنت أعرف أن ذلك خطأ من جانبي ، لكن كلماته كانت بالغة الغرابة ، فوقفت في موضعي ، ثم سمعته يقول : «اتفقنا ؟ الأنف فقط ، إذا اقتضت الضرورة . فحتى إن لم تقتله ، فإن ذلك الغندور سيسحب قواته يقيناً ، وينطلق هارباً ، إذا ما فقد أنفه» ، ثم ضحك بصوت خافت « ها ، ها » . كان يمكن للقلعة أن تسقط في أي لحظة ، وربما لم يكن أمامه خيار ، لكن إرسال جاسوس لاحتراز رأس قائد الأعداء ، فيما هو غاف ، دع جانباً إصدار تعليمات له ببتير أنف ذلك القائد ، لم يبد لي عملاً يليق بالسيد ، الذي كنا نعرفه جميعاً ، ولا بد أنه كان يشعر بالعار من سماع أحد له ، وهو يقول ذلك ، حيث أنه بمجرد تنفيذ الخطة وعودة الجاسوس إلى القلعة ، قتله الأمير إيكانساي ، وألقى بجثته في العراء ، دون أن يبلغ أحداً بالسبب . وقد كان هذا التذكار في صدر ذلك الرجل .

فيما هو يتحدث ، رأى قطرات ندية تتجمع بين أهداب الأميرة الطويلة ، التي لم تكن تبعد الآن عنه إلا مقدار قدم أو قدمين فحسب ، وتتحدر على خديها الأبيضين ، الأسيلين . وبوجود هذا الحسن الجدير بالإشفاق أمامه استجمع تدريجياً رباطة جأشه لإعمال خياله وبلاغته إلى أقصى حدودهما ، ذلك أنه كان قد عكف طوال يومين أو ثلاثة أيام جاهداً على وضع الخطوط العريضة لقصة يمكن أن تقتنع بها ، بل لقد بلغ الاقناع حداً تأثر هو نفسه معه من السياق المحتمل لتفسيره للأمر .

- وعلى الرغم من أنني لم أكن إلا طفلاً ، فقد استبد بي الحق ،

حينما اختلست السمع إلى الخطة السرية التي أعدها السيد ، لم يكن ذلك هو السلوك الذي أتوقعه من ساموراي . ومن ناحية أخرى ، فقد أشفقت على الجاسوس الذي لقي حتفه ، وأحسب أنني في اليوم التالي مضيت إلى الوادي الواقع بين التلال خلف حرم القلعة لأشاهد جثمانه . وأخيراً ، عثرت عليه بين أكوام القتلى . رحت أحدث نفسي بأنه ربما يحمل برهاناً ما على فعلته ، وهكذا ، فقد قمت بتفتيش ثيابه . وهذا التذكار هو ما عثرت عليه ، وربما كان السيد قد قرر أنه لا جدوى منه ، وتخلص منه مع الجثة . ولكني اعتقدت أنه من الخطأ معاملة تذكار من قائد عام دون الإجلال الذي يستحقه ، حتى ولو كان قائداً للعدو . ومن حسن طالعي باعتباري ساموراي أنه من خلال قدر عجائبي وصل هذا التذكار إلى يدي . وكائناً ما كان ما يعتقدده السيد الراحل ، فإنني يتعين علي القيام بما ينبغي لساموراي ؛ وهكذا فقد عدت به إلى مخدعي ، وحفظته في حجر أحمر ، وحرصت عليه حتى الآن ، على أمل أن يأتي يوم تناح فيه الفرصة لإعادته إلى عائلة ياكوشيجي . هكذا ، يا مولاتي ، وصل إلي هذا التذكار .

- إنك شديد الرقة والعطف يا تيروكاتسو !

قالتها الأميرة بامتنان غير متكلف ، ووضعت يديها على أرضية غرفة المرحاض ، وتهدل شعرها الفاحم المسترسل منساباً على محياها النير ، وانحنت للشاب . أضافت :

- لقد سمعت عن شجاعتك الخارقة ، لكنني لم اعتقد أبداً أن شاباً مثلك يمكن أن يكون على مثل هذا القدر من التعقل والحكمة . وقد أحسنت بتفهمك لموقفنا ، وبوسعك ، إذن ، أن تدرك طبيعة مشاعري .

- نعم ، يا مولاتي ، بتواضع شديد أستطيع إدراكها .

- لقد ولدت لعائلة من الساموراي . وأعلم أنني قد أفقد أفراد عائلتي ، في أية لحظة ، وعلى الرغم من أنني لست إلا امرأة ، فقد وطنت النفس على احتمال هذا . ولو أن أبي لقي حتفه في ميدان القتال ، لكان بمقدوري تقبل هذه الخسارة باستسلام . ولكنني باعتباري ابنته كيف يسعني نسيان الطريقة التي صُرع بها - كأنها عمل لص خسيس - والتمثيل الصارخ الذي لحق به؟ إنك تعرف أن ليس بمقدوري ذلك . لقد قالوا لي إنه مات حتف أنفه ، وصدقتهم ، ولكن لما حظر أخي وأمي عليّ أن أرى وجهه ، توصلت سراً لمربيّتي لتجعلني أراه ، وفي نهاية الأمر ضاقت ذرعاً بتوسلي ، واستسلمت لإلحافي . قالت : « ليكن ! لسوف أدعك تريه ، ولكن أباك لم يمت من جراء المرض ، وسوف يبدو مظهره مختلفاً ، فتجلدي ! » . كررت هذا التحذير مرات عديدة ، ومضت بي خلسة لأراه . بل إنك لتشعر بالانزعاج لمجرد سماعك بالأمر ، على الرغم من أن صلة الدم لا تربطك به . لشد ما كان الأمر مريراً بالنسبة لي ! مضت بي مربيتي ، في عماء الليل ، وكنا وحيدتين داخل المصاريع الخيزرانية لقاعة الاستقبال ، حيث سجي جثمانه . رأيت وجه أبي المسكين ، تحت ضوء المصباح ، الذي أمسكته مربيتي لي ، فارتج عليّ ، ما كان بوسعي إلا أن أدفع بوجهي إلى صدرها ، وجسمي يرتعش .

وإذا اكتسبها تعاطف تيروكاتسو وإخلاصه ، راحت تصب مشاعرها الدفينة صباً .

تواصل كشفها عن مشاعرها طويلاً ، ولكنها ربما لم ترفع النقاب عنها جميعها في لقائهما الأول ، ويبدو من المحتمل أنهما التقيا في الموضع ذاته بصورة دورية على امتداد اليومين أو الأيام الثلاثة التي

أعقبت ذلك ، وأن قصتها تكاملت في بروزها ، فيما هما يتبادلان الحديث . وبحسب ما جاء في الصورة التي رسمها كتاب : « اعترافات دوامي » ، فقد كانت هناك غرفة أمامية بين غرفة المرحاض والدهليز ، وباب خشب عند كل فاصل ، بحيث لا يُسمع في الخارج الحوار الذي يدور داخل الغرفة . وبالطبع ، كانت وصيفة تقف في الغرفة الأمامية أو الدهليز الذي يليها ، وكانت على الدوام هارو ، الأخت الصغرى لماتوبا زوشين ، هي التي ترافق الأميرة في ذهابها إلى المرحاض ، ولربما تذكرون أن مربية الأميرة ، كانت أم ماتوبا زوشين ، وعندما تزوجت الأميرة من سليل آل تسوكوما ، أحضرت معها مربيتها وهارو .

ومع أطراد مسيرة القصة ، ستعرفون إحدى خصائص الأمير موساشي ، فأيا كان مدى استشارته وانغماسه البادي في شهوته الشاذة ، إلا أن ميلاً غريباً وغريزياً للحفاظ على الذات يمور على الدوام في قرارة ضميره ، وعلاوة على ذلك ، فإنه إذ واكب حسن الحظ وقاد خطاه ، على نحو متواصل ، فإنه في بعض الأحيان يستخدم كل شيء ، بما في ذلك نقطة ضعفه ، كوسيلة للقضاء على أعدائه . وفي نهاية المطاف ، فإن اللذة المازوكية هي شكل من أشكال اللذة ، وبالتالي فإنها تتضمن بوضوح عنصراً من عناصر الاهتمام بالذات ، ولكن هناك على الدوام الخطر المتمثل في أن شخصاً مصاباً بهذا الارتكاس سيمضي إلى أبعد مما ينبغي ، فيحل الدمار بساحته . غير أن أمير موساشي ، حتى وهو ينطلق وراء لذته المكنونة الفريدة ، كان قادراً على التوغل على نحو مباشر في الأراضي المحيطة به وتوسيع نطاق الأراضي التي يحكمها ، وفي بعض الأحيان ، ينغمس حتى الأذان ، فيجذب حتى حافة الكارثة ، لكنه لا ينسى أبداً أن يجتذب نفسه بعيداً ، قبل أن يخطو الخطوة

الأخيرة ، التي تقوده إلى دماره . والعملية التي من خلالها فاز بالخطوة لدى الأميرة كيكيو ، بنسيج بليغ من الحقائق والأكاذيب ، هي تجسيد لهذه الخاصية . ويبدو من المشكوك فيه ، إلى حد بعيد ، أن الجسم الذي قدمه لها هو « تذكّار من الأمير ماساتاكّا » في لقائهما الأول كان بالفعل أنف ياكوشيجي دانجو ماساتاكّا ، على الإطلاق ، فحتى لو أن الصبي هو شيمارو ذا الاثني عشر ربيعاً استطاع الحفاظ على أنف ماساتاكّا ، فإنه ما كان بمقدوره أن يتنبأ مسبقاً بما يقع الآن ، وهكذا فإنه من غير المتصور أنه قد احتفظ بقطعة اللحم تلك لمدة ست سنوات . ولربما هذا تيروكا تسو الحاذق حذو مونجاكو ، ذلك الكاهن المنتمي إلى القرن الثاني عشر ، الذي التقط بصورة عشوائية جمجمة ، وقدمها ليوريتومو باعتبارها جمجمة أبيه يوسيتومو . وربما قام تيروكاتسو بقطع أنف إحدى الجثث المتناثرة غير بعيد عن القلعة ، واستخدمها كأداة لتأجيج كراهية وعداء الأميرة كيكيو لزوجها وعشيرته . وفيما يتعلق بجمجمة ، فإنه لا فارق بين جمجمة أحد غمار الناس وجمجمة يوشيتومو . وبالمثل ، فما من أحد يمكنه القول بما إذا كانت قطعة من أنف قد اجثت من جنرال أو من جندي عادي . وفي حقيقة الأمر ، فيما أنه حفظ قطعة اللحم في الحبر الأحمر ، فإنها قد لا تكون أنفاً على الإطلاق ، فكل كتلة لينة لها الشكل الخارجي ذاته ، على وجه التقريب ، ستؤدي الغرض منها . ولكنه سيكون من قبيل الفجاجة أن ندلي بالمزيد من التكهنات عما يمكن أن تكون عليه تلك القطعة المحفوظة في الحق . فلنكتفِ إذن بالقول بأنه حتى رجل في مكانة يوريتومو قد خال عليه الأمر ، حينما قدّم له تذكّار من أبيه . فالأمر يعود إلى الطبيعة البشرية وحدها ، وهكذا فليس من العجيب أن الأميرة كيكيو خضعت لرقية سحرية ، عندما رأت الكيس الغامض المقصب بالذهب .

ويختلف كتابا « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » في آرائهما في الأميرة كيكيو ، على نحو ما قلت ، ولكن فيما يتعلق بدوافعها للإعداد للتمثيل بزوجها فإن الصورة الواردة في « حلم ليلة » تبدو طبيعية وعميقة الغور . وبحسب ما جاء في هذه الصورة ، فإن الأميرة بعد اصطحاب مربيتها لها لرؤية ماساتاك ، تألق وجهه مبتور الأنف أمام عينيها ، ليلة بعد الأخرى ، وعذبتها رؤية استحواذية قاسية لأبيها ، ولما يدركه الموت كل الإدراك في العالم الآخر . وبتعبير آخر ، فقد اعتقدت أن أباه الصريع يهيم في الفراغ ، عاجزاً عن تحقيق رغبته في رحيل سلس إلى عالم الخلود ؛ لأنه فقد أنفه . وبالنسبة لها كان هذا مصدراً لحزن لا يطاق على وجه التقريب ، فبعد موته المأساوي ينبغي ، على الأقل ، أن يولد من جديد في « الأرض الغريبة الطاهرة » ، ولكنه بعيد كل البعد عن هذا ؛ لأنه لا يزال يشعر بارتباط متأجج بهذا العالم ، حيث خلف شيئاً ثميناً وراءه ؛ ومن هنا فلا سبيل أمامه لأن يرقد في سلام . ولم يهدأ لها بال حيال فكرة أن أباه المسكين لم يقتل غيلة فحسب ، وإنما أرغم على احتمال هذا العذاب . وفي كل ليلة راح يتراءى لها في أحلامها إلى جوار وسادتها ، ضاغطاً بكفه على منتصف وجهه . وكان بمقدورها سماعه يصرخ مراراً وتكراراً : « أريد أنفي . . . أعيدي إليّ أنفي رجاءً ! » . وخلاصة القول إنها ما كانت لتغفو هادئة ، إلا بعد أن تعثر بشكل ما على أنف أبيها ، وتمحو وجه الموت الرهيب هذا من ذاكرتها . قالت لتيروكاتسو :

- ألقيت باللوم على مربيتي ؛ فمهما كان مدى إلحاحي عليها ، إلا أنها لم يكن ينبغي لها أبداً أن تدعني أراه ، في الوقت الذي بذل فيه أخي وأمي قصارى جهدهما للحيلولة دون ذلك ، لربما كانت وفرت عليّ كل هذا العذاب .

حقاً ، كان من قبيل الحمق من المربية أن تدع فتاة في الثالثة عشرة من عمرها تقع عيناها على مثل هذا الشيء . ويبدو حزن الأميرة منطقياً ومؤثراً في آن . لكنها رأتها ، ولا مهرب من هذه الحقيقة ؛ ولذا فإنها ستعثر له على أنفه ، لكن تلك كانت مهمة مستحيلة ، ثم أتاحت لها المصالحة بين عشيرتي ياكوشيجي وتسوكوما وزواجها من نوريشيجي ، على صورة غير متوقعة ، فرصة منح العزاء لروح أبيها ، والتخفيف مما تشعر به هي من عذاب .

كان أخوها ماساهايد قد استحثها على القبول بالزواج ، قائلاً : « لقد مات أبي من جراء المرض ، كما تعلمين ؛ ومن هنا فليس هناك سبب يدعونا لأن نكنّ الضغائن لعائلة تسوكوما . دعينا لا نسيء فهم هذه النقطة ! » . وفي ضوء وضع المرأة ، في ذلك العهد ، لم يكن لها الحق في الاعتراض على زواج سياسي رتبته كبير العائلة ، وخاصة في ضوء تأييد الحكومة العسكرية لهذا الزواج . وهكذا ، من أجل عائلتها ووطنها ما كان يمكن إلا أن تضحي بنفسها ، وتخضع بصورة عمياء للقرارات ، التي أملت عليها . ورغم ذلك ، فقد كانت تعتقد أن أخاها قد افتقر للروح الحقيقية ، بإظهاره هذا القدر الضئيل من الغضب والرفض حيال مصرع أبيهما . وكان ماساهايد يميل إلى تسوية الأمور ، على نحو ودي ، ففي نهاية المطاف لم يكن هناك أحد على يقين من هوية قاتل ماساتاك ، ومن شأن الإعلان عن الأمر ألا يكون شيئاً مشرفاً لذكرى أبيهما ، لكنها لم تكن تؤمن بصحة تقدير أخيها . وفي حقيقة الأمر أن ماساهايد كان أكثر وهناً وتخاذلاً مما كان أبوه ماساتاك ، ولم ينقض وقت طويل إلا وقام أحد رجال الحاشية ، ويدعى بابا ، بالسيطرة على منطقته ، فعاش ماساهايد مكللاً بالعار ، بعد فقدته السيطرة على عشيرته وأملاكه ، وراح يضرب

ضائعاً في طول البلاد وعرضها . وعلى الرغم من أن الأميرة كيكيو تظاهرت بأنها لا علم لها بملاسات مصرع أبيها ، إلا أنها كانت لها أفكارها حول هذا الموضوع ، التي تختلف تماماً عن أفكار أخيها ، وكانت على يقين منذ اللحظة التي رأت فيها وجه أبيها ، الذي وسمه الموت بميسمه ، أنه لقي مصرعه في إطار مكيدة كادها الأعداء ، فقد قتل ، في نهاية المطاف ، في معسكر خلال حرب ، وتدل حقيقة أن قاتله انتزع أنفه بدلاً من رأسه ببلاغة ، تفوق أي شيء آخر ، على أن العمل كان من تنفيذ عميل للعدو ، أما النظر إليه باعتباره من عمل لص أو نتيجة لضغينة شخصية فلا يعدو أن يكون رفضاً متخاذلاً لمواجهة الحقائق . وكانت على يقين من أنها على صواب ، لكنها عندما أدركت أن باقي العشيرة وأمها وأخاها وكبار رجال الحاشية لم يأخذوا الأمر بجدية ، اعتقدت أن أباهما لن يعرف السلام أبداً ، فازدادت غماً على غم . ولبعض الوقت ، عذبها البحث عن سبل لإبعاد ذهنها عن هذا الشعور الشديد بالحزن ، ثم خطر ببالها فجأة أن تستغل زواجها من سليل عشيرة تسوكوما ، وأن تدفع بايكانساي وولده إلى المصير ذاته الذي حاق بأبيها .

قالت إن مرأى الأنوف المقبولة على وجهي حميها إيكانساي وزوجها نوريشيجي ملأ نفسها بالإشفاق على أبيها ، وربما أغضبها أن ترى أنفاً في وجه أي شخص ، ولا بد أن حقيقة كونها تحظى بوجود أنف في وجهها قد قرّعت ضميرها ، وربما اعتقدت أنه لا سبيل إلى تخليص أبيها من بؤسه تماماً إلا إذا فقد البشر كافة في الدنيا بأسرها أنوفهم . كانت عروساً في الخامسة عشرة من عمرها ، في ذلك الوقت ، ليس لها من العمر ولا من التجربة ما يجعلها تتطلع إلى شيء طموح ، كالقضاء على عشيرة تسوكوما ، ومن هنا فإن

الخطبة التي وضعتها كانت بسيطة وصبيانية ، إلى حد كبير . وخلاصة القول إنها قد هيمنت عليها فكرة أن شبح أبيها سينسى غضبه ، وإنها ستتخلص من حزنها إذا أطاحت بأنف حميها أو زوجها ، بدلاً من كل البشر في الدنيا ؛ وبناء على ذلك فإن هدفها المباشر تمثّل في أنفيهما ، وليس في حياتيهما ، أما إذا فقد ضحيتها حياته ، جنباً إلى جنب مع أنفه ، فليكن ما يكون ، لكنها تؤثر أن تدعه يحيا لبعض الوقت دون أنفه ؛ ليكون بمقدورها تأكيد بؤسه وتملّيه وعرضه على الملأ ، يسخر الناس منه . ذلك هو أساس التصور الذي تم التعبير عنه في كتاب « اعترافات دوامي » ، والقائل بأنها كانت سادية بفطرتها . ولكن كتاب « حلم ليلة » يقول إنها أدلت بالاعتراف التالي لتيروكاتسو :

« قالت الأميرة كيكيو ، والدمع يتخلل حديثها : أهنأك في الدنيا من ساء طالعه مثلي ؛ فعلى الرغم من أنني ابنة عدوّه ، إلا أنه زوجي ، ولست أحمل كراهية له . أيّ رابطة بحياة سابقة تلك التي دفعتني إلى التخطيط لهذا الانتقام الرهيب ؟! على أي حال ، فإنني على يقين من أنني سأبعث في الجحيم ، ذلك أنني سمعت أن النساء مخلوقات خاطئة . ولكن فلتكن الآلهة وبودا شهودي على أن هذا الانتقام يمضي قدماً ، خلافاً لما أكنه في قرارة قلبي ، ويستمد إلهامه من ذلك الوهم المتعلق بأبي القابع في صدري ، والذي لا يفتأ يوسوس لي » .

ما كان يمكن إلا بتثبيت وجه إيكانساي أو نوريشيجي المجرد من الأنف أمام عينيها ، حتى تشعر بالرضا تماماً ، وليس بمجرد قتله ، أن تستطيع إزاحة الكابوس الرهيب ، الذي يطاردها في رقابها كل ليلة . ويوضح سلوكها بعد سقوط عشيرة تسوكوما أنها ليست

المرأة التي تستمتع بتشويه زوجها ، دونما سبب . لقد قالت لنفسها :
« على الرغم من أنني ابنة عدوّه ، إلا أنه زوجي » ويبدو أنه صحيح أنها
في أعماق قلبها كانت تحب زوجها ، الذي مثلت به ، وتشفق عليه ؛
من هنا فإن حياتها يمكن النظر إليها باعتبارها صراعاً لا ينتهي لمحو
ذكرى وجه أبيها الميت ، وهي الغاية التي ضحت على مذبحتها
بزوجها وطفليها وبنفسها .

كانت مربية الأميرة كيكيو ، زوجة ماتوبا سايمون ، وتدعى كايدي ،
هي أول من علم بخططها . ولا شك أن كايدي صعقت ، عندما
كشفت لها الأميرة عن مخططها ، لكنها كانت مسؤولة عن عرض وجه
أبيها الميت عليها ، في المقام الأول ، ولم تستطع الاحتجاج بحدة
بالغة على هذا التطور الجديد . ومع مرور الوقت ، أصبحت تتعاطف
مع سيدتها ، واجتذبت إلى المؤامرة . ويبدو أن زوجها ماتوبا
سايمون لم يكن ضالعا في الأمر ، وقد توفي لأسباب طبيعية ، في
وقت زفاف الأميرة كيكيو . وهكذا فإن الأرملة كايدي صحبت ابنتها
هارو ، ومضت إلى جبل أوجيكا ، لتكون وصيفة العروس ، ثم
تدريجياً دفعت بأبنائها إلى المشاركة في المؤامرة . والتفاصيل ليست
معروفة ، ولكن من المؤكد أن كايدي وابنتها هارو في الداخل وابنها
ماتوبا زوشو في الخارج تأمروا معاً للمساعدة في تحقيق انتقام الأميرة
كيكيو . وفي البداية ، عكف زوشو على محاولة الإطاحة بأنف
إيكانساي ، ثم حينما لم يوفق في هذا ، سعى للإطاحة بأنف
نوريشيغي ، في معركة قلعة تسوكيجاتا ، حيث قضى عليه
تيروكاتسو ، في نهاية المطاف ، دون أن يتحقق أي من الهدفين .
من الذي شرم شفة نوريشيغي في حديقة القلعة وأطاح بأذنه ؟ يسجل
كتاب « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » أن زوشوله أخ أصغر يدعى

ماتوبا داييسوكي حذا حذوه . وبالتواطؤ مع أمه كايدي ، تم حمله ، مع حفار متخصص في حفر الخنادق ، إلى داخل القصر ، في صندوق ضخمة . ومن غير الواضح ما الذي حل بهما . وقد نفترض أن الحفار ، بعد أن فرغ من النفق ، الذي اكتشفه تيروكاتسو ، قد قتل ، وألقيت جثته في قاع النفق الرأسي ، فامتصته الأرض إلى الأبد مع فضلات الأميرة . ما الذي جرى لدايسوكي ؟ ربما استحبال عليه ، بالنظر إلى المراقبة الصارمة بعد حادثة حفل مشاهدة تفتح الكرز ، أن يختبئ من جديد في الصندوق الضخم ويلوذ بالهرب دون لفت الأنظار . والأمر على العكس من ذلك ؛ إذ يقال لنا إنه منذ الحادثة الأولى وحتى الحادثة الثانية ، وخلال الأشهر الأربعة التي انقضت بين شرم شفة نوريشيجي وبتراذنه ، كان داييسوكي يرقد ملتفًا حول نفسه داخل تجويف يشبه الكهف ، حفر خصيصاً قرب قمة النفق الرأسي . ولم يضع قدمه قط خارج عالمه المظلم ذاك ، الذي عاش فيه على كرات الأرض ، التي قدمتها له الأميرة وأمه . ومنذ أقدم العصور ، كانت هناك أمثلة عديدة لرجال ضحوا بأنفسهم من أجل سادتهم أو آبائهم أو إخوتهم ، ولكن من المستحيل وجود كثيرين تحملوا الشدائد التي اجتازها داييسوكي ، وهو معزول طوال أربعة أشهر تحت مرحاض . ويتعين على القارئ ألا يخلط بين سلوك داييسوكي وبين السلوك المخزي لشخص منحرف أو مجنون جنسياً ، فقد كان دافعه هو الولاء الصريح للأميرة والوفاء لأمه . ولربما عندما أدرك هذا الشاب المخلص الشجاع أنه قد حقق مهمته بقدر ما يستطيع ، ارتدى على سيفه ، ودفع بجسمه إلى رحاب الظلام ذاته ، الذي تلقى الحفار ، وغاص في قبره . وبما أن تيروكاتسو لم يلتق به ، حينما عبر النفق ، فلا بد أنه كان قد انتحر بالفعل .

ولكن ما الذي فعلته الأميرة كيكيو مع تيروكاتسو ، ذلك

المحارب الشاب ، غريب الأطوار ، الذي عرض عليها أن يخدمها بدلاً من دايسوكي ؟ إن الساموراي لا يشارك فرسان الغرب في مفهومهم عن الفروسية ، الذي يحترم الرجل بمقتضاه امرأة أرسقراطية ، ويعتبر أنه شرف له أن يضحي بحياته من أجلها . وهكذا ، فإنه بينما كان من الطبيعي بالنسبة للأميرة كيكيو أن تتآمر للانتقام من حميها وزوجها ، لم يكن هناك سبب يدفع تيروكاتسو لمشاركتها فيما هي عاكفة عليه . وقد يعزى إلى طيبة القلب والأريحية تعاطفه مع أبيها ، وحنقه حيال حيلة إيكانساي الخسيسة ، التي لا تليق بساموراي ، مما دفعه إلى المحافظة على الأنف وتسليمه لها . وكان بمقدورها أن تتقبل هذا القدر بامتنان . ولكن عرضه القيام بمساعدتها ، في تحقيق انتقامها ، الذي لم يكتمل ، كان يتجاوز بوضوح حدود الأريحية وطيبة القلب ، وما كان بمقدور الأميرة كيكيو أن تعلم بأن ما يحركه لا يعدو أن يكون رغبات مرتكسة يضطرم بها صدره ، ولا بد أنها اقتنعت بوجود اعتبار آخر ، من قبيل حمله لضغينة شخصية ضد عشيرة تسوكوما ، أو أنه يشعر بالتزام قوي نحوها ، بحيث يدير ظهره لما هو مدين به من امتنان لهذه العشيرة . وقد أفضى بها هذا التفكير إلى استخلاص أنه لا يتعين عليها أن تثق به تَوّاً ، وأنه رغم أن تعاطفه اجتذبها ، لبعض الوقت ، عندما دفع إليها بذلك « التذكار » المغشوش من أبيها ، فإن تطوراً ممتداً لا بد قد أفضى بها إلى قرار الثقة به ، وأن تعهد إليه بشيء هام كالأخذ بثأرها . ويلمح كتاب « حوليات حرب تسوكوما » إلى اتصال سري بين الأميرة كيكيو وتيروكاتسو ، ويذهب ضمناً إلى أن حبهما قد نما ، فغدا تآمرأ . لكن تيروكاتسو لم يكن ، الرجل الذي يظهر عشقاً زائفاً لامرأة ليحظى بثقتها ، كما أنه ليس هناك أي سبب يدعو إلى افتراض أنه كان بارعاً على نحو خاص في فن الإغواء . وربما كان صحيحاً

أن هناك اتصالاً بينهما ، إلا أنه يبدو من المحتمل أنه تطور فيما بعد ، حينما أصبحت علاقتهما حميمة تدريجياً في غمار مناقشتها لكيفية الإيقاع بعشيرة تسوكوما والقضاء عليها . وبتعبير آخر ، فقد جاءت المؤامرة أولاً ، ثم أعقبتها العلاقة الجسدية ، وبوسعنا أن نفترض أنهما لم يمارسا هذه العلاقة على نحو متواتر .

وأغلب الظن أن الأميرة كيكيو خلصت إلى القول بأن عرض تيروكاتسو البالغ الكرم وقفت وراءه مخططات لاقتناص مقاطعة تسوكوما . وكان نوريشيجي رجلاً متواضع القدرات من منظور تيروكاتسو ، الذي لم يكن تابعاً للتسوكو بالوراثة ، وكان تطلعه إلى مثل هذا الطموح أمراً يتفق مع ما هو طبيعي بالنسبة لبطل من أبطال عصر الحروب الأهلية ذاك ، وليس بالأمر المثير للدهشة أن يسعى لاستغلال استشارة حفيظة الأميرة لدعم طموحه . ولا بد أنها قد أدركت أن زوجها سيعاني صعوبات جمة في إحكام قبضته على مقاطعته ومقارعة تلك الأزمات الحبلية بالخطوب . وربما قررت أن أسلم سبيل ، لضمان استمرار عشيرة تسوكوما ، هو تأييد مخططات تيروكاتسو وتسخيره في الأخذ بثأرها ، حتى ولو قام باستغلالها ، وبإثارة تعاطف تيروكاتسو لضمان سلامة طفلها ، بعد موت نوريشيجي . وليس من الواضح بأي قدرٍ من الصراحة ناقشت مع تيروكاتسو مصالحهما المشتركة ، ولكنها ربما فسرت رغبته في أن يكون « حليفها » في ضوء هذا ، بينما أخفى هو دوافعه ، وتركها تعتقد ما ترغب في الاعتقاد به ، وهكذا توصلا إلى تفاهم صريح . ولئن صح هذا لكان طموح تيروكاتسو هو الذي دفع بالأميرة كيكيو إلى التآمر للإطاحة بعشيرة تسوكوما ، ذلك أنها كانت ستكتفي بمجرد بتر أنف نوريشيجي ، وبالمقابل ، فإنه بعد قيام تيروكاتسو بإشباع رغبته

الجنسية الغربية ، نما طموحه المصطنع ، فغدا شيئاً حقيقياً . وقبل أن يدرك حقيقة الأمر كان اهتمامه بذاته وحصافته وشجاعته ، كل ذلك يتحرك بهدوء بالغ لاقتناص الفرصة لسحق آل تسوكوما .

وفيه يفقد نوريشيجي أنفه، وحديث حول

قصيدة «قربة البراعم المتساقطة»

من كتاب جينجي

لم يدرك نوريشيجي أن اتفاقاً سرياً قد أبرم بين زوجته الحبيبة وأحد أتباعه ، فواصل زيارته الليلية إلى مخدع الأميرة ، حيث يغمغم بمداهناته غير المفهومة عبر شرمه ، وإذا كان شخصاً مدلاً ومتفائلاً ، فإنه لم يستطع ، فيما يبدو ، الحيلولة دون شعوره بالكرب حيال شفته المشقوقة وأذنه المبتورة ، ذلك أن كتاب « حوليات حرب تسوكوما » يسجل أنه : « شعر بأنه ليس على ما يرام ، فمال منذ ذلك الوقت إلى الاعتكاف في غرفته الخاصة » . غير أنه كلما طال اعتكافه بقي أكثر إلى جوار زوجته . ففي حضور الأتباع والوصيفات كان واعياً بذاته ، فيما يتعلق بوجهه ، ومن الطبيعي أنه تردى إلى وهدة الفكاهة السوداء . لكن حينما كان يلج الغرفة المكنونة ، المضاءة بنور خافت ينبعث من مصباح ، ويرى ابتسامة الأميرة الفاتنة ، فإنه يغدو قادراً على نسيان الأذن المفقودة والشفة المشرومة ، في غمار نشوته . وبما أن الرجال من أمثاله ليسوا مؤهلين من الناحية المزاجية لأن يكونوا من سادة الحرب بحال ، فقد أحب بمزيد من الارتياح ، عندما ترك إدارة المقاطعة لكبار الأتباع ، وهكذا اعتكف في القصر الداخلي ، مستغلاً جروحه كذريعة للقيام بذلك . ولربما بدا مكتئباً ، ولكن لعله لم يأخذ النكبات التي حلت به مأخذ الجد تماماً ، في نهاية المطاف .

وعلى هذا النحو انقضى الشهر الثامن . وكان الشهر التاسع ، عادة ، هو المناسبة التي يقام خلالها حفل مشاهدة القمر ، مهرجان الأقحوان ، ومشاهدة أوراق الأشجار ، ولكن في هذا العام أحجم القائمون على أمر المقاطعة عن إقامة حفلات ترفيهية ممتدة ، سواء أفتحت للجمهور أو تمت في خلوات للخاصة ، وذلك بسبب عدم ميل الأمير إلى ذلك ، فأقيمت الاحتفالات في أبسط شكل ممكن لها . وعلى أي حال ، فقد كان آخر الخريف على جبل أوجيكا وقتاً مؤثراً في النفس ، إلى أعماق حد ، حيث تتردد خشخشة الأوراق المتساقطة ، وزفيف هبات الريح ، التي تجلب زخات المطر الخريفي المنهمرة . لف الصمت القصر الداخلي . وفي الليل ، راحت الريح تدمدم عبر نجيل الحديقة ، على نحو ينذر بالشؤم . وفي البعيد ، تردد بين الفينة والأخرى صدى صيحة غزال أو ثعلب في الوادي . وكان نوريشيجي من قبل مولعاً بجمع الوصيفات الشابات للرقص والعزف على الكوتو، وكان حرياً به أن يقوم بذلك الآن ليعث المرح في نفسه ، ولكن مؤخراً كان أفضل ما يستطيع القيام به هو الجلوس في هدوء مع زوجته وهما يتبادلان أقداح الساكي ، وتجنب ألوان الترفيه ذات الطابع الاحتفالي كلية . ويرجع ذلك ، في أحد جوانبه ، إلى تجربته المريرة في حفل مشاهدة ازدهار الكرز ، في ذلك الربيع ، ولكن كان هناك سبب آخر كذلك . فقد كان فخوراً بصوته ، وأبدى على الدوام استعداداً لغناء قصيدة بطولية ، أما الآن وقد اختل نطقه ، وراح نفسه يصفر بين شفثيه ، فقد كان شعور بالغيرة والأسى يجتاحه عندما يغني أي شخص آخر ؛ وهكذا لم يعد له اهتمام بإقامة الحفلات الموسيقية .

أرخى مساء أحد أيام منتصف الشهر التاسع سدوله . كان مطر

خريفي قد شرع في التساقط في أواخر الأصيل ، واستمر موغلاً في الليل ، فيما القطرات الرقيقة تنساب هادئة في أحضان الأرض . كان وقع قطرات المطر المناسبة على الطنف كافياً لدفع المرء إلى رحاب أحلام يقظة سوداوية . وكان نوريشيجي في مخدع زوجته ، منذ صدر المساء ، يبادلها أقذاح الساكي في ودة ، بينما أوهارو تقف في خدمتهما . وارتشاف الخمر مع المحبوب ، فيما صوت المطر يتناهى ، أمر من شأنه أن يدفع الحبور في نفس أي إنسان ، ولكن في هذا المساء احتسى نوريشيجي من الساكي أكثر بكثير مما يتناوله عادة وكان في حالة استثنائية من المرح . وبين الفينة والأخرى كان يناول القدح لزوجته ويقول : « هاك ، ألا تشربين المزيد ؟ » . وفيما هو يتسم على استحياء متطلعاً إلى الملمح الجانبى لوجهها ، راحت عيناه الباسمتان تشفان عن رجل سمح بطبيعته ، يمتزج بجانب يسير من طفل مدلل . ومع ذلك ، فقد تناهت الكلمات بحسب نطقه لها على هذا النحو : « هاك ، ألا تشربين المزيد ؟ » . لكنه لم يعد يكثر بهذا . حقاً إنه كان في السابق قد اعتاد الحديث ، على نحو جليل ، في المناسبات الرسمية ، للحفاظ على هيئته باعتباره ديميو ، ولكن منذ شقت شفته أصبح يتحدث مستحياً ، وهكذا فإنه حتى فيما هو مسترخ الآن تماماً ، فإن صوته يمكن أن يتردد حيناً واهناً ، كأنه طنين بعوضة . وربما كان السبب في أنه غدا حياً لدى تطلعه إلى محياً زوجته هو أنه في قرارة نفسه استشعر حرجاً من أن يكون واقعاً في هواها بمثل هذا اليأس ، ولكن ربما تمثل سبب آخر في أنه كان مدركاً لكونه « معوقاً » ، وقد انعكس هذا الإدراك في تصرفاته . وعلى أي حال ، فقد كان قبل تشوّهه من النوع المختال ، اللامبالي ، الذي لا يعرف التهيب ولا الوجل .

بدت الأميرة كيكيو ، وهي ترتشف الساكي من قدها ، وكأنها تصغي إلى المطر المنساب في الحديقة .

قالت ، متجهمة :

- اصغ إلى هذا ! يبدو أن المطر لا يزال يهطل .

- إنه كذلك ، لكنه ينساب برقة ، مطر بهيج . أليس كذلك ؟

- بلى ، وعلى ذكر ما أشرت إليه ، فإن هذا المساء يبدو خريفيًا

حقاً . ولكنني أحس بالوحدة والاكئاب في الأمسيات التي تنتمي إلى هذا النوع .

- لسبب ما ، يبدو مذاق الساكي لطيفاً هذا المساء ، وصوت

المطر يدعو للاسترخاء .

- إنني سعيدة ، فلا شيء يدخل السرور على قلبي قدر رؤيتك

في مزاج رائع .

- لم لا تكتبين قصيدة عن المزاج السائد في هذا المساء

الخريفي ؟

لم يكن مثل هذا الطلب المفاجيء من طبع نوريشيجي ، ولكنه

كان قد بدأ مؤخراً في الاستعانة بوسائل لقضاء الوقت تجنباً للضجر ،

وعكف على تعلم نظم الشعر من زوجته . وكانت بطبيعتها بارعة في

نظم الشعر الياباني ، وغيره من فنون البلاط ، حيث أن أمها كانت

ابنة سيدة من سيدات البلاط ، كما أنها نشأت في رحاب العاصمة .

وبمساعدها تعلم نوريشيجي نظم واحد وثلاثين مقطعاً ، في إطار ما

يشبه القصيدة ، وسرعان ما يصيح : « لم لا تنظم قصيدة ؟ » إذا ما

أتى أحد شيئاً حتى ولو كان إسقاط عصا من عصي تناول الطعام .

ويبدو أن الأميرة كانت قد توقعت هذا الطلب مسبقاً ، فأمرت

أوهارو بإحضار ورقة وصندوق كتابة . تصاعدت رائحة طيبة من

الحبر ، فيما أوهارو تضعه على الأرض . أمسكت الأميرة بورقة ثقيلة

مستطيلة في إحدى يديها ، ودنت من المصباح ، وكتبت مسرعة قصيدة بخط جميل . ولئن شئنا ذكر الحقيقة ، لقلنا إن نوريشيجي لم يكن مهتماً بمستوى القصائد ، وإنما كان يحب أن يرى التعبير المرتسم على محيا زوجته ، عندما تنحني إلى الأمام ، في ضوء المصباح ، غارقة في التفكير ، فيما هي تنظم المقاطع التي تناسب صامته إلى شفيتها ، ذلك أنه بدا له أنها تغدو في أجمل هيئة لها وأكثرها نبلاً ، عندما تنشغل على هذا النحو . وفيما هو يحدق بشغف بأنفها الدقيق وشفيتها ، وقد اكتسى جانبهما بالظلال والآخر بنور المصباح ، على نحو يموج بالحياة ، اعتاد أن يحدث نفسه قائلاً : لقد عرفت نساء كثيرات ، ولكن السيدة ذات التربية الرفيعة شيء له خصوصيته ، ويتنهد في إعجاب ، أو يتسم ، كأنما دفق من البهجة يندفع عبر أعماقه . والليلة ، بصفة خاصة ، أضاف توهج خدي الأميرة كيكيو ، اللذين عادة ما يكسوهما بياض يحاكي بياض الورقة الرسمية التي تمسك بها ، بهجة لا توصف إلى ملامحها الكلاسيكية الدقيقة . ولو أن تيروكاتسو اختلس النظر إلى هذا المشهد فأَي انطباع سيتركه في نفسه ؟ في منتصف الغرفة الباردة ، الرحبة ، ذات السقف المرتفع ، كانت هناك ستارة من النوع الذي يطوى . وطرده لهب مصباح واحد ظلمة الليل ، التي أطبقت من كل جانب ، وداخل حلقة الضوء تلك ، التي كانت بمثابة قطرة زيت في بركة ماء ، جلس ثلاثة أشخاص ، وقد تمايزت أشكالهم ، فقد راحت الأميرة تمسك بريشتها الورقة في صمت ، فيما تابعتها تمسك بالحبر ، وبين الحين والآخر يرتشف الأمير ، وقد أفعمته البهجة ، الساكي من حافة قدحه . وممسكاً بالورقة التي أرتها إياها زوجته ، راح يقرأ قصيدتها ، ولكن صوته ابتلعه أركان الغرفة المظلمة ، وكان من المستحيل تبين ما قاله . ارتمى ظل رأسه ، وقد عُقص شعره إلى

الخلف على هيئة مخفقة شاي ، وغابت إحدى أذنيه ، على الستارة مكبراً . وفي هذا الضوء بدا شرمه هوة صغيرة كأنها الكهف ، فأفعم صدر الأميرة بنسمة رهيبة ، فيما لاح جمالها الشيطاني ، على نحو منذر بالويلات ، وكأنه ينتمي إلى عالم آخر . وفي الخارج ، راح المطر الذي ساقته الرياح يهمي ، على صورة تنذر بالشر ، في الليل الموغل مسرعاً في مسيرته ، ومن المؤكد أن تأثير هذا المشهد ما كان ليقل غرابة عن تأثير تمشيط شعر الرؤوس في العلية .

بعد قيام الأميرة كيكيو بنظم قصيدتين أو ثلاث ، أفلح نوريشيجي في نظم إحدى قصائده ببعض الصعوبة ، مفصحاً بذلك عن مدى التقدم الذي أحرزه . وفيما كل منهما يشيد بمهارة الآخر ، وصلت ألوان الترفيه التي تخللت ذلك المساء إلى خاتمة رائعة . وتجاوزت الساعة العاشرة ، فيما هما يدلفان إلى الفراش . راح نوريشيجي لبعض الوقت يتحسس زوجته برقة مداعباً ، على نحو ما يفعل في كل ليلة ، لكنه أحس بآثار معاقرة الساكي دون تناول شيء ، اللهم إلا الشعر ، وتفاقم إزعاجه وتلهفه ، فيما هو يسلم نفسه لموجات النشوة . وفي نهاية المطاف ، كان يغرق في النوم دائماً ، كأنما فارقت روحه جسده ، ولكنه يفيق بعد عدة ساعات ، فيمضي لقضاء حاجته . وقد نهض الليلة كذلك لدى انتصاف الليل ، حريصاً على عدم إقلاق زوجته ، ومضى في هدوء إلى الغرفة الأمامية ، حيث كانت أوهارو في خدمتهما . أشعلت له مصباحاً يدوياً ، ومضت أمامه إلى الدهليز . كان مرحاضه في الاتجاه المضاد لاتجاه مرحاض الأميرة ، على بعد حوالي ثلاثين قدماً ، تقطع عبر ممر طويل ، ثم انعطافة إلى اليسار ، وأخرى إلى اليمين ، تفضي إلى ممشي ، كسيت أرضيته بالحصير ، يمتد حوالي عشرة أو خمسة عشر قدماً .

وكانت تلك هي أشد البقاع ظلاماً ، حيث يوجد سور على أحد الجانبين وأبواب منزلة تواجه الحديقة على الجانب الآخر . عندما سار نوريشيجي حتى بلغ هذا الحد مترنحاً ، وهو لا يزال يحس بالدوار والخمار ، الذي أحدثه الساكي واللذة الأخرى ، استطاع سماع الانهمار المتواصل للمطر ، على الألواح الخشبية في الشرفة ، وراء الأبواب مباشرة .

غمغم ، محدثاً نفسه ، كأنما هو يتحدث في نومه :

- لم تقلع السماء بعد ، لا تزال تهمني .

- نعم يا مولاي ، إنه مطر يبعث الكآبة في النفس .

قالتها أوهارو ، ثم تجمدت في موضعها ، أضافت :

- خذ حذرك يا مولاي ، وانظر ، رجاء ، لقدمك موضعها !

حولت الضوء نحو قدميه المتقلقلتين . وعندئذ ، على وجه الدقة ، في غمار الظلمة التي عمت كل ما خلفها ، اندفعت هبة ريح عاتية ، كأنها رفرقة جناح . وبشهوة حادة ، أسقطت هارو المصباح .

- من هناك ؟

هتف بها توريشيجي ، فقد ظن أنه رأى شبحاً أسود ، يتحرك تحت جناح الظلام . رجل ؟ هولة ؟ تخيل ؟ الآن لفه الظلام ؛ فقد انطفأ المصباح ، لدى سقوطه ، لم يستطع القول ما إذا كانت الصورة المتأرجحة في قرنيته كانت شيئاً حقيقياً ، أم كابوساً توهمته عيناه الغائمتان الزائغتان . بدا غريباً أن أوهارو لم تقل شيئاً آخر .

نادى ، في الظلام :

- هارو ، ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟ هل هناك أحد ؟

- م . . . م . . . مولاي . . . أسرع . . . أسرع !

كان ذلك صوت أوهارو يقيناً ، ولكنه تردد كما لو أن فمها
مكتم ، وهي تحاول التملص ممن يخنقها . ومستجمعة قواها ،
راحت تهتف ، مع آخر نفس لها :

- أسرع يا مولاي ، أسرع بالهرب !

انقطع صوتها ، فأنت ، وسقطت على الأرض ، محدثة دويّاً
مكتوماً . حبس نوريشيجي أنفاسه ، وتنحى قليلاً إلى جانب
الممشى ، ومنتشراً كأنه العنكبوت ، ألصق ظهره بالجدار ، لكن
مقتحم القصر أطبق عليه ، ولف ذراعه قوية حول عنقه ، ولطمه
بالسور ، في عنفوان رهيب . أحس نوريشيجي بأن جسده يضغط
حتى ليغدو مسطحاً كالرقائق ، فحاول مرات عديدة أن يهتف « أيها
الوغد » ! ، ولكن كلما أوغل في المحاولة غاصت ذراع خصمه غائرة
في عنقه . وفيما هو يختنق ببطء ، راح يحدث نفسه : « هلكت ،
لسوف يقتلني » ، وذلك فيما جمود خدر يوشك أن يطمس ذهنه .
وحينئذ ، على وجه الدقة ، أحس براحة يد خصمه تتلمس وجهه .
وطّن نفسه على أنه سيطعن عند قاعدة زوره بخنجر ، ولكن
مهاجمه ، الذي لا يزال يحكم إحدى ذراعيه على عنقه ، واصل
تمرير اليد الأخرى على وجهه بأسره ، كأنه يلمسه بلسانه ، وبعد
التيقن من أن إحدى الأذنين مفقودة ، انتقلت اليد إلى الشرم ،
واستكشفت الأنف بدقة من القاعدة إلى القمة مروراً بالقصبية
والخيشومين . وبينما هو يفقد وعيه تدريجياً ، وجد توريشيجي ذلك
أمراً مهيناً إلى أبعد الحدود ، وحدث نفسه بأن الرجل يجعل منه
العبوة ، أراد أن يهتف صارخاً : « أيها الوضع ! ما الذي تقوم به ! »
ولكنه قبل أن يتمكن من ذلك سمع صوت طحن كئيب ، وعرف أن
أنفه يفارق وجهه . أرخى المهاجم قبضته قليلاً ؛ مما سمح

لنوري شيجي بالتنفس بسهولة أكبر ، وفي الوقت نفسه ، بشأن جراح
يزيل زائدة بمشرط ، اجتث بانتظام من القاعدة ، دون أن يترك أثراً
لأي شيء يقارب الأنف .

عندما استردّ نوري شيجي وعيه أخيراً ، كان مثل رجل يفيق من
تأثير المخدر ، بعد عملية جراحية . تذكر ما وقع حتى بترأنفه ، لكن
ذاكرته لم تستوعب أي شيء وقع عقب ذلك . ولا شك أن مهاجمه
إما لطمه بالأرض ، عندما فرغ من « العملية الجراحية » ، أو أحكم
قبضته على عنقه من جديد ، ففقد نوري شيجي الوعي ، وعندما أفاق
كان قد تم حمله بالفعل إلى مخدع زوجته ، ومُدد في فراشه . ولأن
أوهارو قد سبقته إلى السقوط ، فإنها لم تدر ما الذي وقع تماماً ، وما
أن التقطت أنفاسها ، حتى قالت إنها عندما توقفت في الممشى ،
وحولت الضوء باتجاه قدمي مولاها ، أحست فجأة بخور أليم في
ذراعها اليمنى فسقط منها المصباح ، وفي الظلام وثب أحدهم عليها
من الخلف ، أو بالأحرى بدا الأمر كما لو أن شيطاناً مسّها ، دونما
صوت ، وقيد جسدها بأسره ، في إحكام ، مستخدماً رقية سحرية ،
أو كما لو أن دباً عملاقاً قد سحق صدرها . وعلى الرغم من أن رأسها
وفمها قبض عليهما بإحكام ، إلا أنها أفلحت في تحذير مولاها ،
ولكن عندئذ تلقت لكمة حادة في ضلعها فأغمي عليها . هكذا ،
فإنه لولا استيقاظ الأميرة كيكيو وافتقادها لزوجها ووصيفتها ، لظل
الاثنان ممددين في الممشى . وفي الوقت الذي ارتفع صوت الأميرة
ووصيفاتها بالصراخ ، كان المهاجم قد أفلح في الاختفاء ، دون أن
يخلف وراءه أثراً ، اللهم إلا العلامات المتوهجة الدالة على العملية
الجراحية التي قام بها في وجه نوري شيجي . وعلى نحو لا سبيل إلى
فهم غموضه أوقف نزيف الدم من الجرح ، بل ووضع لصوقاً على

القلب المسطح للوجه ، قبل أن يلوذ بالفرار . وسواء أكان يريد لعب دور الجراح من جميع جوانبه ، أم كان لديه سبب آخر يدعو لاتخاذ هذه الخطوات ، فقد كانت شديدة الرقة وعظيمة الجدوى ؛ لأنه دونها ربما ظل المريض المسكين ينزف حتى الموت .

وكما لعلكم خمنتُم ، فإن هذه الحادثة الغريبة لم يَقم بها إلا تيروكاتسو . وبالطبع يرجع الفضل إلى توجيه الأميرة كيكيو في تحقيق هجومه لهذا النجاح المدوي . وقد تبادل الرسائل مع الأميرة بانتظام ، عن طريق الممر الممتد تحت الأرض ، مستخدمين كأيدي وابنتها أوهارو كمبعوثتين . ولا شك أن إحدى المبعوثتين كانت تزحف عبر النفق ، وتترك رسالة مغروسة بين أحجار السور الكبير ، فيلتقطها تيروكاتسو خلال جولاته ، ويترك الرد في الوضع نفسه . ومع استمرار الاتصال بهذه الطريقة تم ترتيب زمان ومكان الهجوم مسبقاً ، بحيث يستطيع تيروكاتسو إنجاز العمل بسرعة والعودة آمناً إلى قاعدة السور الحجري ، دون أن يثير الاشتباه .

إضافة إلى اللصوق الذي وضعه على جرح نوريشيجي ، حمل معه رسالة ، وضعها على وجه الأخير :

« لأسباب قاهرة ، سعت وراء أنفك منذ العام الماضي . والليلة حققت رغبتى بنجاح ، وإني لراضٍ تماماً ، ولن أنتزع حياتك ، فبوسعك الآن أن تبقى خليّ البال » .

ليس من الجليّ على أيّ نحو فسّر كبار أعضاء الحاشية هذه الرسالة ، ولكنها كانت من إبداع بصيرة تيروكاتسو . فبعد أن حقق المهمة التي كلفته الأميرة بإنجازها ، كان يأمل في أن الأمن سيتراخى في القصر الداخلي ، بصورة عاجلة ، وسيتمكن ، دونما صعوبة ،

من الاتصال بالأميرة ؛ ولذا سعى عن طريق الرسالة إلى تهدئة روع الجميع .

غير أنه على الرغم من هذه الحيلة الحاذقة ، فقد تلقى الساموراي أوامر بتشديد الانتباه واليقظة من جديد ، وزيد عدد نيران المراقبة التي توقد كل ليلة بين الأشجار في الحديقة . وبما أن الحادث قد وقع خلال شهر كان تيروكاتسو فيه مسؤولاً عن الحراسة ؛ فقد استدعي للمساءلة ، بالطبع ، ولكن كبار رجال الحاشية ألفوا أنفسهم في ورطة ، فيما يتعلق بعقابه ؛ ففي نهاية المطاف عهد إليه بحراسة المحيط الخارجي للقصر ، ولم يكن أحد على يقين مما إذا كان المهاجم قد دخل القصر من الخارج ، أم أنه كمن في الداخل ، ولو أنه كان هناك إهمال فهو إذن إهمال من الجميع ، وبالتالي فليس هناك أساس لإلقاء العبء على تيروكاتسو وحده ، ولو أن الأمير كان قد لقي حتفه ، لما كان هناك مهرب من إعلان انتحاره رسمياً ، ولكن كل ما جرى هو فقد قطعة من اللحم ، وما من أمير ، مهما عظم شأنه يرغب في التضحية بتابع موالٍ ، لقاء مجرد أنف . وإضافة إلى ذلك ، فإن حقيقة بتر أنف نوريشيجي قد أقيت في طي الكتمان بقدر الإمكان - فلم يعلم بأمرها إلا قلة من خادמות القصر وكبار أعضاء الحاشية - ومن هنا فلم يكن بوسعهم إلقاء اللوم على أحد علناً . وكان عليهم الالتزام بأكبر قدر ممكن من الحرص والحذر ، حيث أنهم يتعاملون مع تيروكاتسو ، الذي يحترمه الجميع ، باعتباره محارباً شاباً متميزاً ، ووريث تيروكوني ، أمير موساشي . وبعد بحث هذه العناصر كافة ، أمروه بعدم مغادرة مقره الخاص ، لبعض الوقت ، وكان ذلك كل ما في الأمر ، ولكن لا بد أنه قد عانى أشد مشاعر الحنق والغضب ، ومنفرداً بنفسه في غرفة موصدة ، راحت

أفكاره تتسابق بسرعة إلى ذلك المشهد في القصر الداخلي . لم يكن هدفه النهائي هو تحقيق انتقام الأميرة ، وإنما تلك اللوحة التي ستجسم عن ذلك الانتقام . كانت رغبته المكنونة هي أن يرى الزوج المجرد من الأنف إلى جوار زوجته الجميلة على نحو لا مثيل له . الآن هو ذا العالم الذي طالما تراءى له في أحلامه يتفتح في مخدع الأميرة . وقد زاد هذا التوقع من حنينه وتوقه .

بعد وقت قصير ، أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى أداء واجباته ، ولكن عذابه استمر . لو أنه عهد إليه من جديد بتولي النوبة الشهرية الدورية في الإشراف على الحرس ، لتمكن من أن يزور مجدداً نفق الهوى الكامن عند قاعدة السور الكبير ، لكنه لم يعد موضع ثقة بحيث يعهد إليه بهذا الواجب موضوع الترحيب ، وتفاقم الوضع سوءاً إزاء قيام كبار رجال الحاشية بالإشراف على ما بدا أنه حرس حديدي ، بحيث أن تبادل الرسائل لاح أمراً لا موضع له على الإطلاق ، ولم يتلق همسة من الأخبار ، التي كان يتوقعها ، ولا حتى مجرد إشاعة ، عن الوضع في القصر الداخلي ، وأقلقه كذلك أنه كان منوباً كل يوم ، إلا أنه لم ير نوريشيجي قط . وعندما استفسر عن الأمر قيل له إن رجال الحاشية لم يروا أميرهم منذ الحادث ، صحيح أنه في بعض الأحيان كان نوريشيجي يحادث رجال معيته من وراء مصراع خيزراني في قاعة الاستقبال ، ولكن حديثه كان أكثر وهناً وأصعب في تفهمه عن ذي قبل ، وبدا صوته مختلفاً ، الأمر الذي جعل البعض يتشكك في أنه ليس إلا بديلاً ويتوقع ، على نحو طبيعي ، أسوأ الاحتمالات . بدأ تيروكاتسو يحس بالقلق حيال نتيجة العملية الجراحية التي قام بها ، وكان قد حرص على الاهتمام بمعالجة الجرح ، وحدث نفسه قائلاً إن نوريشيجي بالتأكيد على ما

يرام . ولكن باستثناء خمسة أو ستة من كبار مديري المقاطعة وقلة من الوصيفات كانوا يعرفون الحقيقة لم يتوافر لدى أحد دليل على أن الأمير لا يزال حياً . راح يحدث نفسه بأنه لو كان بمقدوره أن يرى وجه نوريشيجي فحسب ، إذن لتمكن من إرواء غلته الصادية قليلاً بتخير رضا الأميرة والابتسامة الشريرة في عينيها . وهكذا وصل إلى حد الحنين إلى رؤية وجه نوريشيجي ، المجرد من الأنف ، بقدر توفقه إلى مشاهدة محيا الأميرة .

في الشهر العاشر من العام ١٥٥٥ - الشهر الذي حلت فيه بساحة نوريشيجي مصيبة إثر الأخرى - تغير اسم المرحلة الزمنية ، من تيمون إلى كوجي ، ثم أقبل العام الجديد ، وكان ينبغي على جميع الساموراي أن يلتقوا بالأمير ؛ ليرفعوا إليه تحياتهم ، غير أن الأمير ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، تحمل طابع التحية ، مرّر رسالة تهئة بالمناسبة من وراء المصراع الخيزراني ، وانتقلت كآبة العام المنصرم إلى العام الجديد . تشاور كبار رجال الحاشية سوياً ، وأجمعوا رأيهم على أن المعنويات ستتردى ، طالما ظل أميرهم معتكفاً في قصره ، أما ما هو أكثر مدعاة للشعور بالقلق فقد تمثل في انطلاق شائعات شديدة البشاعة . ومن شأن حفل طيّب ، مفعم بالحياة ، أن يصفّي الجو ، ولكن الأمير سيتعين إقناعه بإظهار « طلعتة النبيلة » للساموراي المجتمعين في الحفل . ففي نهاية المطاف ، اعتاد الاتباع رؤية وجهه الأشرم وأذنه المفقودة ، وبالتأكيد فإنهم لن يكتروا لرؤية أنفه المفقود . وليس هناك داع لكل هذا التركيز على الذات . والروح بالنسبة للمحارب أهم من المظهر الخارجي . وما ضرّ لو تغيرت سحته قليلاً ؟ ما من أحد من الأتباع على قدر من التواء الذهن وانحرافه بحيث يزدري سيده لذلك السبب . وهكذا راحوا يتلمسون

في حذر رد فعله على هذه الفكرة ، ولكنه كانت قد سيطرت عليه نزعة سوداوية بالفعل ، وتفاقم عجزه عن الحسم وتهيئه ، منذ الحادث الأخير ، ولم يبد ميلاً إلى الظهور أمام أحد . وعندما ألحوا عليه قال ضجراً : « دعوي وهي ! إذا أرتة إقاهة حل ، فأقيوه . اهتوتوا قُههاً ، وأقيوها الحل ، ولا تخفروني فيما حهث » ومضى لطيته .

يسمع المرء في بعض الأحيان بالأصوات المتلعثمة أو مفككة المقاطع ، ولكن صوت نوريشيجي لم يكن متغيراً على هذا النحو فحسب ومفكك المقاطع ، وإنما كان من الممكن أن يحسب المرء أنه صيحات حيوان ما . ولن يكون من اليسير إقناع الأتباع بأنه لا يزال على قيد الحياة . ولكن لا بد من التوصل إلى سبيل للتفريج عن كربة أميرهم ، وفي نهاية المطاف ، قرر كبار رجال الحاشية جمع كل الساموراي ، ممن لهم معرفة بالشعر ، لحضور حفل لتناشد الأشعار . فمئذ بعض الوقت ، كان نوريشيجي يعقد مثل هذه اللقاءات ، في مجالس خاصة مع الوصيفات ، ولكن هذا الحفل سيقام على نحو فخيم في مكتب القصر الخارجي . وكانت الأميرة كيكيو هي مصدر هذه الفكرة ، ووافق عليها نوريشيجي دونما تردد ، ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى أن الاقتراح جاء في وقت كان قد ازدهاه فيه ما بلغه من شأو في نظم الشعر ، وبشكل خاص لأن الأميرة هي التي طرحته ، ولم يستطع كبار الاتباع طرح اقتراح آخر ، ونظراً لشعورهم بأنهم غرباء في مجال التنافس الشعري ، فقد تخوفوا من أن اختيارهم هذا سيكون مصدر ضيق عظيم ، ولكنهم سيسعدهم أن ترتفع معنويات الأمير ، وهكذا أبلغوا الساموراي برغبته ، وأعلنوا أن كل من له معرفة بهذا الفن ، بغض النظر عن مرتبته ، سيسمح له

بشهود الحفل . ويسجل كتاب « اعترافات دوامي » أنهم :
« اختاروا اليوم الخامس من الشهر الخامس ، يوم مهرجان إيرليس ،
لجمع شمل الساموراي والأمير نوريشيجي والأميرة كيكيو لحضور
حفل تناشد للأشعار . وقد أعلنوا الأمر قبل حلول الموعد بوقت
طويل ، وتوقعوا أن كل من لهم إلمام بفن الشعر سينظمون قصائد
بديعة ، ويتنافسون على الجوائز . ولكن محاربي قلعة أوجيكا على
الرغم من ثقتهم بمهارتهم في رماية السهام ، لم يعتادوا شهود لقاءات
فخيمة من هذا النوع ، وترددوا في المشاركة . فمن شأنهم أن يبادروا
إلى المشاركة في الوقائع العسكرية ، فيما قالوه ، ولكنهم لم
تساورهم أي رغبة في إحراز مرتبة الشرف في نظم الشعر . وقد شهد
الحفل قليلون منهم ، ولم ترق الفكرة لأحد ، وكانت مناسبة خالية
من المرح والبهجة » .

حتى في ذلك العصر المتقلب ، كان عدد من القادة العسكريين
متضلعين في نظم الشعر ، وهذا أمر حقيقي ، ولكنهم كانوا من أبناء
الديميوهات الذين تلقوا تعليماً رفيعاً ، أما الساموراي العاديون فكانوا
بالكاد يجيدون القراءة والكتابة ، وقلّة منهم هي التي تستمتع بوسيلة
ترفيه من نوعية نظم الشعر . وعلى أية حال ، فإن تيروكاتسو كان
واحداً من قلائل ، في قلعة أوجيكا ، لديهم ما يؤهلهم لشهود هذا
اللقاء . والقصائد التي خلفها لنا بعد رحيله عن عالمنا ، تبدو لنا
حينما ننظر إليها باعتبارها نتاجاً لقريحة رجل عسكري متمسكة
بالتقاليد الصحيحة ، وتوضح أنه كان ضليعاً في فن الشعر . لكن
هذه القصائد كانت ثمار الممارسة المتقنة في أواخر أيامه ، بعد أن
أوحى إليه هذا الحفل بإدراك أن الشعر ليس بالشيء الذي يستهان
به . وكان في ذلك الوقت شاباً في التاسعة عشرة من عمره ، وربما

لم يكن ماهراً على نحو خاص في قرض الشعر . مع ذلك ، فإنه كان قد درس منذ نعومة أظفاره الفنون الأدبية والحربية ، بينما كان من يحيطون به أناساً أميين ، لم يتلقوا من التعليم شيئاً . ومن الواضح أنه قد وقع على كاهله ، أكثر من أي شخص آخر ، التزام بحضور الحفل . ولا بد أن لدى سماعه بأن هذا اللقاء من بنات أفكار الأميرة قد علق آمالاً كباراً على أنها ستتيح له الفرصة لتجديد مراسلتها التي توقفت طويلاً . وهكذا كبح جماح انفعاله ، وقبل الدعوة .

وكما يمكن للمرء أن يتنبأ ، فقد استر نوريشيجي وزوجته وراء مصراع خيزراني يحجب المنصة التي احتلاها ، بينما جلس الاتباع في صفوف ، على جانبي القاعة كليهما ، وتباروا في نظم القصائد عن الوقواق ، وهو موضوع اختارته الأميرة . كان الفضول قد اجتذب معظم الأتباع ، فلربما يتاح لهم أن يروا مولا هم رأى العين ، ولكن نوريشيجي قام بتمرير مقطوعته من وراء المصراع الخيزراني ، وراح يصغي في هدوء فيما هي تتلى بصوت عال وتعقبها قصائد الأتباع . ولو أن تيروكاتسو كان من نبلاء البلاط الهائلي لربما استطاع استخدام « الوقواق » (حيث كان موضوعاً مثالياً) لنقل مشاعره بصورة غير مباشرة إلى الأميرة المحبوبة وراء المصراع الخيزراني ، ولكنه كان يفتقر إلى المهارة اللازمة للقيام بذلك ، فنظم بلا حماسة قصيدة من واحد وثلاثين مقطعاً ابتذلها تكرار الاستخدام . ومن سوء الحظ أن القصائد التي نظمت في هذه المناسبة لم يكتب لها البقاء ، لكن المرء يمكنه الافتراض ، دون أن يغامر كثيراً ، بأن أياً منها لم تكن من القصائد المتميزة . وقد حفظ لنا كتاب « اعترافات دوامي » إحدى قصائد الأميرة كيكيو .

يذكرك بالماضي

عرف براعم البرتقال ،
فأقبل أيها الوقواق
إلى قرية البراعم المتهالكة !

وبتغيير طفيف في البيتين الأخيرين ، تقوم قصيدتها على أساس
قصيدة من نظم الأمير جنجي ، في الفصل الذي يحمل عنوان « قرية
البراعم المتهالكة » من « حكاية جنجي » :

يذكره بالماضي
عرف براعم البرتقال ،
فيهل الوقواق ليصدق
في قرية البراعم المتهالكة .

وقد نظم جنجي قصيدته تلك عندما زار الأميرة رايكايدين :
« مضى أولاً إلى غرف الأميرة ، حيث غرقا سوياً في
الذكريات ، فيما الليل يوغل في مسيرته ، وعندما اعتلى القمر الذي
استكمل ثلاثة أرباع دائرته كبد السماء ، ألفت الأشجار السامقة
بكلامها على نحو أشد قتامة ، ورفت الرائحة المترعة بالحنين من
براعم برتقال دانية ، كانت الأميرة قد تقدمت في العمر ، ولكنها
كانت على تواضعها السابق ، رقيقة ، وعذبة ، ورغم الألم لم تكن
أثيرة على نحو خاص لدى الأباطور الراحل ، إلا أنه كان مولعاً بها
ووجد أن صحبتها تبعث الراحة في النفس » .

وقد ردت رايكايدين على قصائد جنجي بقصيدة من نظمها :
ما من أحد يزور
مسكني المتهالك .
وها هي براعم البرتقال قرب الطنف
قد اجتذبتك إلى هنا .

ولكن قصيدة الأميرة كيكيو لا علاقة لها بهذه الموضوعات العتيقة . وإنما هي ببساطة تشبه تيروكاتسو بالوقواق ، وتتلاعب بكلمة « هانا » اليابانية ، التي تعني في آن « برعماً » و « أنفأ » ، بحيث أن « قرية البراعم المتهاوية » هي كذلك « قرية الأنوف المتهاوية » ، وهكذا أمكن لتيروكاتسو أن يدرك الرسالة الخفية ، على الرغم من أنه ربما لم يقدر له أن يقرأ « حكاية جنجي » .

ليس من الواضح ، على وجه الدقة ، متى بلغ من تأثر الأميرة كيكيو بإخلاص تيروكاتسو وقوة شخصيته أنها شرعت بتبادل حبا بحب . ولكن من المؤكد أن قصيدتها تنقل ما هو أكثر من : « أريد أن أراك ، فلديّ أمر لا بدّ أن نناقشه » . وربما أحبت ، دون أن تدرك ذلك على وجه التقريب ، في الوقت الذي عجزا فيه عن الاتصال أحدهما بالآخر . وربما كانت هذه القصيدة هي أول تعبير عن حبها .

« بسبب الرقابة الصارمة ، ظننت أنه لا مجال للأمل حتى في التسلل إلى مقربة منها ، ولكن بمرور الوقت تراخت الحراسة ، وغدا بمقدوري زيارتها في سر . انقضى عام ، دون المزيد من المتاعب ، على نحو ما توقعت في الرسالة ، التي خلفتها ورائي في تلك الليلة الخريفية ، وهكذا تخلى كبار رجال الحاشية في نهاية المطاف عن الشكوك التي ساورتهم » .

ولربما تخلوا عن هذه الشكوك ، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من تخمين ما الذي أراده المهاجم من أنف سيدهم .

الكتاب الخامس

وفيه يعود تيروكاتسو إلى قلعة أبيه ،

ويوزف إلى سيلة عشير تشيريفو

تقدم العمر بتيروكوني ، والد تيروكاتسو ، وراحت حالته الصحية تتراجع ، وشغله لبعض الوقت أمر العثور على زوجة مناسبة لولده ، والتنحي له عن رئاسة العشيرة ، فألح مراراً وتكراراً على آل تسوكوماني أن يعيشوا له بابنه ، إلى قلعة جبل تامون . ولكن شائعات تدعو للانزعاج أخذت في الانتشار ؛ فقد تفاقم تشكك كبار رجال الحاشية في قلعة أوجيكا وخاصة منذ تمرد قلعة تسوكيجاتا ، وتباطأوا في الموافقة على هذا الطلب . ومع ذلك ، فرغم أن تيروكاتسو كان من الناحية الاعتبارية رهينة ، فإنه قدم إلى القلعة طفلاً ، وعاش بين ظهرائي أهلها أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً ، وقد خدمها مخلصاً ، وتميز على أقرانه ، بصورة متكررة ، في ساحة القتال ، وبدأ أنه لا موضع للتساؤل ، فيما يتعلق بمدى ولاء أبيه لعشيرة تسوكوما ؛ وبناء على هذا فقد سمح لتيروكاتسو في نهاية المطاف بالعودة إلى قصر تيروكوني في خريف ١٥٥٧ .

وعلى الرغم من أن تيروكاتسو قد سعد ، بالطبع ، لعودته إلى أبيه ، فقد أمضى وقتاً طويلاً ليتعافى من أساءه ، حيال افتراقه عن الأميرة كيكيو . كانت روح المحارب الكامنة في أعماقه تؤكد نفسها في وجه الضرورة ، ولكن الحب الأول شيء خاص ، حتى بالنسبة لرجل حديدي الإرادة ، وكان قد انتهك كل الأعراف والقواعد الأخلاقية ، وواجهه في الشعور بالامتنان ، في غمار تمسكه بها في

إخلاصه الولهان لها ، ومع ذلك فقد أجبرا على الانفصال ، بمجرد شروعهما في التلاقي ، على وجه التقريب ، ففي خريف العام السابق ، تراخت الحراسة بما يكفي لعودته إلى استخدام النفق من جديد ، وهكذا فقد أمضيا أقل من عام سوياً ، يلتقيان سراً ، ويختلسان سويغات من النشوة ، ربما دون أن تتاح لهما فرصة واحدة لقضاء الليل في حوار حميم . وقد فاقم من هوة أسفه أن حبه كان أقل انصرافاً إلى الأميرة كيكيومنه إلى الدور الفريد الذي تؤديه . فقد يجد في المستقبل أخريات في مثل جمالها ، ولكن خشبة المسرح الفرية والرائعة ، التي وقفت عليها ، وخاصة الدراما التي تضم ممثلاً فكاهياً مساعداً دون أنف ، كانت عالماً أعد خصيصاً ليوافق مزاجياته . وما كان له أن يتوقع العثور على سيدة نبيلة أخرى ، يحيط بها هذا المشهد وذاك الطاقم من الممثلين . وهكذا ، فقد تردد ، في حميا شهوته المرتكسة ، في مفارقة الأميرة ، وكره إلى حد المقت الانسحاب من هذه البيئة . وكان عزاؤهما الوحيد هو الاعتقاد بأن سقوط آل تسوكوما بات وشيكاً ، وهكذا أرسيا دعائم خطط المستقبل ، وتعاهدا على اللقاء ثانية ، وافترقا .

تزوجت الأميرة أويتسو سليفة آل تشيريفو ، التي عرفت فيما بعد باسم شوسيتسوين ، من سليل آل كيريو في الشهر الثالث من ١٥٥٨ ، أي بعد مرور أقل من ستة أشهر على عودة تيروكاتسو إلى قلعة جبل تامون . وكان تيروكاتسو في الحادية والعشرين من عمره ، أما شوسيتسوين فلم تتجاوز الرابعة عشرة من العمر . وعلى الرغم من أنها كتب عليها أن تمضي أيامها في رحاب الحزن والوحدة ، ضارعة إلى الأرباب وبوذا أن تصلح حياة زوجها الجنسية المكلفة بالعار ، فقد كانت فتاة تضج عروقتها بنبض الحياة ، في وقت زفافها .

ولئن كان جسدها قد استشعر التقلقات الأولى للنشاط الجنسي ،
فإنها لم تكن على وعي بعد بهذا ، ولم يبذل زوجها جهداً لإنارة
بصيرتها ، فقد كان ذهنه مشغولاً بأفكار عن القصر الداخلي في جبل
أوجيكا ، ولم ير في عروسه ، التي لم يتزوجها إلا بناء على إلحاح
أبيه ، إلا فتاة ذكية ، بريئة ، تصغره بسبع سنوات . ولكنه ربما كان
محظوظاً ، في نهاية المطاف ، لزوجته من عروس أصغر سناً من فهم
الواقع الرهيب ، الذي يحيط بها .

ذات مساء صيفي ، بعد شهر أو شهرين من الزفاف ، انضم
تيروكاتسو ، على نحو غير متوقع ، إلى شوسيتسوين في الشرفة ، فيما
هي تستمتع بالنسيم العليل مع وصيفاتها .

قال بابتسامة ليست من سماته المميزة :
- لنقم بما يسلينا معاً !

تساءلت زوجته :
- ولكن كيف حال أبيك ؟

- ليس هناك ما يدعو إلى القلق ، فقد تحسنت حالته كثيراً ، في
الأيام القليلة الماضية . أما ما يثير ضيقي فهو إهمالي لك ، وليس
لديّ ما يشغلني اليوم ؛ وبالتالي فسوف أشاركك في كل ما تريدين
القيام به .

حدقت شوسيتسوين سعيدة في زوجها المرح :
- ما الذي سنقوم به إذن ؟

- أي شيء ، ما الذي تفضلين ؟
- هل نطارد الحُباحب ؟ في الحديقة ؟

أفعمت عيناها الجميلتان المتألفتان بالبهجة المفاجئة ، التي

يستشعرها طفل ففكر بقوة في شيء رائع ، وتألق خداهما المكتئبان بالوهج .

تحدثت ، كما لو كانت مجرد طفلة :
- هناك الكثير من الحُباحب في الحديقة ، هناك بعيداً حيث تزدهر السوسنات ، فيما وراء التل .

صحب الزوجان الشابان الوصيفات ، وانطلقا يطاردان في شغف الحباحب ، في أرجاء الحديقة .
- ها هنا ، ها هنا ، ليأت الجميع إلى هنا !

هكذا تردد صوت شوسيتسوين المرح ، وسط صيحات وصيفاتها ، فيما هي تندفع في أرجاء الحديقة ، إلى نحو النجيل المتكاثف ، وبعد قليل إلى حافة الماء . وباعتبارها ابنة أمير إقطاعي ، فقد نشئت لتكون أميرة شابة ، بالمعنى الصحيح ، ولكنها في الرابعة عشرة من عمرها كانت ممتدة الساقين والذراعين ، وجسمها في ريعان الصحة والفتوة . ورغم أن أثوابها العديدة كانت مصدر ضيق لها ، إلا أنها كانت تعدو كأنها ريم ينطلق في الحديقة . وبالنسبة للوصيفات القائمات على رعايتها ، بدا أمراً مضحكاً أن ينادينها قائلات : « سيدتي » ، فقد كانت فتاة صغيرة ، حتى أطراف أصابعها .

صاح تيروكاتسو ، منفعلًا :

- أمسكت بعشر منها !

- آه ، لم أمسك إلا بخمس فقط !

- هناك واحدة ! هناك واحدة !

راحت تعدو وراء تيروكاتسو ، فيما هو ينطلق مطارداً الحباحب .

راحا يعدوان حول البحيرة ، وعلى امتداد الغدير ، يتسابقان على الإمساك بحبابة واحدة ، وبدا أنهما أقرب إلى أن يكونا أخاً وأخته يلهوان منهما إلى عروسين تزوجا حديثاً .

في تلك الليلة ، وضع الزوجان الشابان الحباحب التي أمسكا بها ، حوالي ثلاثين أو أربعين منها ، في سلال مغلقة من الأغصان المجدولة ، وضعت في صف واحد ، وراحا يتطلعان إليها ، وهما يحتفلان بهذه المناسبة بتبادل أنخاب الساكي . كان كل منهما لا يزال في حالة مزاجية عابثة ، وشرع تيروكاتسو يلقي بالنكات والقصص الطريفة ، التي جعلت شوسيتسوين تغرق في الضحك ، حتى لتعجز عن تناول الطعام ، وأدخل هذا الإفصاح النادر عن العفوية من جانب تيروكاتسو شعوراً بالأنس والبهجة ، في نفوس الوصيفات ، أكثر من النوادر في حد ذاتها ، فاستجبن بفيض من الضحكات ، في كل مرة يفتح فيها فمه .

قال تيروكاتسو :

- مهلاً ! مهلاً ! سأريكن شيئاً طريفاً الآن .

قالها ، وأوماً إلى إحدى الوصيفات ، وهمس في أذنها .

التفتت شوسيتسوين والأخريات إلى رجل منحني خضوعاً وتزلفاً ، صحبته الوصيفة إلى دهليز مكسو الأرضية بالحصر ، خارج الغرفة ، ورحن يحدقن في رأسه الحليق بالموسى ، وهو يمس الحصر في انحناءة ذليلة ، وقمة الرأس الحليق تلتمع .

قال تيروكاتسو :

- آه ، ها قد جئت !

رد الرجل حليق الرأس ، بصوت حزين :

- نعم ، يا مولاي !

تساءلت شوسيتسوين :

- من هذا ؟

- اسمه دوامي ، لسوف نجعله يقوم لنا بأداء شيء طريف
الليلة .

قالها تيروكاتسو ، ثم التفت إلى دوامي ، وقال بحدة :

- هلم ! ارفع رأسك !

- نعم ، يا مولاي !

رد الرجل ، بالصوت السابق عينه .

- أيها الأبله ، لا تقل : « نعم يا مولاي ! » فحسب ، قلت لك

ارفع رأسك !

- نعم ، يا مولاي !

وفي هذه المرة رفع دوامي رأسه ، كان في حوالي الثلاثين من
عمره ، يرتدي ملابس تشبه أردية كهنة بوذا ، كما جرى العرف فيما
يرتديه « مشرف الشاي » . كان رجلاً لحيماً ، له وجه أبيض
مستدير ، راح يحدق فيهم بعينه المفتوحتين على اتساعهما ، كأنما
فوجيء بهم بغتة . كان ثمة أمر مضحك في التعبير الجاد ، على نحو
غريب ، الذي رسمه على ملامحه ، وعندما ضحكت إحدى
الوصيفات حيال منظره ، أغرقت بقيتتهن في الضحك .

- طيب ، الآن هناك فرصة متاحة لتظهر لنا ما يمكنك القيام به ،

فعليك بالمحاولة !

- محاولة ، يا مولاي ؟ ما الذي تعنيه بالمحاولة ؟

شأن كلب حراسة ينتظر إشارة من سيده ، راح دوامي يتطلع إلى

تيروكاتسو طارفاً بعينه ، في إيقاع سريع .

- ها ، ها ، أيها المغفل ، إنك ماهر في التقليد . أليس كذلك ؟ الطيور ، الحشرات ، الحيوانات ، الناس . بمقدورك تقليد أصواتهم وحركاتهم وكل شيء ، إنك ماهر ، فامضِ قدماً !

قالت شوسيتسوين :

- أ بمقدوري محادثته ؟

- مريه بما يحلو لك ، نعم ، هذا أمر طيب ، اصدرني إليه التعليمات !

- دوامي ، هل تستطيع تقليد أي شيء على الإطلاق ؟

- غلبت على أمري ، يا مولاتي ، آه ، ما الذي عساي أقوم به ؟

دامعاً ، والحزن يسم ملامحه ، ألصق رأسه الحليق بالحصير مجدداً ، وأضاف : آه ، يا إلهي ، آه يا إلهي ، أي شيء عجيب ذلك الذي قيل لك ، سامحيني يا مولاتي ، لكنني لا أحظى بهذه المهارة .

- هلم ، هلم ، لا تكذب عليها ، لقد أدت فنون التقليد أمامي مرات عديدة .

- ما أقسى ما تقول يا مولاي ، كيف كان بوسعي القيام بمثل هذه الأمور أمام مولاي وهاته السيدات الأخريات ؟ إنك شديد القسوة يا مولاي ؟

- ها ، ها ، ها . من لا يعرف الصقر يشوه . أليس كذلك ؟

- أأأرجوك ، يا مولاي ، لا بد أنك تمزح !

- امضِ قدماً ، هلم ، لهذا جئت بك إلى هنا .

قالت شوسيتسوين ، وقد تألقت عيناها ، خبثاً ومكراً :

- دوامي ، عليك بتقليد الجباحب لي !

إن دوامي هو ، بالطبع ، مؤلف ذلك العمل السردي الثمين ،
عن حياة أمير موساشي الذي يحمل عنوان « اعترافات دوامي » . وقد
عمل لبعض الوقت في مكاتب القلعة ، معتمداً على لمأحيته
وجاذبيته . ولكن تلك كانت المرة الأولى التي استدعي فيها للترفيه
عن سيدات القصر . وقد كتب هذه الصورة :

« مضيت في شبابي للخدمة في قلعة جبل تامون . وفي البداية
عملت في دوائر الساموراي ، ولقد لفت نظر الأمير تيروكاتسو ، فقال
لي إنني رجل خفيف الظل . وفي غمار إبدائي للامتنان ، الذي أشعر
به ، بذلت قصارى جهدي لإرضائه . وذات يوم استدعاني ليقول
لي إنه يرغب في أن أقوم بالترفيه ، في تلك الليلة ، عن السيدات ؛
لأنني بارع في عمليات المحاكاة والتقليد . وتم اصطحابي إلى
القصر الداخلي ، وشرفت بالمشول في حضرة الأميرة شوسيتسوين
بنفسها . »

كان ما طلبته شوسيتسوين بالغ الصعوبة ، فراح دوامي قائلاً :
- ماذا تقولين ؟ أأقلد حُباحبة ؟ .. حباحبة ؟

وراح يتحدث ، متخبطاً ، بصوت داعم ، إلى أن ضجر الجميع
منه ، وضاق صدرهم به . وكان ذلك هو أسلوبه المعتاد ، فقد راح ،
فيما هو يطيل المناقشة لكسب الوقت ، يفكر في حيلة لإدخال
جمهوره وإبهاره . وانتظر إلى أن استحثته الوصيفات ، بصوت عال ،
ثم متصنعاً هيئة من يش من أمره ، نهض وجلب مروحة من مكان
ما ، ومضى إلى جانب مظلم من الغرفة ، حيث بدأ في مطاردة رأسه
الحليق بالمروحة ، وعندما تهوي المروحة بلطمة ، تنزلق المروحة
من تحتها ، وتلوذ بالهرب . وجسدت عيناه الطارفتان والتعبيرات
العجيبة المرتسمة على وجهه ، بصورة كاملة ، حباحبة تتألق ،

وتذوي ، تتوهج ، وتشحب . وبدت اليد الممسكة بالمروحة ،
والتي تطارد الحباحبة مطاردة محتدمة ، كما لو كانت يد شخص
آخر . وفي نهاية المطاف ، أفلحت اليد في لطم الرأس بالمروحة ،
فحاول الرأس ، في جزع ، أن يلوذ بالهرب ، وبمطاردة المروحة
له ما كان الرأس ليهرب إلا لتلحق به المروحة من جديد ، وبلغ
توهم وجود شخص يطارد حباحبة من الكمال ، بحيث أنه كان من
الصعب تصديق أن ما يجري هو ببساطة لعبة بهلوانية يقوم بها رجل
واحد . وهكذا أفلحت خطة تيروكاتسو ، فقد أغربت شوسيتسوين
والوصيفات في الضحك وهن في غاية العجب من الرجل الغريب ،
الذي ظهر أمامهن ، وذلك منذ بداية أدائه لهذا المشهد حتى نهايته .
وتبع الحباحبة عدد من الطلبات المتباينة ، التي استجاب لها ،
واحداً إثر الآخر ، بالاستعبار وإبداء القنوط ، وتبين أن ما من شيء
يصعب عليه أدائه . فهو يلتقط الخاصية الطريفة في أصعب طائر أو
حيوان أو حشرة من حيث إمكانية تقليده ، وينقلها إلى الجمهور
المبتهج بصوته وإيماءاته . وكان متمكناً لئاصية فن التعبير
بالملامح ، وبمقدوره ، بأدنى حركة من عينه ، أو تكشفية ، أو
التواءة فم ، أن يوحي بحالة مزاجية أو بشكل أو بحركة أو حتى
بلون . وشأن اللاعب والمؤدي الجوال ، تعلم أن يجيد قراءة ملامح
جمهوره ، بحثاً عن أي بادرة تراخ في الاهتمام ، وحينما تطل مثل
هذه البادرة فإنه يرد عليها بتغيير الإيقاع . وفور شروع السيدات في
الظن بأنهن رأين ما فيه الكفاية ، شرع في تقليد السكارى والبلهاء
والعميان وما إلى ذلك ، مفجراً فيضاً متواصلاً جديداً من الضحك .

لم يكن قد سبق لشوسيتسوين ، التي عبرت وقتذاك السن التي
يبدو فيها كل شيء مرحاً ، أن رأت شخصاً فكها وحاذقاً كهذا من قبل

قط . دمعت عينها لفرط الضحك ، وأمسكت بجانبها ، وشهقت
قائلة :

- آه ، كم هو مضحك حد الإيلام ، كم هو مضحك حد
الإيلام ! لم أضحك في حياتي قط كالليلة .

أعجبها دوامي بشكل فوري ، وقالت لتيروكاتسو ، حينما انتهى
الأداء :

- يا له من رجل طريف ، لن أحس بالضجر أبداً في وجوده .

- ها ، ها ، ها . أكان بارعاً إلى هذا الحد حقاً ؟

- أجل ، أجل ، ألا تستدعيه إلى هنا أحياناً ؟

- ليكن . إن كان أعجبك ، يمكنك وضعه في خدمتك ، وعلى
أي حال ، فهو يناسب القصر الداخلي بصورة أفضل .

وضحك تيروكاتسو ، في سعادة بالغة .

بناءً على طلب شوسيتسوين ، نقل دوامي إلى الحاشية
الخاصة ، حيث احتل الوضع ذاته ، الذي يحتله عازف أو محترف
تدليك ضرير ، وكان عمله الترفيه عن السيدات وتسليتهن ، وقبل
انقضاء وقت طويل أكسبه ذكاؤه ومرحه حب الجميع . فساد مرح دائم
لا ينقطع أرجاء القصر الداخلي .

أخذ تيروكاتسو يمضي المزيد والمزيد من الوقت في غرفة
زوجته ، ويبادرها بقوله : « إنني أفقد دوامي » ، وإذا تجرّفه عجائب
دوامي وغرائبه ، يشارك في إشادة ألعاب ركوب الجياد الوهمية
تفاهة . وكان بالنسبة لشوسيتسوين على الدوام زوجاً نائياً ، ولكنها
أحست الآن أنه ودع تحفظه السابق . وعزت التغيير إلى وجود دوامي
خفيف الظل ، فازدادت ميلاً إليه .

فيما كان تيروكاتسو عاكفاً على الشراب ، ذات ليلة ، مع زوجته ، قال لها :

- لا ينبغي لك أن تمضي وقتك كله في الإصغاء إلى ترهات دوامي . الليلة سأحدثك بشيء ذي طابع تعليمي .

- تعليمي ؟

- بالضبط . فأنت تعيشين حياة رخية هنا ، ولكن ماذا عساك تصنعين ، على سبيل المثال ، إذا حاصر عدوّ هذه القلعة ؟ يتعين على النساء أن يقدمن المساعدة بدورهن عندما ينشب قتال . هل أحدثك بما ينبغي لك معرفته ؟

- آه ، نعم . تلك فكرة طيبة . حدثنا بالأمر ، من فضلك !

دونما وعي منها ، جلست مستقيمة الظهر ، وحسبت أنها لمحت نظرة أمرة ترتسم آثارها على محيا زوجها ، الذي اتخذ مظهراً جاداً ، على غير المألوف .

بدأ تيروكاتسو محاضرتة بحصار قلعة أوجيكا ، الذي شهده حين كان صبياً ، في الثانية عشرة من عمره في ١٥٤٩ ، قال :

- لا يتعين على النساء أن يمضين إلى ساحة القتال ، ولكن خلال الحصار فإن لديهن أعمالاً ينبغي أن يقمن بها ، فعلى سبيل المثال هناك ما يسمى بـ « تجميل الرؤوس » .

طرح إيضاحاً تفصيلياً ، وهو يدنو تدريجياً بالصورة التي يرسمها من ذلك المشهد في العلية ، للكيفية التي تغسل بها الرؤوس ، وكيف يصفف الشعر ، وكيف تثبت لافتات التصنيف الصغيرة وما إلى ذلك . أصغت زوجته والوصيفات الأربع أو الخمس القائمات على خدمتها في شغف ، وهن يحدقن في وجه تيروكاتسو ، فيما هو

يتحدث ، وشيئاً فشيئاً ، وبينما جمهوره يستحثة ، اندمج تماماً فيما يقوله . كان أمراً نادراً بالنسبة له أن يستقر في موضعه ، وأن يستغرق وقتاً في الحديث على هذا النحو . وفيما هو يتحدث ، كانت هناك قوة غامضة وجادة في حديثه البليغ ، وصدرت كل كلمة عنه متشحة بقوة واقتدار هائلين . وإلى درجة كبيرة - ترى متى تعلم هذا الفن - رسم صورة قولية بارعة للرؤوس التي رآها في العلية ، التعبيرات التي تكسوها ، لون بشرتها ، لطح الدم ، وحتى الرائحة ، إلى أن بدت حاضرة أمام أعين السيدات . في بداية الأمر دهشت شوسيتسوين والوصيفات لقوة ذاكرته والبراعة غير المتوقعة ، التي أظهرها في سرد ما روى ، ثم اجتذبن إلى الشعور بأنهن كن موجودات في العلية . رحن يصغين بأنفاس لاهثة ، وقد تشنجت دونما وعي قبضاتهن العارقة ، وتصلبت أجسامهن . وبمجرد أن بدون كما لو أن يؤبؤي تيروكاتسو المتوهجين ، على نحو غريب ، قد استوعباهن ، قال لهن :

- لا ، لن تفهمن ما أعني ، إذا ما حدثتكن به فحسب .

وشرع في النظر في أرجاء الغرفة الصامتة الرهيبة ، متفحصاً الأركان المظلمة التي لم يتغلغل فيها نور المصباح . فأصاب الرعب السيدات . كانت الكلمات قد صدرت عن فم تيروكاتسو ، ولكن نغمة الصوت وحدته كانتا مختلفتين . ثمة شيء ما جديد وغريب سرى في هذا الصوت ، ثم علت ابتسامة متقلصة وراعية وغير مفهومة شفثيه جاهدة . وفجأة عمه الشحوب ، وتضرج وجهه بالحمرة ، كما لو كان الدم قد اندفع مسرعاً إلى رأسه .

- هذا صحيح ، لن تفهمن تجميل الرؤوس ما لم تتدربين عليه ، ولكننا نحتاج لهذا الغرض إلى رأس حقيقي .

- رأس حقيقي .

وشى صوت شوسيتسوين بانزعاجها .

- أتخشين التطلع إلى رأس ؟

- كلا ، ولكن من أين تحصل على شيء كهذا ؟

- ها ، ها ، ها . ألسنت زوجة ساموراي ؟ ليس هناك أمل يرجى

منك ، إن كان الشحوب سيكسوك لدى ذكر رأس بشري .

في حقيقة الأمر أخافتها عينا زوجها المحمومتان الممسوستان

أكثر مما كان يمكن للنظر إلى الرؤوس أن يخيفها . استشعرت

مفارقة منذرة بالشر بين ابتسامته وبين هاتين العينين .

- لا ، لا . لست بالجبانة . والرؤوس لا تخيفني .

- أواثقة أنت ؟

- بالطبع .

- إذن فلديك شجاعة النظر إليها ؟

- إذا كان لديك رأس ، فدعني أنظر إليه .

- آه ، لدي رأس بالفعل .

ثم التفت إلى الوصيفات ، قائلاً :

- أظهرن شجاعتهن ! لسوف أحصل على رأس ، وأعلمكن ما

ينبغي عمله . أريدكن أن تتدربن ، ولئن لم تتعلمن الآن ، فلن تكون

لكن فائدة ، حينما يحين الأوان .

فجأة كسا الشحوب وجهه ، من جديد . فارتج على السيدات .

- عليّ بدوامي !

صاح بها ، وأفرغ قدحاً من الساكي في جوفه دفعة واحدة .

« ذات ليلة ، حينما مثلت بحضرة مولاي ومولاتي ، أمرني الأمير تيروكاتسو بالدنو منه . قال : « إنه لأمر سيء بالنسبة لك للغاية ، ولكنني أريد رأسك الليلة » . بدا كما لو كان علي وشك قطع رأسي بسيفه ، فذهلت ، لأنني لم أكن قد أتيت أمراً إداً ، وأخذت في النواح والأنين ، لكنه لم يصنع إليّ . حدثت نفسي بأنه ليس هناك مفر ، وأسلمت نفسي لقدري . ولكن الأميرة شوسيتسوين ، التي عاملتني بلطف علي الدوام ، أشفقت عليّ ، وتوسلت من أجلي . فجأة انفجر ضاحكاً ، وقال : « لقد كنت أعبت به فحسب . لم أقتل رجلاً بريئاً ؟ إنك رجل محظوظ ، ولكن مقابل الإبقاء على حياتك ، أريدك أن تؤدي دور رجل ميت ، وأن تقلد رأساً ، ها هنا ، وعندئذ لن يكون من الضروري قتلك » . رحت أحدث نفسي ، مندهشاً ، بقولي : « ما الذي سيحل بي الآن » . أزاح حصيرة من الأرض ، وأحدث فتحة تبلغ القدمين في ألواح الأرضية . وقال : « انزل ها هنا ، وابرز رأسك من خلال هذه الفتحة ! » .

كان علي دوامي ، من خلال السماح لوجهه وحده بالظهور فوق الفتحة ، أن يعطي مظهر رأس قابع على الأرض . وربما لم يكن هذا في حد ذاته بالشيء المتعذر على نحو خاص بالنسبة له ، نظراً لبراعته في التمثيل الصامت ، ولكن تخيل القيام بذلك لوقت طويل للغاية دون أن تطرف له عين ! كان هذا هو الدور الذي أجبر دوامي على القيام به .

- أتفهم ؟ عليك بالتصرف كأنما لقيت حتفك تماماً . ينبغي أن تظل بلا حراك بالمرة ، إلى أن أمرك بغير ذلك . ولئن أتيت بأدنى حركة ، فإنني مستخدم معك سيفي .

وبعد توجيه هذه العبارة إلى دوامي ، التفت تيروكاتسو إلى السيدات :

- عليكن بمعاملته كأنه رأس رجل ميت . لا ينبغي أن تعتقدن أن دوامي رجل حي !

تخير ثلاث نساء . وعهد إلى كل بوظيفتها : غسل الرأس ، وضع أدوات التجميل عليها ، وإصاق لافتة التصنيف بها .

عندما تم تجميع مخراز وحوض ولوح للرؤوس ومنضدة ومبخرة ، والأدوات الأخرى الضرورية لبعث مشهد العلية ، اختفى دوامي المسكين تحت الأرضية ، من كتفيه فما دون ذلك ، وحول نفسه إلى رأس صامت لا يحير حراكاً . كان تعبير الموت الذي رسمه على محياه حاذق التنفيذ ، ولكن كلما كان أفضل ذكر الجميع بالمحنة التي يعانيتها دوامي ، في اصطناعه لهذا التعبير . وكانت النتيجة مضحكة للغاية . عندما فكرت السيدات في أن هذا المهرج ضرب اللسان يطبق ضاغطاً بأضراسه ، خوفاً من إهدار دمه ، شعرت بقدر من الشفقة عليه يقل عن رغبتهن في دفعه إلى العطس . ولكن بالنسبة لدوامي لم تكن هذه المحنة أضحوكة . « مصطنعاً هيئة مترعة بالأسى ، ثبت عيني على بقعة واحدة وأبقيت جفني مغمضين قليلاً . لم يكن بمقدوري ابتلاع ريقى الذي تجمع في فمي أولوي وجهي ، إذا ما شعرت برغبة في حك خيشومي . ولكن أقسى ما في الأمر أنه لم يكن بمقدوري أن أطرف بعيني . وحدثت نفسي قائلاً بأنه سيكون من الأفضل حقاً للمرء أن يلقي حتفه على احتمال مثل هذا العذاب » . وهذه الشكوى غير مألوفة من دوامي ، ولا بد لنا من الافتراض أن التجربة قد تركت أثراً عميقاً في نفسه . وغدت المحنة أشد قسوة مع الإطالة فيها ؛ لأن النسوة رحن يجذبن رأسه في خشونة إلى هذه الجهة وإلى تلك ، وهن يتدربن . لكن دوامي الذي يأخذ الأمور على عواهنها يمكنه أن يكون شخصية مقبلة كذلك ، وحتى في

غمار معاناته حرص على أن يرقب ما يجري في الغرفة . كانت عيناه ، بالطبع ، ثابتتين على نقطة واحدة ، وظلت الأشياء التي لا تقع في مجال رؤيته معتمدة ، عند ركن عينه . ولكنه بقدر الإمكان حرص على الانتباه الشديد إلى سلوك الناس في الغرفة وراقب وأصغى لكل شيء يتجلى للحواس .

كان ما بدا لدوامي أمراً شديداً الغرابة متمثلاً في الجدية القاتلة ، التي راح تيروكاتسو ينظر بها إلى ذلك المساق السريع العبثي في تمشيط شعر الرؤوس . وعندما كانت قصبة المشط تطرق رأس دوامي ، كان مما يبعث الضحك بالنسبة إليهن تقليده الجاد لوجه ميت . وشرعن في الضحك رغماً عنهن .

صاح تيروكاتسو ، بصوت باتر :

- من هي ؟ من التي ضحكت ؟

توهج الغضب سعيراً مسجوراً في عينيه . وللحفاظ على مناخ وقور تحدث في صوت خفيض ، ومنع النسوة من رفع أصواتهن . وعندما تخفق إحداهن في القيام ، على وجه الدقة ، بما قاله كان غضبه يتفجر مندفعاً . فحدثت النسوة أنفسهن بأن لعبة الليلة غريبة بعض الشيء . في البداية خامرهن الشك في أن الأمير ودوامي أعدا الأمر سلفاً كمزحة لإخافتهم . وكان رأس دوامي حقاً غير مناسب على الإطلاق للتدرب عليه ، على الرغم من تعبيره الحاذق ، والطريقة المقنعة التي بدا أن رأسه موضوع بها على الأرض ؛ لأنه كان لا يزال ملتصقاً ببدنه ، وما كان بوسع النساء تقلبيه أو التحرك به . واستحال مع قمة رأسه الحليق أي تدريب أو تمشيط للشعر . وكان استخدام بطيخة أمراً أسهل وأيسر ، فعلى الأقل ، كن سيوفرن على أنفسهن عناء إحداث فتحة في أرضية الغرفة . ولكن بدا أن

هناك شيئاً ما يقبع خلف توتر تيروكاتسو الجهم ، ولم تكن النسوة على يقين مما إذا كان يمزح أم لا . وانطبق الشيء عينه على دوامي في دور الرأس الذي يقوم به . فربما كان الأمير والسيدات يرفهون عن أنفسهم على حسابه ، فيما راح يحدث نفسه به ، ولكنه حينما لمح وجه تيروكاتسو ، لم يكن هناك فيه ظل للعبث ، وبدا التعبير الذي تخيله دوامي مرتسماً على محياه مخيفاً ، على نحو خاص ، حيث لم يكن بمقدوره رؤية الوجه بوضوح ، وإنما استشعر بوجوده على نحو ما . وحرك صوت تيروكاتسو كذلك خيال دوامي ، فخلال المحاضرة التي همس بها للسيدات ، كان صوته حاداً ، ويوحى بأن صاحبه جف حلقه ، كأنما هو صوت مريض محموم . تردد متوتراً ، بل وحتى محاكياً لصوت النساء . ولم يسبق لدوامي أن سمعه يتحدث على هذا النحو من قبل قط ، فسله عادة صوت المحارب ، الذي يتردد عميقاً ، فخيماً ، بعد أن صاغته ساحات المعارك . أما الليلة فقد كان يتحدث برعشة غير عادية كأنه يكافح من أجل السيطرة على نفسه .

وعلى أية حال ، سرعان ما توافر لدوامي سبب وجيه للشعور بالقلق ، ففيما كان تيروكاتسو يواصل محاضرتة عن تجميل الرؤوس ، وصلت مسيرة حديثه إلى موضوع « الرؤوس - النساء » ، وقال مشيراً إلى دوامي :

- إن هذا الرأس له أنف ، وذلك ليس بالأمر الواقعي تماماً ، فلا أستطيع تدريبك على النحو السليم ، دونما رأس - امرأة .

وقد أفعمت هذه الكلمات نفس دوامي بالخوف ، فالمحاضرة تنحو منحى خطراً ، وفي نهاية المطاف فإن وجهه الغالي قد يتعرض للتشويه . لقد أفلت من براثن الموت ، ولكن بدا أن أنفه ربما لا

يمكن إنقاذه ، ثم وكأنما في معرض تأكيد مخاوف دوامي ، دفع تيروكاتسو بأنف دوامي ، ضاغطاً إياه على شكل كماشة .
قال :

- هلم ! هلم ! أحضرن لي تلك الموسيقى ، فقد أبتز ذلك الشيء الآن ؛ ومن هنا يتسطح هذا الجزء ، ويغدو جميلاً ها هنا ، يصبح رأساً - امرأة حتماً ، أريد أن يكون كل شيء أصيلاً بحق الليلة .

حدث دوامي نفسه ، قائلاً بأن الأمر قد قضي ، وأسقط في يده ، لكن شوسيتسوين والوصيفات ذهبن لهذه الخطوة ، بحيث لم يحرن حراكاً ، فحرق تيروكاتسو في السيدات ، واحدة إثر الأخرى ، كأنه يتفقدهن بعينين متسعتي الحدقتين ، يخالط الدم بياضهما وتوهجان حد السطوع .

- ماذا دهاكن ؟ قلت لكن عليّ بتلك الموسيقى !

استقرت عيناه على أجمل التابعات ، وكانت فتاة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، تدعى أوهيسا . انكمشت أمام نظرتة الحادة ، وأخفت وجهها الريان البريء ، كأنما تبتهل أن ينقضي هذا الرعب وشيكاً . ولكن فيما كان تيروكاتسو يحملق في شعرها الأسود المتألق ، الذي ينسدل على كتفيها ، وفي الأصابع البيضاء الرقيقة ، التي استقرت في حجرها ، زحفت ابتسامة مرتجفة إلى شفتيه مجدداً .

ناداها قائلاً :

- أوهيسا ، أوهيسا ، هاتي الموسيقى !

- لبيك ، يا مولاي !

كان ردها مسموعاً بالكاد ، نهضت وهي لا تزال منكسة الرأس ،

وفيما الهواء الصامت يرتجف في مسار نسيم رقيق ، ألقى ضوء
المصباح ظلاً مراوحاً بين البروز والتراجع على وجه دوامي .
- اجلسي ها هنا !

قالها تيروكاتسو ، ناقلاً الفتاة بإشارته لتجلس أمام الرأس ،
وأضاف :

- اقطعي ! امسكي بالموسى هكذا ، أجل على هذا النحو ، ثم
اقطعي الأنف ها هنا ، أبقيه مسطحاً ونظيفاً !

- نعم ، يا مولاي !

- استمري ! هذا رأس رجل ميت ، ليس هناك ما تخشيه .

- عفوك يا مولاي !

- كفاك ! اقطعي ! اقطعي ، أقول لك !

ارتجفت يد أوهيسا ، فيما هي تمسك بالموسى متشنجة
الأصابع . أدخل الأمر الذي أصدره تيروكاتسو الرعب في قلبها ،
لكن وجه دوامي أخافها على نحو أكبر ، فحتى في ذلك الوقت كانت
العينان مستقرتين على بقعة واحدة ، وظل التعبير المرتسم على وجهه
على حاله كذي قبل . كان ساكناً ، على نحو مفزع ، فراحت تحدث
نفسها بأنه ربما كان ميتاً حقاً ، حاولت الضغط على قصبة أنفه
والطرق عليها ، فابتعدت أصابعها الرشيقة ، وقد غزاها البرد ،
وكستها الرطوبة . أمعنت النظر فيه ، فرأت عرقاً بارداً يتحدر من
جبينه على صدغه . ثم حينما التمع نصل الموسى أمام وجه الميت
غدا الوجه شاحباً ، على حين غرة .

الآن ، حل الدور على شوسيتسوين لتتحدث :

- مولاي ، أتوسل إليك ، أرجوك أن تبقي عليه !

- لا ، ليس هناك شيء في غمار قطع أنف ميت ، لن تكون
أوهيسا ذات جدوى لي أبداً ، إذا أخافها مرأى الدم ، إنني أريد
تعليمها !

- ولكن عليك بالتفكير في دوامي المسكين . ألا تؤثر في نفسك
الطريقة التي يطيع بها أوامرك ؟ أرجوك ، أرجوك ، ضع في الاعتبار
إخلاصه وأبق عليه !

فجأة بدا تيروكاتسو واعياً بذاته ، فصدرت عنه ضحكة واهنة :
- ها ، ها ، ها . ليكن ، ليكن ! ما دمت ترغبين في ذلك .
سأتجاوز عن هذه الفكرة .
- آه ، أحقاً ستفعل ذلك ؟

غدت ضحكة تيروكاتسو أكثر مرحاً الآن .

- ها . ها . ها . هوني عليك ! إنما كنت أمزح فحسب ، عندما
قلت إننا سنبتز أنفه . لقد كان تقليده متقناً للغاية ، حتى دفعني إلى
محاولة إخافته .

ثم التفت إلى دوامي :

- أحسنت ، إنك تنفذ أوامري على وجه الدقة . وأخذاً في
الاعتبار بموقفك الطيب ، سأدعك تحتفظ بأنفك ، لكنني سأطليه
باللون الأحمر ، ها ، ها ، ها ، ما رأيك ؟ أنت ممتن لي ،
إن كنت ممتناً فقل ذلك !

ظل الرأس صامتاً ، كأنه حجر .

- أجبني ! فقد أذنت لك بالحديث .

- أجل ، يا مولاي !

قالها دوامي أخيراً ، لكنه ظل مبقياً على التعبير الميت ذاته ،
وتلاعب بصوته كما لو كان يتناهى من مكان آخر .

- أتحمس بعدم الارتياح في وقتك ؟

- أجل يا مولاي !

- ولكن عدم ارتياحك أفضل من بتر أنفك . أليس كذلك ؟

- بلى ، يا مولاي !

- آه ، ها ، ها ، ها . إنه طريف حقاً .

سرعان ما جلبت أوهيسا ، مكان الموسيقى ، طلاء أحمر وفرشاة . وبعد أن طلت أنف دوامي باللون الأحمر المتألق ، نسيت الشابات خوفهن ، الذي ساورهن قبل لحظة ، وشرعن في الضحك الطفولي . وكالمعتاد ارتفع رنين صوت شوسيتسوين المرح . وتدريباً ، تم إقناعهن بأن تيروكاتسو قد خدعهن بخدعة مقيمة ، وفي نهاية المطاف ، غدا دوامي ألعبه لهن .

صحن ، وهن يلطمنه على رأسه :

- دوامي ، دوامي ، هاك ! يفترض أن تكون ميتاً !

ورحن يوسعنه إيلاماً بالمخرز في شحمتي أذنيه وخديه ،

مضيفات :

- إن تحركت أخبرنا سموه ، فقتلك !

وبعد أن أفرغن طاقة خبثهن كاملة ، وغادرن الغرفة ، سمح له

في نهاية المطاف بالزحف إلى خارج الفتحة الموجودة في الأرضية ،

والعودة إلى الحياة من جديد .

وفيه يسفح دوامي دمع الاستنار

وتخزن شوسيتسوين

لم تنته الأهواء المتقلبة التي اعتملت في صدر تيروكاتسوبانتهاء

تلك الليلة . ففي الليلة التالية ، كذلك كان في حالة مزاجية معابثة .

ومتصنعاً أنه طاغية صغير ، راح يستحث شوسيتسوين والوصيفات على مشاركته في التلاعب برأس دوامي . وأمر باللون الأحمر ، فطلى به الأنف ، وقال :

- الليلة دعونا ننظر إليه من الفراش !

وفي التو أمر بإحضار فراش إلى الغرفة واضطجع مع زوجته ليستمتعا بمنظر أنف دوامي الأحمر .

بالنسبة لدوامي ، كانت تلك محنة تفوق محنة الليلة السابقة ؛ ففي تلك الليلة كان عليه أن يواظب على وضعه ذاك ، خلال ساعات المساء ، ولكنه استعاد حريته مجدداً ، في وقت متأخر من الليلة . أما هذه المرة فقد اضطر للوقوف تحت الأرضية ، طوال الليل ، ورأسه ناتئ من الفتحة . وتعطي مذكراته الانطباع بأن الغرفة كانت فسيحة ، والفتحة التي يطل برأسه منها في منتصفها ، على وجه التقريب . وأمر تيروكاتسوبنصب فراش شوسيتسوين على بعد عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً من الفتحة ؛ أي من رأس دوامي ، فيما امتد فراشه هو على بعد أقدام قليلة إلى الوراء من فراشها . كان الصيف ينشر على الدنيا غلالته الحارة ، فعلمت كلة رقيقة فوق فراشي الديميو الشاب وزوجته . ووضع مصباح على كل من جانبي رأس دوامي وستارة تطوى وراءها ، بحيث يمكن رؤية الرأس بوضوح من تحت الكلة . وعلى الرغم من أن دوامي كان بمقدوره أن يتبين على نحو معتم السطح اللين للكلة في الظلام ، إلا أنه لم يكن باستطاعته رؤية شيء من الزوجين المضطجعين داخلها .

ولكن كان هناك المزيد مما يمكن أن يضاف إلى معاناة دوامي ، فوق هذا كله . فبعد أن صرفا الوصيفات ، شرعا في معاقرة الشراب من جديد .

- أعلى هذه الشاكلة يتبدى الرأس - المرأة يا مولاي !؟

قالتها شوسيتسوين متسائلة ، ولم تكن طويلة الباع في عالم الشراب ، لكنها عندما سكرت ، بدا لها كل شيء طريفاً ومسلماً .
والليلة بصفة خاصة كانت تبدو شديدة المرح ؛ ربما لأن زوجها دفعها إلى تناول العديد من أقذاح الساكي .

- كلا ، بالمرّة . فهناك تجويف في وجه الرأس - المرأة بدلاً من أنف أحمر . إنه أشد فظاعة .

أغربت شوسيتسوين في الضحك .

- الآن ، ونحن وحدنا ، ألا يخيفك هذا الرأس قليلاً ؟
- إطلاقاً .

- وماذا لو لم أكن معك ؟

- سأكون على ما يرام ، حتى ولو لم تكوني هنا . ما الذي يبعث على الخوف في رأس أحمر الأنف ؟ إنه تدفعني إلى الضحك فقط .

- ومن تلك التي شحب وجهها عندما دعوت بالموسى البارحة ؟

- تلك أكذوبة ، أكذوبة . كيف أمكنك قول شيء كهذا !

- لكنه صحيح . بل كنت أكثر شحوباً من أوهيسا .

- طيب ، ساورني شعور بالأسى على دوامي ؛ ولذا طلبت منك

التوقف . لم أكن خائفة .

- أتساءل إن كان هذا صحيحاً .

- ما أقبح هذا ! أتظنني خائفة العزم على هذا النحو ؟

- إذا كان ذلك الرأس يعود إلى جثة حقيقية ، ترى أكانت

تواتيك الشجاعة لجر الأنف بنفسك ؟

- بالطبع . إنني أقوى من أوهيسا ، أتمنى أن تفكر في شيء مخيف أكثر من ذلك ، شيء أكثر امتلاءً بالتحدي .

قادهما تضاحكهما ، على نحو ما ، إلى موضوع رؤوس الكهنة العاديين .

قال تيروكاتسو :

- بالمناسبة ، أين تعتقدين أن لافتة التصنيف تثبت على رأس أصلع ؟

- أين تضعها ؟

- تحدثين ثقباً في الأذن ، وتثبتين لافتة التصنيف هناك .

- ثقب في الأذن !

قالتها ، ومن جديد انفجرت ضاحكة . أضافت :

- لكنني أحسب أنه ليست هناك طريقة أخرى . أهنأك غيرها ؟

- ما رأيك ؟ لو كانت لديك الشجاعة فعليك بتجريب المسألة .

شيء بسيط كهذا لن يؤذي أحداً .

- بم أحدث الثقب ؟

- يكفي مخراز أو طرف سكين . طعنة صغيرة ، لن تؤذي على الإطلاق .

- نعم . طيب . الأمر قاس قليلاً ، لكنني أحسب أنني سأجربه .

- هلمي ! هلمي !

وتتردد الضحكات .

- لا تحاولي التنصل من الأمر بالضحك !

- لست أحاول التنصل منه ! فكلما تطلعت إلى هذا التعبير ،

ازددت رغبة في القيام بالأمر .

- يبدو كأنه يقول : أرجوك قومي به ! أرجوك قومي به !
ويتردد المزيد من الضحكات .

- أواثق أنت أن كل شيء على ما يرام ؟
- أجل ، بالطبع .

تطلعت شوسيتسوين خارج الكلة قائلة :

- دوامي ، أتستطيع سماعنا ؟ أيمكنك الاستماع لحوارنا ؟
سمحت لك بالحديث .

رد رأس دوامي :

- أجل ، يا سيدتي !

- إنها طعنة صغيرة ، بمقدورك احتمالها .

- نعم ، يا سيدتي !

- يقول إن الأمر ليس مؤلماً ، على الإطلاق .

- نعم ، يا سيدتي !

- عندما أفكر فيك وهذا التعبير مرتسم على وجهك ، ولافتة دالة

تتدلى من أذنك ، لا أستطيع مقاومة الأمر .

- نعم ، يا سيدتي ! هذا أمر طبيعي فحسب .

- الآن عليك بالصمت من جديد !

كان الساكي ، الذي يفوق استيعابها ، قد دفعها إلى التخلي عن

تحفظها المعتاد ، وراحت تتحدث كأنها ولد شقي .

- أرجوك ، تعال وانظر يا مولاي !

- علينا أن نصنع لافتة . أحضري ورقة وسكيناً !

- نعم ، نعم . ها هما لدي ، هنا !

خرجت بالفعل من الكلة ، مستخرجة سكيناً وورقة من صندوق

أدوات كتابتها ، وهي تضحك في ابتهاج . وعلى النحو التالي يصف دوامي ما وقع :

« أمر سموه باستخدام أذني اليمنى . فأمسكت الأميرة شوسيتسوين بشحمة أذني اليمنى في يدها ناصعة البياض ، وتفحصت رأسي للحظة ، وندت عنها ضحكة خفيفة ، لا تفوت الأذن . راح الأمير تيروكاتسو يرقب من الجانب . تساءل : « هل استبد بك الخوف ؟ » . فردت قائلة بابتسامة مشرقة : « ولم ينبغي أن أخاف ؟ انظر إلى هذا التعبير عن الموت المرتسم على محياه ! إنه مسل لل غاية . لا بد أن الخوف أخذ منه كل مأخذ . لكن هذا التقليد رائع . لا يبدو عليه أنه يدرك أي شيء مما يجري حوله » . أمسكت السكين بيدها اليمنى ، ودفعت بها في شحمة أذني اليمنى ، فلوث مسيل الدم يدها ، التي تحاكي الكتان الأبيض في لونه . وحتى عند ذاك ، واصلت جمودي ، كأني ميت . قالت ضاحكة : « يا له من كائن صبور ! » ولكن ربما كانت روحها المعنوية قد تداعت ، في نهاية المطاف ، ذلك أنها دون أن تتلفظ بشيء ألصقت اللافطة مسرعة بأذني ، وهرعت عائدة إلى داخل الكلة مع زوجها . ومضيا في حديثهما حتى وقت متأخر من الليل بأعظم قدر من الدفء والحميمية » .

ويواصل دوامي ، اعترافاته ، قائلاً :

« لم يحدث بعد ذلك أبداً أن استدعيت لتمثيل دور الرأس ، وأمر سموه بتغطية الفتحة الموجودة في الأرضية . وعندما مثلت في حضرة الأميرة شوسيتسوين ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، حدثت دونما ارتياح في جرح أذني ، وقالت : « احتسيت في تلك الليلة من الساكي أكثر مما ينبغي لامرأة ، وقد سلبني رشدي ، فعاملتك

بقسوة ، وإنني لأرجو أن تسامحني ! » . رددت قائلاً : « لكنني مفعم بالامتنان ، فلم يكن هناك ما يحول دون قيامك بقتل رجل لا شأن له يذكر مثلي ، لكنك بدلاً من ذلك أبقيت على حياتي . وهذا الخدش اليسير ليس بالأمر الذي يكثر له على الإطلاق . وفي حقيقة الأمر ، فإنني لن أنسى قط ، لا في هذه الحياة ولا في الحياة التي ستليها ، أنك قد لمستني بيدك » . انخرطت في البكاء عرفاناً وامتناناً ، ولا يزال هناك ندب في أذني اليمنى ، ولكنني حينما أفكر فيه باعتباره تذكراً من الأميرة النبيلة في لهوها ، فإن أذني هذه لا تبدو منتمية إليّ على الإطلاق » .

أيمكن أن ترتكب امرأة رقيقة وورعة من نوع شوسيتسوين مثل هذا الخطأ ؟ إن من الصعب الاعتقاد بهذا ، والمرء لا يود أن يقول به . لأن هذا الخطأ سيكون الشائبة الوحيدة في حياتها ، التي امتدت ما يزيد على الثلاثين عاماً ؛ ذلك أن قيام زوجة ديميو ، استجابة لخاطرة سكرى ، بإحداث ثقب في أذن إنسان حيّ هو أمر كافٍ ، ما لم يضعه المرء في ضوء ما سبقه من أحداث ، للقضاء على سمعتها ، وإلقاء ظل على شخصية بديعة . ولكنني أود أن أطلب من القارئ أن يضع موضع الاعتبار أنها كانت يافعة في عامها الرابع عشر ، وأن تلك كانت حيلة زوجها ، التي أعدّها مسبقاً ، وأنها هي التي دفعتها خطوة فأخرى للوقوع في غلطتها تلك .

وربما كان تيروكاتسو قد بدأ في وضع خطته ، عندما تعرف على دوامي لأول مرة . وقد غير موقفه المتسم بالبرود نحو شوسيتسوين ، واجتذبها إليه ، ثم جلب دوامي إلى القصر الداخلي ، وحرص على أن يكتسب هذا الأخير قلوب شوسيتسوين ووصيفاتها . ولكن يبدو من المحتمل أن نيته الوحيدة كانت تنفيذ مشهد « التدريب على تجميل

الرؤوس». ولا بد أن هدفه منذ البداية كان جعل دوامي يقلد الرأس - المرأة ، لتحريض شوسيتسوين على إحداث ثقب في أذنه ، ثم التحديق في الرأس ، بينما يتبادل مع زوجته الملاحظات ، تحت الكلة . وخلاصة القول ، إنه أعاد بعث المشهد الذي صورته في أخيلته الجامحة ، منذ مغادرته لقلعة جبل أوجيكا . وبإحلال دوامي محل نوريشيجي وشوسيتسوين مكان الأميرة كيكيو ، راح يخفف من وقر العذاب الذي استشعره ، منذ افترق عن محبوبته الأولى .

ورغم ذلك ، فإن الحقيقة القائلة بأن شوسيتسوين قد استمتعت ، ولو للحظات ، بتعذيب دوامي ، وأنها قد انغمست في هذه اللعبة التي تقشعر لها الأبدان ، والبعيدة كل البعد عن سلوكها العادي ، يبدو أنها تقف شاهداً على وجود استعداد مسبق ، عند كل النساء ، إذا ما تم توجيههن بالشكل المناسب ، للتمتع بالقسوة ، وبتعبير آخر على وجود ميل بغيض إلى الوحشية . وعند معظم النساء ، وبخاصة في حالة امرأة ذات ذهن سام ، مثل شوسيتسوين ، فإن هذا السلوك لا يستمر طويلاً . والصورة الواردة عن اعتذارها ، المشوب بالانزعاج ، في كتاب « اعترافات دوامي » تفصح عن مدى ندمها على هذا الخطأ المحزن ، الذي ارتكبته . وعلى الرغم من أنها لم يقدر لها أن تستشف حقيقة دوافع زوجها المقيتة ، فلا بد أنها قد أحست بأن هناك شيئاً غريباً في تصرفات زوجها ، واستشعرت بصورة حدسية فزعاً وقلقاً غامضين . ولئن كان الأمر كذلك ، فلا بد أن أهم سبب لذلك هو تجربتها في تلك الليلة ، عندما : « مضيا في حديثهما حتى وقت متأخر من الليل بأعظم قدر من الدفء والحميمية ». وتقول الكاهنة مايوكاكو في كتابها الموسوم « حلم ليلة » إن شوسيتسوين لم تضطجع قط مع أمير موساشي ، لكن هذا لا يعدو

أن يكون تخميناً من جانبها . فشهادة دوامي ، الذي كان خارج الكلمة مباشرة ، لا تدع مجالاً للشك . ومن الواضح أن تيروكاتسو قد نقل الفراشين إلى تلك الغرفة ؛ لأنه كان يعتزم استخدام منظر رأس دوامي كعنصر استشارة . وعلى أية حال ، فإنه من الأمور المألوفة بالنسبة لعروس ساذجة أن تنظر فجأة إلى الرجال باعتبارهم مخلوقات مقرزة . وهكذا ، يمكننا أن نتخيل ما هو الانطباع الذي تركه تيروكاتسو في نفس شوسيتسوين ، بهذه الحيلة الخسيسة . صحيح أنها شاركت في اللهو خلال خمارها ، ولكنها حينما عادت إلى وعيها ، أدخلت ذكرى تلك الساعات الكابوسية الرعب في قلبها . ولا شك أنها استشعرت ، وإن يكن ذلك على نحو غامض فحسب ، أن تيروكاتسو يريد أن يلعب اللعبة ذاتها ، في الليلة التالية أيضاً . ولكن رغباته أحبطت بعد تلك الليلة الأولى . فعلى نحو ما يقول دوامي : « لم يحدث بعد ذلك أبداً أن استدعيت لتمثيل دور الرأس ، وأمر سموه بتغطية الفتحة الموجودة في الأرضية » . إذن ، ففي الفترة ما بين الليلتين تباعدت مشاعر الزوجين الشابين . وأياً كان دأب تيروكاتسو في السعي وراء اللذة ، فقد ألقى نفسه يفتقر إلى الصفاقة اللازمة لامتهان شوسيتسوين من جديد ، في مواجهة حزنها وندمها الممزوجين بالورع .

الكتاب السادس

وفيه تسقط قلعة أويكا

ويؤثر نوريشيجي

يتضمن كتاب « حوليات حرب تسوكوما » الصورة التالية :

« طوال سنوات عديدة ، عهد الأمير نوريشيجي ، متعللاً بسوء حالته الصحية ، بإدارة شؤون مقاطعته إلى كبار الحاشية ، واعتكف في القصر الداخلي ، حيث دفعه توليه بالأميرة كيكيو إلى نسيان شؤون الحكم كلية . ولم تبد الأيام والليالي بالنسبة له ممتدة بما فيه الكفاية ليترع نفسه باللذة من « الستارة الخضراء والمخدع القرمزي » . وشعر الجميع ، ابتداء من الساموراي حتى العامة ، بالقلق على مصير آل تسوكوما . في الشهر الأول من عام ١٥٥٩ ، أصدر نوريشيجي أمراً مفاجئاً ، بالقيام بحملة ضد أتباع معبد هيجاكاي ، في مقاطعة أسانوما ، وبعث شيدا تومينوكامي على رأس ثلاثة آلاف فارس لإخضاعهم ، ويمكن رد خلفية هذا التحرك إلى خريف عام ١٥٥٧ ، عندما قام أحد كبار رجال حاشية آل ياكوشيجي ، ويدعى بابا إيزومينوكامي ، باغتصاب مكانة سيده ، بمساعدة من قوات معبد إيشياما هونجان . وإذ حرم الأمير ماساهاید من المقاطعة ، التي حكمها أسلافه ، على هذا النحو ، سارع بالهرب من ميناء ساكاي إلى الأقاليم الوسطى ، واختفى ، دون أن يترك وراءه أثراً . وقد حزنت الأميرة كيكيو زوجة الأمير نوريشيجي ، والأخت الصغرى للأمير ماساهاید ، أشد الحزن لذلك . وكان آل تسوكوما وآل ياكوشيجي قد ارتبطا ، من خلال المساعي الحميدة

للمحكومة العسكرية ، برابطة المصاهرة وبعهود الصداقة المتبادلة لسنوات طويلة ، ومع ذلك فإن الأمير نوريشيجي رغم سقوط آل ياكوشيجي تجاهل الخيانة التي أبدأها بابا ، ولم يحرك ساكناً للانتقام لأصهاره . وقد اعتقدت الأميرة كيكيو أن مثل هذا الجمود عار على عائلة المحارب ، ولكن الأمير نوريشيجي كان في حالته الراهنة يفتقر إلى مضاء العزم للقيام بأي شيء ، وكل ما كان بوسعها هو أن تحزن لارتباطها بمثل هذا الزوج العاجز . وذات ليلة ، ورغماً عنها ، انهل دمعها على وجه زوجها خلال نومه ، فاستيقظ ، وسألها دهشاً عما يدعوها إلى البكاء . وفي البداية ، بدا من المستحيل بعث الغراء في نفسها ، ولم تحر رداً ، لكنها في نهاية المطاف رفعت رأسها ، وقالت : « لقد أطاح تابع خائن بيت أبي وأسلافي ، واختفى أخي الوحيد . ويستبد بي الحزن الآن لأنني أوشك على فقد زوجي على يد الخائن نفسه المدعو بابا » . وشرعت في البكاء ، دون أن يرقأ لها دمع . دهش الأمير نوريشيجي إلى أبعد حد ، وألح عليها لتمده بمزيد من المعلومات ، فقالت إن بابا قد اجتذب أتباع معبد هيجاكى إلى صفه ، وراح يتآمر معهم على الإطاحة بآل تسوكوما . وكبرهان على هذا أطلعته على رسالة سرية ، ففتح الوثيقة ، وقرأها . وبدا أنها رسالة من معبد هيجاكى إلى بابا ، تتضمن دعوة صريحة لغزو مقاطعة تسوكوما ، من الشرق والغرب . وعندما سألها عن كيفية حصولها على هذه الرسالة ، قالت إن تابِعاً سابقاً لآل ياكوشيجي يدعى ماتوبا شينزابورو (وهو ابن لمربية الأميرة) وقع على الرسالة ، بمحض الصدفة ، فمررها إلى أمه . وسارع الأمير نوريشيجي ، الذي اعتقد أن هذه الرسالة أمر شديد الخطورة ، إلى عقد اجتماع مع كبار أتباعه ومساعديه ، حيث أعرب لهم عن شعوره بالانزعاج . أشار المساعدون إلى أن أتباع معبد هيجاكى قد ظلوا ، على امتداد

سنوات طويلة ، يلتزمون موقفاً ودياً بشكل خاص من آل تسوكوما ، وخدموهم عبر عدة أجيال بإخلاص لا مثيل له ؛ ومن هنا فإنه لا يعقل أن يتحالفوا مع الخائن بابا ، وأن يرفعوا السلاح في مواجهة تسوكوما . وخلصوا إلى أنه لا يتعين الاعتقاد على نحو غير انتقادي بأن الرسالة صحيحة ، كما لا ينبغي شن حملة على أتباع هيجاكى إلا بعد تدبر حريص للأمر . أصغى الأمير نوريشيجي لما يقال ، ثم متسائلاً : « أتشكون في زوجتي ؟ » اندفع غاضباً ليعتكف في القصر الداخلي . وعقب ذلك ، واصلت الأميرة كيكيو نواحيها ، متوسلة ليلة وراء الأخرى : « حتى إذا كان الشك يداخلك في الرسالة . فمن المؤكد أن أتباع هيجاكى هم أعداؤك . ومعلوم للكافة أن رفاقهم من أتباع مذهب إيكو قد ضموا قواتهم إلى قوات بابا لطرده أخى . أرجو ألا تتردد أكثر من هذا في التنكيل بهم ! » . وبشكل ما بلغ أمر هذه المخاوف معبد هيجاكى ، في الوقت نفسه ، على وجه التقريب ، فدهش أتباعه ، ذلك أنهم ، على امتداد سنوات التحالف ، لم يضمروا شراً لأمراء تسوكوما ، وبالتالي كان مثار قلق شديد لهم أن يعتقدوا بأن قوة سترسل ضدهم لمعاقبتهم ، دونما ذنب جنوه ، فقرروا أنه من الخير لهم شن هجومهم الخاص ، وإثبات شجاعتهم ، بدلاً من القعود وانتظار إلحاق الدماء بهم . وفي أخريات عام ١٥٥٨ ، على وجه التقريب ، شرعوا في حشد قوة هائلة .

ربما كان سقوط قلعة أوجيكا قد بدأ بالهجوم على أتباع مذهب إيكو ، على نحو ما يقول التاريخ الرسمي ، ولكن بوسعنا الافتراض بأن أمير موساشي ، في غمار عمله من وراء الستار ، قد دفع الأميرة كيكيو إلى إقناع نوريشيجي ، وفي نهاية المطاف إحداث مواجهة مع أتباع معبد هيجاكى . ذلك أن تيروكوني ، أمير موساشي ، قد توفي

في الشهر العاشر عام ١٥٥٨ في قلعة جبل تامون . وتولى تيروكاتسو رئاسة العشيرة مكان أبيه ، وحمل لقب أمير موساشي ، وبما أنه لم يعد هناك أحد يستطيع كبح جماح طموحه ، غدا بمقدوره إعداد ما يشاء من المخطط . ويديهي أن هدفه الأول كان الأمير العاجز القابع فوق جبل أوجيكا ، تسوكوما نوريشيجي ، المجرد من الأنف والأذن ، والقابع مكتوف اليدين ، في انتظار حتفه . راح أمير موساشي ، في غمار اتقاده بشهوة امتلاك الأراضي ، يرمق جيرانه بعين النمر الجائع ، فرأى الطريدة المثالية . ولئن ترك الفرصة تضيق ، فمن المؤكد أن غيره سينقض عليها . ولم يكن هناك ما يدعو إلى التردد ، لسوف يسبق الآخرين ، ويستصفي مقاطعة تسوكوما لنفسه . ولكن من المؤكد أن الأمير موساشي كانت تحركه دوافع أخرى غير الطموح كذلك . ففي سويداء قلبه تحرك شيء لا علاقة له بتطلعاته باعتباره قائداً عسكرياً - حب هادئ ، رقيق ، لا يروى له ظمأ . وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن مرحلة شهر عسله مع شوسيتسوين قد انتهت بالإحباط ، قبل انقضاء ثلاثة أشهر على زواجه . ويبدو أنه بعد أن فشل في صب عروسه في القالب الذي يريده ، اجتذب مجدداً ، وبمزيد من الاندفاع ، إلى محبوبته التي تقطن جبل أوجيكا . ولكي يروي غلة هواه ، لا شيء يمكن أن يكون أفضل من إسقاط معقل آل تسوكوما ، والاستيلاء لنفسه على ممتلكات نوريشيجي كافة ، ومن بينها زوجته . ومن جديد توافقت شهوة تملك الأراضي وشهوة الجسد ، وهذه الأخيرة ، على الرغم من أن المرء لا ينبغي له أن يصدر أحكاماً عجلى على دوافع سلوك رجل عظيم ، ربما تكون أكبر حافز لتحركه .

والآن ، فيما يتعلق بمدى صدق الرسالة التي أطلعت الأميرة

كيكيو نوريشيجي عليها ، والمتضمنة نداء من أتباع هيجاكى إلى باب
إيزمينو كامى ، لا نجد إجماعاً في أي مصدر على القطع بوجه من
الأوجه على صحتها أو كذبها ، لكن الظروف توضح أن الرسالة كانت
مزورة . وبوسعنا أن نفترض أيضاً أن ماتوبا شينزابورو ، الوارد ذكره
في « الحوليات » هو أخ أصغر لماتوبا زوشو وماتوبا دايسوكى ، وأن
الأميرة كيكيو وأمير موساشي قد عهدا ، في غمار التواطؤ الذي اتفقا
عليه ، بالرسالة المزورة إليه ، وتآمرا للإيقاع بين جبل أوجيكا ومعبد
هيجاكى . وهكذا ، في الشهر الأول من عام ١٥٥٩ ، انطلق جيش
شيرا تومينو كامى نحو مقاطعة أسانوما ، بناء على أوامر نوريشيجي .
لكن أتباع معبد هيجاكى دفعوا المزارعين المحليين إلى القيام بتمرد
شامل ، واشتبكوا مع الجيش المهاجم ، على قاع نهر آسادي ، عند
التخوم بين مقاطعتي تسوكوما وهيجاكى . وفي معركة ضارية ، تم
سحق قوة تسوكوما ، على الرغم من أنها كانت تقدر بضعفي العدو
الذي ألحق الهزيمة بها ، فلاذت بالهرب عائدة إلى قلعة أوجيكا ،
التي بعثت بجيش ثان ، لكنه لقي المصير نفسه . وانطلقت قوات
هيجاكى التي ازدهاها النصر تاركة لنفسها الحبل على غاربه ، تمنع
القتل والتخريب ، في مقاطعة تسوكوما . وخلال شهر واحد ،
استولت على عدد من القلاع الثانوية . وكان رجال مذهب إيكو قد
حركهم التهديد الذي تعرض له وجودهم ، فراحوا يدافعون عن
أنفسهم ، ولكنهم أدركوا في ساحة القتال مدى ضعف عددهم الآن
حقاً ، وشيئاً فشيئاً ازدادت ثقتهم بأنفسهم . ويرجع نجاحهم ، في
أحد جوانبه ، إلى قوتهم وتسليحهم الكبيرين ، ولكنه كان كذلك
دليلاً على فقدان عشيرة تسوكوما لسلطانها ، وعلى سوء تصرف أمور
الحكم في المقاطعة ، وتدهور الحالة المعنوية للمقاتلين . وخلال
عهد إيكانساي ما كان ليتمكن لرهبان مذهب إيكو لدى تمردهم أن

يحدثوا كل هذا الدمار . وراح كبار الأتباع في جبل أوجيكا ينظرون إلى هذا الوضع بمزيد من الانزعاج ، فلئن لم يتم إخضاعهم على الفور ، فإن المقاطعة ستندلع فيها النار ، حتى لتغدو كعش الزنابير الغاضبة . بدا واضحاً أن يوكوا بوزين ، الذي كان قد أعلن التمرد في قلعة تسوكيجاتا ، قبل خمس سنوات ، قد اتصل بالرهبان المتمردين وأوشك على التحرك ، وسرعان ما سيتورط بابا في الأمر كذلك . وبما أنه لم تكن هناك جدوى إلا من الإخضاع الكامل للتمرد ، فقد عهد إلى تسوكوما شوجين هاروهيسا ، رئيس كبار الأتباع ، بقيادة قوة مؤلفة من أكثر من عشرة آلاف رجل . والتقى في مقاطعات أسانوما وكوريو وشيهارا بجموع الفلاحين المتمردين ، وأطبق على قاعدتهم من ثلاثة جوانب . ورغم أن قوة هيجاكى كانت أكبر من ذي قبل ، إلا أنها كانت في ثلث تعداد جيش تسوكوما ، واضطرت بالفعل إلى التراجع إلى معقلها في أسانوما ، وهناك لم يكن أمام رجالها إلا أن يدعموا الأسوار ، ويعمقوا غور الخنادق ، ويحاولوا الدفاع عن أنفسهم . واستمر صمودهم لمدة شهر ونصف الشهر ، إلى أن طلب قادتهم رسمياً في الشهر الخامس العون من سيد جبل تامون ، أمير موساشي .

كانت مقاطعة أسانوما ، التي تترست فيها قوات هيجاكى تقع بين مقاطعتي تسوكوما وموساشي ، حيث يحكم تسوكوما إلى الغرب وأمير موساشي إلى الشرق . ولدى انطلاق تسوكوما شوجين في حملته التأديبية بعث بموفد إلى جبل تامون ، حاملاً أمراً بالهجوم على المتمردين من الخلف . ولكن أمير موساشي تملص بمرونة بالغة ؛ فقد قال في رده : « كانت عشيرتي مدينة لأمير تسوكوما منذ عهد أبي ، تيروكوني ؛ ومن ثم فإنني ، في الموقف الراهن ، أرغب في القيام بكل ما في وسعي لتقديم العون لكم . ومن

سوء الحظ أننا كنا من الأتباع المخلصين لمذهب إيكو ، منذ عهد والد جدي ، وتربطنا علاقة وثيقة بالقائمين على أمور معبد هيجاكى . إذن فارتباطنا بآل تسوكوما يمتد إلى جيلين ، وصلتنا بمذهب إيكو تتواصل عبر أربعة أجيال . وبناء على هذا ، فإنه إذا تعين عليّ التحالف مع أي من الجانبين ، لاضطرت إلى الانحياز إلى جانب هيجاكى . ولكن حيث أن تلك ليست رغبتى الحقيقية ، فإنني أرجو السماح لي بأن أظل على الحياد ، لأتمكن من خلال ذلك من الوفاء بالتزاماتي حيال الجانبين » . وربما لم يكن هذا إلا مجرد ذريعة . وكان قادة التسوكوما في جبل أوجيكا يشعرون بالقلق من بابا إيزومينو كامى بسبب الرسالة السرية ، وتشككوا في أنه هو الذي حاك خيوط تمرد هيجاكى ، ولكن ليس هناك برهان على أن بابا كان ضالعا في الأمر . وهكذا ، فإن شكوكنا تتجه نحو أمير موساشي ، فحياده يبدو مريباً تماماً ، ويوشك المرء على القطع بأنه كان يدعم أتباع معبد هيجاكى . وعندما أهابوا به إلى مساعدتهم ، تظاهر بالرفض مرة أو مرتين ، بطريقة مراوغة ، متعللاً بالورطة التي يجد نفسه فيها ، ولكن في وقت لاحق ، وعندما حمل دفع لا ينقطع من الموفدين طلباتهم بالنجدة ، أزاح قناعه في نهاية المطاف ، وكشف عن تصميمه على مساعدة أتباع مذهب إيكو : « حتى الآن ، وإعراباً منا عن امتناننا لإيكانساي ، رفضت توسلات أتباع هيجاكى . ولكن نقد صبري كله حيال جمود وعجز عشيرة تسوكوما ؛ فقد هاجموا قوة مؤلفة من عدة آلاف بجيش يماثلها ثلاث مرات ، ومع ذلك ، فقد انقضى شهر ونصف الشهر ، ولم يحققوا هدفهم . إن الأمير والأتباع على جبل أوجيكا سيئون إلى ذكرى إيكانساي . ومن الواضح تماماً بالنسبة لي أنهم سرعان ما يفقدون مقاطعتهم ، ويقضون على عشيرتهم بسوء تدبيرهم . لم أعد أستطيع البقاء ساكناً ومراقبة هذا

المشهد ، فقررت مساعدة أتباع هيجاكى ، وإنقاذ الفلاحين من الحكم السيئ والاضطراب اللذين يعانون منهما . صحيح أنني مدين بالفضل لإيكانساي ، ولكن لم ينبغي أن أتردد في الحلول محل أناس خائري العزم كهؤلاء؟». استدعى موفداً من تسوكوما ، كان قد وصل لتوه ومعه رسالة من نوريشيجي ، وأبلغه بالبيان السابق الحافل بالخيلاء ، وأضاف قائلاً : « اذهب وقل لنوريشيجي ما قلته » ، وفي التوبعث بالموفد إلى جبل أوجيكا .

كان أمير موساشي آنذاك في الثانية والعشرين من العمر . وقد شارك في الحرب عدة مرات ، لكن تلك كانت فرصته الأولى ، لينطلق على رأس جيش ، أجيد اختيار رجاله قائداً وأميراً على مقاطعة . وقد أتت سنوات عديدة من التخطيط ثمارها المرجوة . وكان الوقت أوان ظهور بطل جديد ، في ساحة القتال ، لسوف يطير صيته ، وسيمثل السلطان والهوى أمام عينيه ، في انتظار بسط يده عليهما . ليس من المتعذر تصور الرضا الذي لا بد أنه غمره . انطلق ، في منتصف الشهر السادس ، من جبل تامون ، على رأس ثمانية آلاف فارس ، ولحق بقوات هيجاكى ، في مقاطعة أسانوما ، ولكن تسوكوما نظراً لعدم رغبتهم في مواصلة هجومهم غير المثمر ، طووا معسكرهم ، دونما قتال ، الأمر الذي مكن أمير موساشي وقوات هيجاكى من استرداد كوريو وشيهارا ، على التو . وبينما القوات الحليفة تنطلق مطاردة العدو ، أدرك الكثيرون من أصحاب القلاع على امتداد الطريق الجهة التي تهب منها الريح ، وانضموا إليهم ، وبدورها رفعت قلعة تسوكيجاتا راية التمرد ، وانطلقت تخضع القلاع المجاورة لها . ولكن تفاصيل هذه الحملات مسجلة في كتاب « حوليات حرب تسوكوما » ، وما من حاجة تدعونا إلى التطرق إليها

هنا . وعبر اتصال دائب ، كل فريق مع الآخر ، أطبقت القوات الحليفة من الشرق ويوكو بوزين من الجنوب على مقاطعة تسوكوما ، إلى أن ضموا صفوفهم معاً ، وأحاطوا بقلعة أوجيكا . وكان ذلك في الشهر الثامن لعام ١٥٥٩ ، أي بعد عقد من الزمان تماماً من محاصرة ياكوشييجي دانجو ماساتاكاهي لها .

بلغ عدد القوات المشتركة ، المؤلفة من رجال أمير موساشي وهيجاكي ويوكو ، حوالي قوام جيش ياكوشييجي ، أي نحو عشرين ألف رجل . وفي البداية ، صمد في القلعة نحو سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل ، ولكن مع زيادة عدد اللاحثين وقوام القوات المهاجمة تراجعت القوة إلى ثلاثة أو أربعة آلاف مدافع . وفي عهد إيكانساي صمدت القلعة شهرين ، وتمكنت في النهاية من تجنب الهزيمة . ولكن في هذه المرة بدأ الهجوم في اليوم الخامس عشر ، وفتح الحصن الثالث في اليوم الحادي والعشرين ، وانتزع الحصن الثاني وحرم القلعة نفسه في السابع والعشرين . كل ذلك في أحد عشر يوماً لا غير . وبحسب ما جاء في كتاب « حوليات حرب تسوكوما » ، فإن نوريشييجي ظل معتكفاً في القصر الداخلي ، طوال الحصار ، تاركاً أمر القتال المباشر لكبار رجال الحاشية . ولكنه في منتصف ليل الثاني والعشرين أدرك أن القلعة لا يمكن أن تصمد طويلاً ، فعهد بابنه ، ذي الأعوام الثمانية ، وابنته ، ذات الأعوام الستة إلى مربيتهما ، وبعث بهم جميعاً إلى ملاذ آمن . وفي ضحى اليوم السابع والعشرين ، وعندما قيل له إن العدو قد اقتحم حرم القلعة ، تبادل قدحاً من الساكي مع زوجته ، ونظم مقطوعة شعرية للموت ، ثم حسب رواية كتاب « الحوليات » انهال على زوجته طعناً حتى الموت ، وأشعل النار في القصر ، وأقدم على الانتحار . ولكن إذا

صدقنا كتابي « حلم ليلة » و « اعترافات دوامي » ، فإن هذه الصورة لا يمكن أن تكون صحيحة ؛ فهي تقول إن نوريشيجي قد انتحر بطريقة السيوكو ، أي ببقر بطنه ، لكنها لا تحدثنا باسم من استكمل طقوس السيوكو وقطع رأسه . وبحسب ما يقوله كتاب « الحوليات » ، فلم يعثر على ما بقي من جثتي الزوجين ، على الرغم من التفتيش الدقيق للأطلال المتفحمة . وهذا النوع من ان 'روحات ليس بلا سابق . فهناك قصة تقول إن ميتسوهايد قد استنشر أشد الضيق ، حينما لم يتم العثور على رأس نوبوناغا ، رتت وقوع حادث هونوجي في ١٥٨٢ . ولكن إذا كانت الرؤوس والجثث قد غدت رماداً تماماً ، في جبل أوجيكا ، فمنذا الذي روى أشعار الموت المدرجة بجلاء في كتاب « الحوليات » ؟ وكان نوريشيجي يمقت أن يرى أحد وجهه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدنو منه ، اللهم إلا امرأته . ومن الغريب أيضاً أن أشعار الوصيفات محفوظة في السجلات ، على الرغم من أن ناظمات هذه الأشعار يفترض أنهن لقين حتفهن في المحرقة . ليس من المستبعد أن أحدهم صاغ هذه الأشعار ، معتقداً أنه بما أن نوريشيجي كان مولعاً بالشعر إلى حد الإدمان ، فمن الضروري أن تكون هناك قصيدة للموت . وعلى أي حال ، فلا بد أن مؤلف كتاب « حوليات حرب تسوكوما » كان أحد أتباع بلاط تسوكوما ، ولنا أن نفترض أنه حتى ولو كان عرف بالحقيقة ، فإنه ما كان ليكتب شيئاً يسيء إلى العشيرة .

وإذ نتبنى نظرة موضوعية إلى الصياغة الرسمية للأحداث ، دعنا إذن نتقل إلى الصورة الواردة في « اعترافات دوامي » ، فعندما اقتحم أمير موساشي البوابات ، ودخل حرم القلعة ، في صباح اليوم السابع والعشرين ، رأى ألسنة اللهب تتعالى من القصر الداخلي ،

ففرق شمل جنود المشاة ، الذين اندفعوا نحوه ، واندفع إلى نفق الحب القابع أسفل السور الحجري الكبير . تخلص من درعه عند الفتحة ، وشق طريقه مسرعاً عبر النفق ، وضج بالسعال وسط الدخان المتكاثف وانطلق ، عبر الدهاليز ، إلى غرف نوريشيجي .

- معذرة !

قالها ، ورفس الباب بقدمه . كان نوريشيجي يوشك على طعن زوجته في صدرها ، لكن تيروكاتسو قبض بعنف على يده :
- داني ! داني ! أهول لاه !

صرخ بها نوريشيجي ، وقد أخذ على حين غرة ، فلم يتح له الوقت للنظر إلى الغريب ، الذي تبدى له من قلب الدخان ، وكل ما استطاع القيام به هو التملص في يأس .
- لا تكن مندفعاً يا مولاي !

فيما كان تيروكاتسو يصرخ ، على هذا النحو ، في نوريشيجي اليائس ، حرر طوق الأميرة من قبضة زوجها ، ولكي يحميها دفع بجسمه ، كأنه ترس بينهما .

- هيروهاتسو !

صاح نوريشيجي دهشاً ، وطرف بعينيه ، وقد عمه الحرج ، كأنما تلقى صفعه على وجهه . فاغتنم تيروكاتسو الفرصة ، وانتزع السيف من يد نوريشيجي ، ثم باذلاً قصارى جهده حتى لا يتطلع إلى وجه نوريشيجي ، تراجع إلى المسافة اللائقة ، وانحنى انحناء عميقة .

من منظور نوريشيجي ، كان تيروكاتسو عدواً ، جديراً بالكراهية ، فهو قد خان واجبه والدين الذي يطوقه به إيكانساي ،

وزج بنوريثيجي في هذه الورطة ، ولكن هذا الأخير لم يتوقع أن يبرز عدوه في مكان كهذا . وعندما التقت عيناهما ، حدث نفسه قائلاً : « آه ! لقد رأى وجهي » مستشعراً حرجاً يفوق المقت . وحقيقة الأمر أن تيروكاتسو ، حينما كان يزور مخدع الأميرة كل ليلة ، كانت تسمح له غالباً بإطلاقات مترعة بالنشوة على وجه نوريثيجي الفريب . ولم يكن يراه للمرة الأولى ، ولكن نوريثيجي لم يكن أمامه سبيل لمعرفة هذه الحقيقة . ظن أنه أفلح في إخفاء فقدان أنفه ، ولكن الآن ، لشدة الأسف والغضب ، رآه عدوه ، فيما هو يوشك على الانتحار ، ومضى كل حذره عبثاً . شعر بالانسحاق تماماً ، وكان يخشى في المقام الأول أن يسيء إلى اسم عائلته . وباعتباره الابن العاجز ، الذي أهدر المنجزات العظيمة التي حققها أسلافه ، كان على استعداد للتكفير عن ضروب فشله بالانتحار ، ولكن لئن مات الآن فإن رأسه سيقع بين يدي تيروكاتسو ، ثم سيعرض لتحديق فيه عيون العامة ، ويتساءل الناس : كيف استطاع مواصلة الحياة بوجه كهذا ؟ إن بمقدوره احتمال فضيحته ، ولكن كيف يستطيع تجنب الإساءة إلى الذكرى التليدة لأسلافه ؟ لم يدر ماذا عساه يصنع . لم يكن بمقدوره مواصلة الحياة ، وليس بإمكانه الموت ، في ظل هذه الظروف . كانت خطته هي أن يقتل زوجته ، ثم يرتمي على السنة اللهب ، بحيث لا يبقى شيء من شكله القبيح . ولكن لئن احتز رأسه ، لما تمكن من مواجهة أبيه في العالم الآخر ، لسوف يصرخ به العجوز ناري الطباع ، قائلاً : « أيها الأحمق ، عد فاسترد أنفك وأذنك ! »

- ه . . . ه . . . هروها تسو !

رد تيروكاتسو بانحناءة أشد عمقاً :

- لبيك ، يا مولاي !

- أنا هه تهاطفه هاموراي . ره هي صيفي ! ولا تاهه راهي !

في غمار انفعاله ، تفاقت صعوبة فهمه . وبدا أنه يقول :
« أناشد تعاطفك كساموراي . أعد لي سيفي ! ولا تأخذ رأسي ! » .

بعد أن خمن تيروكاتسو هذا القدر ، رد بهدوء قائلاً :

- إن تعاطفي كساموراي هو الذي يجبرني على إيقافك .

راح يتحدث بكل التوقير ، الذي يستحقه مولاه السابق ،
مضيفاً :

- آسف لقولي هذا ، ولكن سرعان ما يشق المهاجمون طريقهم
إلى هنا . ولئن قتلت نفسك فمن المؤكد أن أحدهم سيجد رأسك ،
حتى ولو لم آخذه . ففكر في العار الذي ستجلبه على أجيال مضت
وأخرى ستأتي .

- ه . . ه . . هيروهاتسو !

- لبيك ، يا مولاي !

- هلهي الأهير ! هه راهي ! وافها هتي لاراها أهه !

- ماذا ؟ ماذا تقول ؟

وإذ رأى أن تيروكاتسو لا يعرف كيف يستجيب لما قاله ، كرر
في احتياج شديد : « هلهي الأهير . . . هلهي الأهير . . » ضاق
ذرعاً ، فمد عنقه ، وأشار بضربة قاطعة بيده : « راهي ! راهي ! » .
أخيراً أدرك تيروكاتسو أنه يقول : « طلبي الأخير ! اقطع رأسي !
وادفنه حتى لا يراه أحد ! » . ولكن في ذلك الوقت كان الحريق
يندلع ضارياً حولهم ، والريح ، مصدرة أنينها من خلال الصدوع ،
تلقي باللسنة اللهب الرهيبة . ولربما كان من شأن الأميرة كيكيو

ونوريشيحي وأمير موساشي ، الذين ربطهم قدر غريب مشؤوم أن يصبحوا أسعد حالاً ، لو أن دوامة النار الجحيمية تلك قد ابتلتهم . ولا بد أن نوريشيحي ، على الأقل ، قد رغب في ذلك . ولربما ظنت الأميرة كيكيو أنها يمكن أن تفي بواجبها نحو الرجلين معاً بأن تلقى حتفها إلى جانبيهما في ألسنة اللهب . لقد اكتمل انتقامها ، وأطفئت سخيمة أبيها ، ومن شأن اصطحاب زوجها الأشرم مجدوع الأنف مبتور الأذن معها إلى العالم السفلي أن يكون خير هدية لأبيها . من المؤكد أن ذلك سيكون أفضل من مواصلة الحياة في هذه الدنيا ، مكلفة بالعار ، ومراكمة الخطايا . ولكن أمير موساشي ، وحده من بينهم ، كانت لديه الإرادة والقوة لمقاومة النيران . كان قد ترك ثلة من الجنود مع آوكي شوزين ، الذي كان يعرف القلعة حق المعرفة ، وأصدر إليه تعليماته بأن يسرع مباشرة إلى القصر الداخلي . وشاقاً طريقه عبر النار المستعرة ، وصل شوزين في اللحظة المناسبة . وفي وقت واحد حذا خمسة أو ستة أتباع حذو سيدهم ، منطلقين عبر النفق السري ، وأقبلوا مسرعين .

- دع كل شيء لي يا مولاي !

قالها تيروكاتسو ناهضاً ، وعند هذه الإشارة أحاط جنود شوزين ، دونما ضجة ، بنوريشيحي . وأمسك بطل هذا المشهد الكوميدي المثير للرائع من ذراعيه وقدميه وحمل ، عبر الحديقة ، إلى الممر الجبلي السري .

وبالطبع ، تم إنقاذ الأميرة كيكيو ، مع الآخرين ، ولكن ثلة الجند التي اندفعت إلى القصر الداخلي هي وحدها التي علمت بهذه الحقيقة . بينما اعتقدت قوات هيجاكى ويوكو أو معظم رجال الأمير موساشي أن نوريشيحي وزوجته قد لقيا حتفهما في الحريق . وقد

جاء في كتاب « اعترافات دوامي » أن نوريشيجي والأميرة نقلتا سرّاً إلى قلعة جبل تامون ، وأنزلتا في دارة منيفة ، تقع في قلب مكان يدعى « الوادي الثالث » ، كانت معروفة لكل الأتباع باسم « قصر الوادي الثالث » ، ولكن ما من أحد منهم كان يعرف هوية من يقطنه ، ولم يدرك أحد ، اللهم إلا دوامي وقلّة من الأتباع ، أن أمير موساشي كان غالباً ما يمضي إلى هناك ، في وقت متأخر من الليل . وقد يظن أنه من قبيل الخور وسقوط الهمة أن يواصل نوريشيجي الحياة ، في ظل هذه الظروف ، بعد أن أسر سرّاً ، وراح يمضي الشهور والسنوات الكثيرة في قلعة عدوه . ولكن الحقيقة هي أنه كان تحت مراقبة مشددة ليلاً ونهاراً ، وأبعدت عن متناوله كافة وسائل الانتحار ، فلم تتح له فرصة لبقر بطنه ، ولم تكن أمامه وسيلة لمنع الآخرين من رؤية وجهه بعد موته ، وهكذا ، وعلى نحو لا سبيل إلى تجنبه ، تشبث بالأعوام الباقية من عمره . ولكن على صعيد الحياة العائلية ، ربما كانت السنوات التي أمضاها في قصر الوادي الثالث هي أسعد سنوات عمره التعس . فلم تعد هناك حاجة إلى إزعاج ذهنه بالمسائل العسكرية والحكومية ، التي لم يكن مؤهلاً لها على أية حال ، وقدم له عدوه الرؤوف كل احتياجاته . وبصفة خاصة ، أحضرت إلى الدارة أورا ابنة نوريشيجي ، التي كان قد أبعدتها مع أخيها عن القلعة قبيل سقوطها (ويبدو أن الصبي قد عثر عليه ، وقتل سرّاً) بحيث أن الأب والأم والابنة كان بمقدورهم أن يعزي أحدهم الآخر في وحدتهم ، ويتمتعوا بحياة عائلية هادئة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الأميرة كيكيو تعرض فؤادها لتغير كبير ، بعد سقوط القلعة ، فتخلت عن القسوة ، التي مكنتها من الاستمتاع بالقضاء على زوجها ، وعادت إلى طبيعتها الأنثوية الحقة . وفي غمار شعورها بتعاطف وإشفاق حقيقيين على قبح زوجها ، الذي ساهمت فيه ،

راحت تكافح ، كزوجة مخلصه ، وكأم محبة ، للتوبة والتخلص من خبثها السابق ، وهكذا نما بينهما للمرة الأولى حب كامل وعاش نوريشيجي بتحقيق عاطفي لم يعرفه من قبل قط ولكن تقلب فؤاد الأميرة كيكيو ، على هذا النحو ، كان معناه أن أخيلة أمير موساشي قد انتهت إلى الإحباط ، فهو ، بتأثير الطموح والهوى ، أوقع الهزيمة بآل تسوكوما ، واستطاع الاستمتاع بأسلابه ، دونما اكتراث برأي الآخرين . ولا بد أن شعوره بخيبة الأمل كان حاداً ، عندما رأى ، بعد إحضار محبوبته إلى قلعته ، أن مشاعرها لم تعد كعهدها قبلاً . ومن الطبيعي تماماً أن الأميرة كيكيو لم تطق مواصلة علاقتهما السابقة ، فبعد أن تأرت لأبيها لم تعد تكن إلا الود لزوجها ، ولا بد أنها قد ارتجفت فرقاً من هول الخطايا التي اقترفتها . ويقول تصور آخر إن برود الأميرة كيكيو المفاجيء حيال أمير موساشي قد نشأ من نكوله عما وعدها به ، وقيامه بقتل ابنها . وربما كان الأمر كذلك ، ففي المقام الأول كان أحد أهدافها من الاستعانة به هو الحصول على مساندته في تربية طفلها ، وبخاصة الصبي ، ليصبح سامورائياً عظيماً ، وبذا تحافظ على نسل حكام تسوكوما .

وهكذا ، فإن حبل الهوى ، الذي امتد بين أمير موساشي والأميرة كيكيو ، قد انقطع ، حينما نقلت إلى قصر الوادي الثالث . وحتى نهاية عمره ، الذي امتد اثنين وأربعين عاماً ، ظل الأمير ينشد نساء جديدات ، واحدة إثر الأخرى ، ليشاركهن مصدر الإثارة المحير ذاك ورغبته المثيرة للتقزز تلك . لكن تلك قصة أطول مما ينبغي ومن شأنها الإساءة إلى ذكرى الأمير . ولعل أصوب سبيل هو ألا نوغل فيها أكثر من ذلك . وإني لعلى يقين من أنكم ، إذا ما علمتم بالجانب

السري من حياة أمير موساشي الجنسية ، فإنكم ستصلون إلى
اكتشافات مذهشة ، عندما تظالعون كتاب « حوليات حرب تسوكوما »
وغيره من كتب التاريخ الرسمية . وعلى أمل الوصول إلى تحقيق هذا
كتبت هذه الصفحات .

المربطة

أ . الملك السماوي

انقضى عقدان من الزمان ، منذ ارتحلت إلى دواخل منطقة يوشينو في ياماتو . كان ذلك في حوالي عام ١٩١٢ ، في نهاية عهد مييجي أو بداية عهد تايشو ، عندما لم تكن وسائل المواصلات المتوافرة اليوم موجودة بعد ؛ ولذا فعليّ أن أبدأ قصتي بإيضاح ما دفعني إلى الانطلاق إلى تلك الأعماق الجبلية التي وصفت مؤخراً بأنها « جبال ألب ياماتو » .

وكما لعل الكثير من قرائي يعرف ، فإنه في المقاطعة الممتدة حول نهر توتسو وكيثا ياما وقرية كاواكامي تواصلت منذ زمن بعيد أساطير تدور حول وارث للبلاط الجنوبي ، لا يزال سكان المنطقة حتى اليوم يدعون له بـ « سيد البلاط الجنوبي » و « الملك السماوي » . ويقال إن حفدة الملك السماوي أو الأمير كيتاياما كان حفيداً لحفيد الإمبراطور جوكامياما . وهو ليس بالشخصية الأسطورية فحسب ، وإنما قد وجد بالفعل ، كما يؤكد المؤرخون المختصون في دراسة هذا العهد . ولكي نقدم موجزاً في هذا الصدد نقول : توضح نصوص مدرسة التاريخ الوسيط في معظمها أنه في عام ١٣٩٢ وخلال عهد الشوجون يوسيمتسو ، أبرمت مصالحة واندمج البلاطان المتنافسان ، الأمر الذي وضع حداً للبلاط الجنوبي ، بلاط يوشينو ، بعد سبعة وخمسين عاماً من إقامته . ولكن في وقت متأخر من ليل الثالث والعشرين من الشهر التاسع لعام ١٤٤٣ ، شن من يدعى

كوسونوكي جيرو ماساهايد ، والذي كان موالياً للأمير مانجوجي من السلالة الجنوبية هجوماً مفاجئاً على قصر تسوتشيميكادو ، وسرق الرموز الإمبراطورية الثلاثة ، ولاذ مع أتباعه بجبل هاي . وقد هاجمتهم قوة مطاردة من العاصمة ، فأقدم الأمير مانجوجي على الانتحار ، وتم استرداد رمزين من الرموز الإمبراطورية ، هما السيف والمرآة ، لكن الجوهرة ظلت في أيدي أتباع البلاط الجنوبي . وعند ذاك تحولت عشيرتا كوسونوكي وأوتشي بولائهما إلى نجلي الأمير مانجوجي ، وشكلتا جيشاً موالياً لهما ، ولاذتا بالهرب إلى آسي ، ثم كاي وياماتو ، وأخيراً إلى جبال يوشينو النائية ، بعيداً عن مطال جيش البلاط الشمالي . وهناك رفعوا آيات التكريم للابن الأكبر باعتباره الملك السماوي ولأخيه باعتباره الشوجون ، وأطلقوا على العهد اسم « تنساي » . وطوال ما يزيد على ستين عاماً حرسوا الجوهرة في واد بين الجبال يصعب على العدو العثور عليه . وفي الشهر الثاني عشر من عام ١٤٥٧ احتال عليهم من بقي من أتباع عشيرة أكاماتسو ، فقتل الأميران ، وقضي على النسل الجنوبي أخيراً . إذن فعلى مدار مائة واثنين وعشرين عاماً ، أي في الفترة من ١٣٣٦ إلى ١٤٥٧ ظل المنحدرون من ملوك البلاط الجنوبي في يوشينو وعارضوا جناح العاصمة .

وبما أن سكان يوشينو قد توارثوا التقليد المتمثل في تأييد البلاط الجنوبي فمن الطبيعي أن يردوا عهده من حيث بدايته إلى الملك السماوي ، وهم يصرون على القول بأن البلاط الجنوبي قد دام « لا ما يزيد قليلاً على خمسين عاماً ، وإنما استمر ما يزيد على القرن » . وقد اهتمت بدوري بالتاريخ السري للبلاط الجنوبي منذ مطالعتي لكتاب « تايهيكى » في صباي وأردت أن أكتب رواية تاريخية يقوم صرحها

حول الآثار التي تختفي وتبين والتي خلفها وراءه الملك السماوي .

تقول مجموعة منشورة من المأثورات الشفاهية من قرية كاواكامي إن أتباع البلاط الجنوبي في غمار خشيتهم من هجوم من جانب البلاط الشمالي بادروا إلى الانتقال من شيونوها عند سفح جبل أودايجاهارا إلى واد يدعى سانوكو ، يضرب في أغوار الجبال التي لا يعرف إلا القليل عنها باتجاه مضيق أوسوجي على حدود إقليم آيسي . وهناك بنوا قصرًا لأميرهم ، وأخفوا الجوهرة المقدسة في كهف . ويسجل كتابا « حوليات كوتسوكي » و « حوليات أكاماتسو » أن ثلاثين لاجئًا ينتمون إلى عشيرة أكاماتسو تحت قيادة ماجيما هايكوتارو ، بعد أن شقوا طريقهم بالكذب إلى البلاط الجنوبي قد استغلوا فرصة تساقط الثلج بكثافة في اليوم الثاني من الشهر الثاني عشر لعام ١٤٥٧ لشن هجوم مفاجيء . هاجم فريق منهم قصر أوكوتشي الذي يقيم به الملك السماوي ، فيما انطلق فريق آخر إلى قصر الشوجون في وادي كونو . وقد دافع الملك السماوي عن نفسه مستخدماً سيفاً طويلاً ، لكن الخونة ، في نهاية المطاف تعامدوه بسيوفهم فمزقوه تمزيقاً ، ولاذوا بالهرب حاملين رأسه والجوهرة المقدسة . غير أن هطول الجليد أعاق مسيرتهم ، فلم يبلغوا عند المغيب إلا ممر أوباجامين ، وهناك دفنوا الرأس في الجليد ، وأمضوا ليلتهم . وفي صباح اليوم التالي هاجمهم قادة القرى الثمانية عشرة التي تضمها يوشينو . وفي غمار احتدام القتال انبعث الدم شاخباً من رأس الملك من تحت الجليد ، فتمكن القرويون من استعادته .

وتختلف تفاصيل هذه الحادثة هوناً من مصدر إلى آخر ، ولكن ليس هناك مجال للشك ؛ فهي تظهر كذلك في كتب « التقدم الأمبراطوري نحو التلال الجنوبية » و « سجلات الجنوب » و « حوليات

السحابة المزدهرة» و« حوليات نهر توتسو» . فضلاً عن ذلك فإن حوليات كوتسوكي وأكاماتسو كتبها مخضرمون شهدوا هذا القتال أو كتاب انحدروا من صلبهم . وقد ورد في أحد الكتب أن الملك كان في الثامنة عشرة من عمره . وكانت إعادة آل أكاماتسو إلى سابق مجدهم بعد سقوطهم في تمرد كاكتيسوهي المكافأة التي تلقوها على اغتيال الأميرين وإعادة الجوهرة المقدسة إلى العاصمة .

وبسبب تعذر الوصول إلى المنطقة الممتدة من جبال يوشينو حتى كومانو في الجنوب ، فقد بقيت عدة أساطير مقارعة الدهر . وليست العائلات التي حافظت على استمرار أصولها عبر أجيال عديدة من الظواهر غير المألوفة هناك . ويقال ، على سبيل المثال ، إن جانباً من دارة هوري في أنافو ، التي نزل بها الأمباطور جودياجو ذات مرة ، لا تزال قائمة ، بل ويشغلها الآن أبناء العائلة . وكذلك تزدهر ذرية تاكيهارا هاتشيرو الذي يظهر في كتاب « أمير المعبد العظيم يهرب إلى كومانو» في تايهاكي . وقد مكث الأمير مع هذه العائلة لبعض الوقت وأنجب ولداً من ابنتهم . وهناك مأثورة أقدم ظلت متداولة على الألسن في ضيعة جوكتيسوجو على جبل أودايجهارا . وإذا يؤكد أبناء القرى المجاورة أن سكان جوكتيسوجو هم من سلالة غيلان فإنهم لا يتزوجون فيهم أبداً ، كما أن سكان الضيعة أنفسهم لا يرغبون في الزواج من خارج ضيعتهم ، وهم يقولون إنهم أحفاد الفيلان الذين شقوا الطريق للناسك العظيم إن - نو - جايوجا . وبما أن تلك هي طبيعة الإقليم ، فهناك عدد من العائلات العريقة التي يقال لها « أبناء الأصول » الذين يذهبون إلى القول بأنهم ينحدرون من أصلاب المحاربين المحليين الذين عملوا في خدمة البلاط الجنوبي . وحتى اليوم فإنهم يحتفلون بذكرى « سيد البلاط

الجنوبي « كل عام في الخامس من فبراير بتجسيد جليل للحفل العتيق الذي يقام للعام الجديد في معبد كونجو قرب كاشيواجي ، وهو الموضع الذي كان مقاماً فيه قصر الأمير الشوجون في وادي كونو . وفي هذه المناسبة ، يسمح لـ « أبناء الأصول » بارتداء أزياء رسمية تحمل الشعار الإمبراطوري المتمثل في زهرة الأقحوان ، ويحظون بالأسبقية على الحاكم والمختار وغيرهما من الموظفين الرسميين .

وما كان يمكن لهذه المواد المختلفة ، بعد اطلاعي عليها ، إلا أن تزيدني تحمساً للرواية التاريخية التي كنت أعد لها . وليس بمقدور كاتب أن يتطلع إلى قائمة موضوعات واعدة على نحو يفوق القائمة التالية : البلاط الجنوبي ، براعم يوشينو ، الأماء الجبلية الغامضة ، الملك الشاب ، كوسونوكي جيرو ماساهايد ، الجوهرة المقدسة المخبأة في أغوار الكهف ، والرأس وهو يشخب دماً عبر الجليد . وكان مسرح الأحداث رائعاً ، فهناك جبال ، غدران ، هوات ، قصور وأكواخ ، أزهار كرز في الربيع ، وسقوط أوراق الأشجار في الخريف ، كما أنها لم تكن خيالا بلا أساس ؛ فقد توافرت بالطبع كتب التاريخ الرسمية وسجلات الأحداث والوثائق ، وكل ما يرغب فيه المرء ، وبمقدور الكاتب أن يؤلف كتاباً مشوقاً بمجرد قيامه بترتيب الحقائق التاريخية الماثلة بين يديه على نحو مناسب . ولو أنه أضاف قليلاً من التجميل وأورد في نسيج العمل مآثرات شفاهية وأساطير مناسبة ، وجعل معالم الطبيعة تتدفق بمن فيها من أبناء المنطقة - أحفاد الغيلان ، نساك أوماين ، زوار كومانو - وأبدع من خياله بطلاً جميلة لتناسب الملك السماوي (ربما أميرة تنحدر من صلب أمير المعبد العظيم) لكان العمل أكثر تشويقاً . ورحت أحدث نفسي بأنه

من الغريب أن مثل هذه المادة شديدة الثراء لم تجتذب انتباه كاتب من قبل قط . صحيح أن باكين ترك عملاً غير مكتمل تحت عنوان « سيرة حياة رجل مقدام » ، لكنني لم أقرأ هذا العمل ؛ حيث أنه فيما يبدو يركز على أميرة خيالية من كوسونوكي تدعى كوما ، وربما لم تكن له علاقة بتاريخ الملك السماوي . وبخلاف ذلك فيبدو أن هناك عملاً أو عملين يعودان إلى عهد توكوجاوا يتناولان أباطرة يوشينو ، ولكن من المشكوك فيه توافقهما مع الحقائق التاريخية . وخلاصة القول ، فإنني لم أر هذا الموضوع يعالج في أي من الأشكال المعتادة سواء أكانت روائية أم شعرية أم مسرحية ، وقد عقدت العزم على الاستفادة من هذه المادة قبل أن يجرب أحد حظه في تناولها .

غير أنني عند هذا المنعطف ، ومن خلال صلة غير متوقعة ، تمكنت من معرفة المزيد عن جغرافية هذه الجبال والعادات السائدة فيها . فقد كان لي صديق من أيام الدراسة يدعى تسومورا ، وعلى الرغم من أنه هو نفسه من أبناء أوساكا ، إلا أن له أقارب يقيمون في كوزو في يوشينو ، وقد تمكنت عن طريقه من الاستفسار عن المنطقة .

كان هناك مكانان يطلق عليهما اسم كوزو على نهر يوشيرو . وكان اسم المكان الواقع في أدنى النهر مكتوباً بالشكل الدال على « المرنطة » ، بينما اسم المكان الواقع قريباً من منبع النهر (حيث يقيم أقارب تسومورا) مكتوب بالشكل الدال على « الوكر الريفى » . والمكان الأخير هو الذي اشتهر من خلال مسرحية النوا الموسومة « كوزو » والتي تدور حول الأباطور تيمو .

لكن أياً من القريتين اللتين يطلق عليهما اسم كوزو لم تكن تنتج نشا المرنطة ، أو كوزوكو الذي اشتهرت به يوشينو . ويكسب معظم أبناء كوزو العليا رزقهم من صنع الورق ، وما زالوا يستخدمون طريقة

بدائية لم تعد قائمة في أي مكان آخر إلا فيما ندر ، وهي تبيض ألياف أشجار التوت في مياه نهر يوشينو واستخدامها في صنع الورق يدوياً . وكان أقارب تسومورا من القائمين على صنع الورق ، بل إنهم في حقيقة الأمر أكبر منتجيه في القرية ، وكان لقبهم هو كومبو ، وهو لقب غريب لكنه منتشر تماماً في موطنهم . وقد قال تسومور إن عائلة كومبوهي عائلة عريقة ربما يمكنها أن من بين أسلافها عدداً ممن عملوا في خدمة البلاط الجنوبي ، وقد تعلمت من هذه العائلة القراءات الصحيحة لرموز شيونوها وسانوكو ، وكانت عائلة كومبوهي التي أبلغتني بأن المسافة من كوزو إلى شيونوها تزيد على خمسة عشر ميلاً ، عبر ممر جوشا الحافل بالأخطار ، ومن هنالك خمسة أميال حتى مدخل وادي سانوكو وعشرة أميال أخرى إلى أقصى النقاط إيغالا في الداخل ، حيث يقال إن الملك السماوي كان يقطن ذات يوم . ولكنهم كانوا يبلغونني بما سمعوه ليس إلا ، ذلك أنه ما من أحد من أبناء كوزو مضى إلى هذا الحد صعداً مع النهر قط . وقال نوتي جاء منحدرًا مع النهر إنه في أعماق الوادي ، في حوض يقال له سهل هاتشيمان ضيقة تضم خمسة أو ستة من الفحامين ، وإنه بعد ذلك بثلاثة أو أربعة أميال ، في السهل المخبوء ، عند رأس الوادي كانت هناك آثار للقصر وكذلك للكهف الذي أخفيت فيه الجوهرة المقدسة غير أنه لم يكن هناك طريق بالنسبة لتلك الأميال العشرة فيما وراء فم الوادي ، وإنما امتداد من الصخور ، ومن هنا فإنه حتى نساك يامابوشي المتمون إلى جبل أوماين لم يكن بمقدورهم اللهم إلا بالكاد الوصول إلى هذه المسافة . ولم يكن المقيمون حول كاشيواجي ينطلقون عادة إلى أبعد من النيابيع الحارة الفائرة إلى جوار النهر عند شيونوها . وفي حقيقة الأمر فإنه إذا توغل المرء في الوادي فإن بمقدوره أن يرى عدداً كبيراً من النيابيع الحارة المتفجرة من

منتصف التيار المتدفق وشلالات لا حصر لها ذات ارتفاع شاهق ، مثل شلالات مايوجين . ولكن هذا المشهد الخلاب لم يكن معروفاً إلا لقاطني الجبال والفحامين .

وزادت قصة النوي من ثراء عالم روايتي . وأضيفت هذه الجزئية الكاملة ، أي الينابيع الفائرة المتدفقة من نبع جبلي إلى المواد الواعدة ، التي سبق لي بالفعل تجميعها . لكنني استكملت الآن بحثي فيما يتعلق بكل شيء يمكن تمحيصه من بعيد . ولو أن تسومورا لم يستحثني ، فمن المؤكد أنني ما كنت لأنطلق إلى هذه الأماد الجبلية . كان لديّ الكثير من المواد بحيث أن خيالي يمكنه تدبر أمر الباقي ، حتى دونما زيارة للمكان . وفي حقيقة الأمر فإن هناك مزايا معينة في الانطلاق على هذا النحو . ولكن تسومورا كتب لي في نهاية شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر من ذلك العام ، واستحثني بقوله : «لم لا تأتي معي؟ لن تتاح لك فرصة أفضل من هذه الفرصة» . قال إن عليه القيام بزيارة أقاربه في كوزو، وقد لا أستطيع المضي حتى سانوكو، ولكنني إذا درست التضاريس وعادات الناس حول توزو فمن المؤكد أنني سألم بالكثير مما سيفيدني في وقت لاحق . وفي المنطقة ما يفوق تاريخ البلاط الجنوبي ، وبإمكانني في يسر العثور على مواد محلية كافية حول موضوعات أخرى لروائتين أو ثلاث روايات ، فلم لا أستغل وعيي المهني حتى أقصى طاقته ؟ لن يكون في ذلك إهدار لوقتي ، والموسم مناسب تماماً للسفر ، حقاً إن مواسم ازدهار الكرز في يوشينو سارت بذكرها الركبان ، ولكن الخريف كان جميلاً كذلك .

لقد امتد حديثي هذا ليغدو مقدمة ضافية ، لكن تلك هي الظروف التي قررت في ظلها فجأة الانطلاق في رحلتي . كانت

لـ « الوعي المهني » الذي تحدث عنه تسومورا علاقة بالأمر ، ولكن في الحقيقة فإن فكرة الانطلاق في رحلة مريحة للأعصاب في الريف أكثر إقناعاً .

٢ . إوساكا

انطلق تسومورا من أوساكا إلى نارا في اليوم المحدد ، وشغل غرفة في فندق يدعى موساشينو ، عند سفح جبل واكاكوسا . غادرت طوكيو بقطار الليل ، وأمضيت ليلة واحدة في كيوتو في الطريق ، ووصلت إلى نارا في صباح اليوم التالي . ولا يزال هناك فندق موساشينو ، ولكن قيل لي إنه تحت إدارة أخرى الآن . وقبل عشرين عاماً كان مبنى الفندق عتيقاً وبالعجالة فيما أظن ، ولم تكن وزارة السكك الحديدية قد بنت فندقها بعد ، وكان فندق موساشينو وكايكوسوي هما أفضل فندقين يمكن للمرء النزول بهما في ذلك العهد . بدا تسومورا وكأنما سئم الانتظار ، وكان قد سبق له التجوال في معالم نارا ؛ ولذا قررنا الانطلاق توأماً قبل أن تتقلب حالة الجو . نلنا قسطاً من الراحة لمدة ساعة أو ساعتين ، رحنا نحقق خلالهما في جبل واكاكوسا من نافذة غرفتنا ، ثم غادرنا الفندق .

غيرنا القطارات في يوشينو جوتشي ، واستقللنا قطاراً متقللاً يسير على شريط حديدي ضيق حتى بلغنا محطة يوشينو ، ومن هناك انطلقنا سيراً على الأقدام عبر الطريق الرئيسي الموازي لنهر يوشينو . قرب بحيرة موتسودا ومخاضة شجرة الحور المعروفتين لقراء قصائد مانيوشو تفرع النهر إلى فرعين ، يفضي الفرع الأيمن إلى مواقع مشاهدة ازدهار الكرز الشهيرة في جبل يوشينو ، وإذا عبر المرء النهر فإنه يصل توأماً إلى أجسام ألف الدنيا ثم إلى بساتين كرز سيكاي ، معبد زاكونجين ، معبد يوسيميزو ، وألف الوسيطة ، وهي أماكن

تعج بمشاهدي تفتح الكرز كل ربيع . وسبق لي أن جئت مرتين لمشاهدة براعم كرز يوشينو ، الأولى حينما كنت طفلاً بصحبة أمي التي قامت بجولة في منطقة كيوتو ، والثانية خلال دراستي الجامعية ؛ ولذا تذكرت الانطلاق إلى اليمين صعوداً في طريق جبلي ضمن مجموعة كبيرة ، ولكنني لم أمض مع الفرع الأيسر من قبل قط . أما الآن وقد أصبحت السيارات والقاطرات المعلقة تمضي الشوط كاملاً حتى الألف الوسيطة ، فلم يعد أحد يتوقف هناك ، ولكن مشاهدي ازدهار الكرز في السابق إذ يسلكون الطريق مع الفرع الأيمن كانوا يتوقفون على الجسر الممتد على بحيرة موتسودا ويتأملون المشاهد المترامية على طول نهر يوشينو .

كان رجل عربة الريكشا يقول مشيراً باتجاه أعلى النهر من حاجز الجسر : «هناك ، انظروا ، هناك بمقدوركم أن تروا إموسياما ، التلين العروسين ، إموياما إلى اليسار وسياما إلى اليمين » . وقد جعلت أمي بدورها رجل عربة الريكشا يتوقف في منتصف الجسر ، وممسكة بي في حجرها ، وكنت صغيراً لا أدري بما حولي ، راحت تهمس في أذني : « أتذكر المسرحية التي تدور حول إموسياما ؟ طيب ، ها هنا إموسياما الحقيقية » . كنت صغير السن للغاية ، والصورة ليست جلية في ذهني ، ولكن هواء الجبل كان لا يزال بارداً في منتصف إبريل ، وتحت جناح المساء الضبابي راح نهر يوشينو يتدفق نحونا تحت سماء شاحبة غائمة مقبلاً من هوة في الجبال النائية المتتابعة . كان سطحه المموج يحاكي تجعداً في ممر تعصف به الرياح . وعلى نحو غائم كان بمقدور العين أن ترى في الجبال تلين صغيرين ينهضان دونما انتظار في غبش المساء . لم استطع تبين النهر المتدفق بينهما فيما يواجه أحدهما الآخر ، لكنني كنت أعرف من المسرح أن التلين كانا

على جانبي النهر . فعلى خشبة مسرح الكابوكي كان كوجانسوكي ،
نجل دايهانجي كيوزومي ، وخطيبته ، وهي عذراء تدعى
هينا دوري ، يقطنان في دارتين تطلان على الوادي ، فهي تقطن على
قمة إموياما ، وهو يقطن على قمة سياما . وهذا المشهد من بين كل
مشاهد مسرحية إموسياما يشبه كأقصى ما يكون الحكاية الخرافية ،
ولذلك السبب أحدث انطباعاً في نفسي خلال طفولتي . وعندما
تحدثت أُمي قلت لنفسي : « إذن فهذه إموسياما » وانغمست في رؤية
خيالية صبيانية قوامها أنني إذا مضيت إلى هناك فسوف ألتقي
بكوجانسوكي والعذراء . ومنذ ذلك الحين ظل المشهد الذي رأيته
من الجسر ماثلاً في ذاكرتي . وفي لحظات غير متوقعة أستعيد ذكراه
والحنين يعتصر فؤادي . ولذا فحينما جئت إلى يوشينو للمرة الثانية
في ربيع عامي الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين ، انحنيت
ممدداً على حاجز الجسر ، ورحت أفكر في أُمي الراحلة ، وأنا
أحدق بناظري صعداً مع التيار . هنا ، عند سفح جبل يوشينو ،
يدخل النهر سهلاً فسيحاً ، بحيث أنه التيار المتلاطم يبدأ في التحول
إلى نهر « يتدفق عبر الريف الجبلي » دونما اندياح . وكان بمقدوري
أن أرى على الجانب الأيسر باتجاه المنبع دوراً ممتدة مع الطريق
الرئيسي ، تتميز بقدمها وبساطتها وأسقفها المنخفضة وجدرانها
البيضاء المرقشة . هذه هي قرية كاميتشي ، الجبال وراءها والنهر
أمامها .

مررت ، هذه المرة ، بسفح الجسر عند موتسودا ، والتزمت
بالفرع الأيسر ، وانطلقت نحو إموسياما ، وهو اتجاه لم يسبق لي إلا
التحديق فيه . كان الطريق الرئيسي يمتد في خط مستقيم على طول
ضفة النهر ، بدا أنه طريق مسطح بعيد عن الوعورة ، ولكن قيل لي

إنه من كاميتشي يمر عبر مياتاكما وكوزو وأوتاكي وساكو وكاشيواجي ،
ثم يوغل في جبال دواخل يوشينو ، ويصل إلى منبع نهر يوشينو ،
ويعبر مجمع الأمطار الواقع بين ياموتو وكاي ، وأخيراً يتدفق إلى
شاطئ البحر عند كومانو .

بعد أن غادرنا نارا مبكرين ، دخلنا كاميتشي بعد الظهر بقليل .
وكما تصورت عند الجسر ، كانت الدور المصطفة على جانبي
الطريق الرئيسي بسيطة وعريقة الطراز . وكانت هناك عدة هوات
عرضية بين الدور على الجانب المطل على النهر ، ولكن في الغالب
كان مشهد الماء محتجباً عن الناظرين . وكانت للدور على الجانبين
نوافذ متشابكة سودها الدخان وطوابق ثانية منخفضة لا تعلو كثيراً عن
مستوى العلية . وخلال سيري ، رحت أتطلع إلى الظلال القابعة
وراء النوافذ المتشابكة . وكما هو مألوف في الدور الريفية ، كان
هناك طريق ترابي يمتد حتى الباب الخلفي ، وعند مدخل معظم هذه
الطرق تدلت ستارة زرقاء قاتمة تحمل باللون الأبيض اسم المتجر أو
العائلة . وبدا أن من المألوف بالنسبة للسكان وللمتاجر أن تكون لها
مثل هذه الستائر . وفي كل حالة تدلت الطنف ، كأنما سحقت
الواجهة سحقا ، وكانت الواجهة ضيقة ، ولكن وراء الستائر تألقت
الأشجار بالحياة في الأفنية ، وهنا وهناك أقيمت أبنية منفصلة . وربما
كانت هذه الدور تعود إلى نصف القرن وبعضها يعود إلى قرن كامل
من الزمان أو ربما قرنين . وبالمقابل كان ورق الشوجي على كل دار
جديداً ولا تشوبه شائبة ، كأنما تم تغييره لتوه ، وغطيت أصغر
الفتحات بدأب بورق على شكل بتلات . بدا الورق أبيض بارداً في
هواء الخريف النقي ، وكان من أسباب نظافته عدم وجود غبار ،
ولكن ربما كان من الأسباب الأخرى أن هؤلاء الناس كانوا بسبب عدم

استخدامهم للشوجي الزجاجية أكثر حساسية بالنسبة لورقهم من سكان المدن . فإذا لم تكن هناك أبواب زجاجية في الخارج ، على نحو ما توجد هذه الأبواب في طوكيو ، فإنه لا سبيل إلى إهمال الورق ، وإلا فإنه سيتسخ ويتغير لونه فيغدو حائلاً ، وسوف تهب الرياح فتلعج الدور من الفتحات . وجعلت نصاعة الشوجي النوافذ المتشابكة الجهمة وقطع الأثاث في صفوف الدور تبدو نظيفة وتعكس مزاجاً خاصاً ، شأن امرأة جميلة تحرص ، على الرغم من فقرها ، على مراعاة حسن مظهرها . وقد استشعرت الخريف بعمق ، فيما كنت أتطلع إلى ضوء الشمس المتألق على الورق .

وفي حقيقة الأمر ، فإنه على الرغم من صفاء السماء على نحو مبهر ، فإن النور المنعكس هناك كان ألقاً ، ولكنه لم يكن وهاجاً ، وجميلاً على نحو عميق . وإذا كانت الشمس تعتلي النهر ، فقد راحت تتألق في مواجهة الشوجي على الجانب الأيسر من الشارع وانعكست غائرة في الدور المصطفة على الجانب الأيمن . وبدت ثمار البرسيمون المعروضة في واجهة متجر خضري لافتة للنظر على وجه خاص . تلاعب النور الخارجي على الأسطح اللدنة الناضجة المرجانية لكل أشكال ثمار البرسيمون ، البرسيمون الحلو ، برسيمون جوشو ، برسيمون مينو ، فتوهجت كالأعين . وحتى كتل معكرونة الدقيق كانت متألقة داخل صندوق زجاجي في متجر متخصص في بيعها . وفي الشارع أمام الدور ترك خبث الأفران للهواء بعد فرشته على حصر من القش وسلال للغريلة . ومن مكان ما تناهى وقع مطرقة حداد وصوت عاكف على ضرب الأرز . سرنا حتى حافة البلدة ، وتناولنا طعام الغداء في مطعم قرب النهر . لدى النظر إلى التلين من فوق الجسر لاحاً بعيدين باتجاه المصب ، أما هنا فقد

شمخ كل منهما بإزاء الآخر أمام أعيننا . وإذا يتوسطهما النهر كان إموياما على الضفة التي جلسنا نتناول طعامنا في رحابها ، وسياما على الضفة الأخرى . ولا شك في أن هذا المنظر قد ألهم مؤلف مسرحية « وصايا عائلية لامرأة عند أموسياما » فكرة مسرحيته ، لكن النهر هنا بالغ الاتساع ، وهو ليس بالنهر الذي يراه المرء على خشبة المسرح . وحتى إذا كانت دارتا كوجانوسوكا وهينادوري على التلين ، فليس بوسع الناس أن يتحاوروا فيما بينهم عبر التلين ، كما يحدث على المسرح . ويتصل تل سياما بالجرد الواقع وراءه وشكله غير منتظم ، ولكن تل إموياما قائم بذاته ، مخروطي الشكل ، تغطيه الخضرة على نحو رائع . وتمتد بلدة كاميتشي حتى سفح التل . وحينما يتطلع المرء إلى دور البلدة يجد أن لها طابقاً إضافياً في الخلف ، فتصبح الدور ذات الطابقين دوراً ذات ثلاثة طوابق ، والدور ذات الطابق الواحد من الدور ذات الطابقين . وعلى بعض الدور يمتد سلك سميك من الطابق العلوي إلى قاع النهر ، وقد ربط به دلو لجلب الماء .

قال تسومورا فجأة :

- أتعرف ، بعد « إموسياما » هناك « يوسيتسوني وأشجار الكرز الألف » .

- أشجار الكرز الألف تتخذ من شيمويتشي مسرحاً لأحداثها .

أليس كذلك ؟ سمعت عن متجر دلو بثر سوشي هناك . . .

في مسرحية الدمى تلك يتبنى صاحب متجر سوشي كوريموري بعد أن لاذ الأخير بمتجره . وعلى الرغم من أنني لم أذهب إلى هناك قط ، فقد سمعت أن بعض الناس في شيمويتشي استلهم هذه القصة وزعم أنه من سلالة . وليس هناك جونا الخيث المحتال في العائلة

فيما يقولون ، ولكن الفتيات هناك لا يزلن يحملن اسم أوساتو ، كما في المسرحية ، وهم يصنعون السوشي في أوعية تشبه دلاء الآبار . ولكن تسومورا لم يكن يشير إلى هذا الجزء من المسرحية ، وإنما إلى طبل الأميرة شيزوكا . وهناك عائلة تقيم باتجاه منبع النهر في قرية ناتسومي ، تثنى هذا الطبل باعتباره تراثاً عائلياً تتناقله الأجيال ، واقترح تسومورا أن نتوقف في الطريق لرؤيته .

قطعت بأن قرية ناتسومي ستكون على ضفاف نهر ناتسومي الوارد ذكره في مسرحية النو الموسومة « الأميرتان شيزوكا » : « إلى شاطئ نهرنا تسومي ، أقبلت امرأة هائمة على وجهها . . . » . ومع تردد هذه الكلمات يظهر شبح شيزوكي ، تقول : « يثقلني وقر آثامي ، فسطروا صلاة من أجلي ! » ، ثم في النص المكتوب للرقصة التي تلي ذلك :

إني لأتوارى خجلاً حقاً ،
وما قلبي بقادر على نسيان الماضي . . .
لا تحسبوا
أنكم ترون الآن
امرأة تلتقط الخضر ،
من نهر ناتسومي ،
في يوشينو .

يبدو ، إذن ، أن هناك أساساً ما تقوم عليه الأساطير التي تربط ناتسومي بشيزوكا . يقول كتاب « مواضع شهيرة مصورة في ياموتو » إن : « لقرية ناتسومي نبأً رائعاً يطلق عليه اسم نبع سلة الزهور . وهناك كذلك موقع دارة أقامت فيها الأميرة شيزوكا لبعض الوقت » . وهكذا فإن هذه المأثورة ربما كانت بعيدة العهد وقد حملت العائلة

التي تحتفظ بالطبل لقب أوتاني ، ولكنها في السابق كانت تعرف باسم مشرفي يوشيتسوني . وتقول السجلات العائلية القديمة ، فيما روي ، إن يوشيتسوني والأميرة شيزوكا قد مكثا هنالك عندما هربا من يوشينو في ثمانينات القرن الثاني عشر . وهناك في الجوار مواضع شهيرة - غدير كيسا ، جسر الإغفاء ، جسر شيبا - وفي بعض الأحيان كان الزوار يطلبون رؤية الطبل هاتسوني ، ولكن بما أنه إرث عائلي فلم يكن متاح للزائرين المارين بالصدفة أن يروه ، بل يتعين على المرء تقديم نفسه مسبقاً بشكل ملائم . ووفقاً لهذا فقد طلب تسومورا من أقاربه في كوزو القيام بإجراء الترتيبات اللازمة ، ولذا فربما كان قدومنا اليوم متوقعاً .

قلت :

- عندما تقرر الأميرة شيزوكا الطبل ، يظهر ثعلب متكرراً في هيئة تادانوبا ، لأن جلد أبويه قد استخدم في صنع وجهي الطبل . ذلك هو المقطع . أليس كذلك ؟

- بلى ، على هذا النحو يرد في المسرحية .

- وتقول العائلة إن الطبل لديها ؟

- سمعت بأنهم يقولون ذلك .

- أهى مكسوة حقاً بجلدي ثعلبين ؟

- لا أستطيع أن أعدك بذلك ، لأنني لم أرها بدوري . ولكن لا

شك في أنها عائلة عريقة .

- أتساءل عما إذا لم يكن هذا مماثلاً لمتجر سوشي دلو البشر ،

فقبل وقت طويل ربما اخترع شخص ثرثار الأمر اختراعاً من وحي مسرحية النوا الموسومة « الأميرتان شيزوكا » .

- ربما ، لكنني مهتم بذاك الطبل ، وأرغب بالتأكيد في زيارة دار

أوتاني ورؤية الطبل هاتسوني ، لقد أردت القيام بذلك منذ زمن بعيد ، وهذا أحد الأسباب التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة .

قال تسومورا هذا وبدا أن هناك شيئاً يختفي وراء ما قال ، لكنه أضاف ببساطة : « سأحدثك بجلية الأمر فيما بعد » ولم يفه بكلمة بعد ذلك .

٣ - الطبل هاتسوني

تواصل الطريق من كاميتشي إلى مياتاكي على الضفة اليسرى لنهر يوشينو ، وتعددت تجليات الخريف مع الإيغال في الجبال . مراراً وتكراراً عندما نلج أجمة من السنديان كان الحفيف ينبعث من سجاجيد ممتدة تحت أقدامنا من أوراق الأشجار . وتناثرت شجيرات القيقب ، دون أن تلتئم في أجومات ، لكن الأوراق الحمراء كانت في أوجها ، ورقشت أشجار اللبلاب والسماق واللك القمم المكسوة بأشجار الأرز بكل الظلال من أعمق درجات الأحمر القرمزي حتى أشد درجات اللون الأصفر شحوباً . قلت : « أوراق أشجار حمراء » ، على نحو ما يقول الناس غالباً ، ولكن في حقيقة الأمر كانت هناك تنوعات مركبة من الأصفر والبني والأحمر . وبين الأوراق الحمراء كانت هناك عشرات من الظلال المختلفة . ويقال إن وجوه الجميع تتحول إلى اللون الأحمر خلال الخريف في شيوهارا بشيموتسوكي . ومشهد الأوراق ذات اللون الواحد هو مشهد جميل ، لكن هذا النوع ذا الألوان العديدة جميل بدوره . هناك تعبيرات صينية بليغة تصف حشد الألوان المتواضعة في ألوان الربيع البرية ، ولكن هنا كذلك ، مع الفارق المتمثل في أن الأصفر الخفيف هو الذي يحدد الإطار العام ، فإن تنوع الألوان كان في ثراء تنوع الألوان في أي حقل خلال الربيع . وعبر الضوء المتسرب إلى الوديان من بين الجرف ، راحت الأوراق تتساقط ، متألقة كالتمر ، إلى الماء .

ويعتقد أن عدداً من المواضع الوارد ذكرها في « مانيوشو » ، ومن بينها دارة الإمبراطور تيمو في يوشينو ، و « القصر المنيف على شاطئ منحدرات يوشينو » ، على نحو ما عبر الشاعر كاسا في مسرحية النو الموسومة « كانامورا » ، وحقول أكيزو التي ورد ذكرها في قصيدة هيتومارو ، وجبل ميغوني ، تقع قرب قرية مياتاكي الحالية . وقبل أن نوغل كثيراً في القرية ، تركنا الطريق الرئيسي وعبرنا إلى الضفة المقابلة . هنا يضيق الوادي تدريجياً ، وتتحول الضفتان إلى صخور ، ويلطم الماء الفوار جلاميد القاع ، ويتدفق إلى البحيرات الزرقاء الصافية . وعبر غدير كيسا ، وهو دفق منساب من الماء ينطلق من أعماق نهر كيسا الغابية ، يمتد جسر الإغفاء ، حيث يصب في بحيرة . وربما كانت المرويات القديمة ، التي تقول إن يوشيتسوني قد أغفى في موقع الجسر ناتجة عن تحليق لاحق في عالم الخيال . وكان الجسر الرشيق الذي يبدو للناظر هشاً يوشك أن يكون محتجباً تماماً وراء حشد من الأشجار ، وربما مست الحاجة إلى السقف الصغير لحماية الجسر من الأوراق المتساقطة أكثر من الماء المنهمر . وبدا أن من شأن جسر غير مسقوف أن يدفن سريعاً تحت أوراق الخريف . وهناك بيتان ريفيان غير بعيدين عن الجسر . وقد استخدمت العائلتان ، فيما يبدو ، الفراغ الموجود تحت السقف ، لأغراض التخزين الخاصة بهما . فاحتشد الجسر بأكوام من حطب الحريق التي لا تترك إلا فراغاً يكفي لمرور شخص واحد . وقد أطلق على المكان اسم هيجويتشي . هنا يتفرع الطريق إلى فرعين ، فرع يسير بحذاء ضفة النهر إلى قرية ناتسومي ، والآخر يعبر جسر الإغفاء ، ويمر بمزار ساكورا جي وقرية كيساداني ويفضي إلى الألف العليا وكوكي - نو - شيميزو وصومعة الشاعر سايجيو . وربما كان الرجل المشار إليه في قصيدة شيزوكا والذي « شق طريقه

عبر الجليد الأبيض على القمة » قد عبر الجسر ، ومضى من جبال
يوشينو الداخلية نحو وادي تشوين .

حينما لاحظنا الأمر ، في نهاية المطاف ، كانت الجبال أمامنا قد
أصبحت سامقة ودانية ، فضاقت الساحة التي نلمحها من السماء وبدا
نهر يوشينو والدور والطريق كما لو كانت جميعها يتحتم أن تصل إلى
نهاية لا مناص منها في هذا الوادي الغائر بين الجبال ، ولكن القرى
تتناثر ، فيما يبدو ، حيثما وجد مجال ، فعلى منحدر ضفة نهر
متداعية ، وفي حوض يشبه جوف غرارة ، محاط من ثلاثة جوانب
بعواصف جبلية ، أعدت المدرج المزدعة ، وبنيت الدور ذات
الأسقف المغطاة بالأغصان ، وزرعت الحقول . كانت تلك هي قرية
ناتسومي . خلع عليها النهر وشكل الجبال ملمح مكان يمكن أن
يكون لاجئون من العاصمة قد أقاموا فيه .

لم نلق صعوبة تذكر في العثور على دار أوتاني . وكانت تقع في
بستان من أشجار التوت ، غير بعيد عن النهر ، على بعد ثلث الميل
من تخوم القرية . كان السقف رائعاً ، وقد استطالت أشجار التوت ،
حتى أنه لا يظهر من بعيد إلا السقف المكسو بالقش والذي زود فقاره
بنوع من السقف الإضافي وسقف من الحجارة عند الطنف ، وكأنه
جزيرة فوق بحر من أوراق الأشجار ، وبدا مغرياً بالقدوم إليه . غير
أن الدار ذاتها كانت عادية تماماً بالمقارنة مع السقف . دار ريفيه
نموذجية ، بها غرفتان ملحقتان في المقدمة ، تواجهان الحقول .
وكان الشوجي مفتوحاً ، وفي الغرفة ذات التجويف جلس رب الدار ،
وهو رجل في حوالي الأربعين من العمر . وبمجرد رؤيته لنا خرج
للترحيب بنا ، حتى قبل أن نستطيع تقديم أنفسنا له . وبوجهه مشدود
الجلد ، الذي لوحته الشمس ، وعينيه المكدودتين الودودتين ،

ورأسه الصغيرة ، وكتفيه العريضتين ، كان نموذجاً مجسداً للفلاح البسيط الصريح . قال :

- حدثني السيد كومبو في كوزو عنكم ، وكنت في انتظار مقدمكم .

ولكن حتى ترحيبه البسيط ذاك تم الإعراب عنه بلهجة ريفية يصعب عليّ فهمها . ورداً عليّ استفساراتنا ، اكتفى بالانحناء انحناءة رسمية دون أن يطرح رداً واحداً . وقد عنّ لي أن العائلة قد عانت محنة تدهور بالغ ولم يعد لها إلا القليل من تميزها القديم ، ولكن بالنسبة لي كان رجلٌ على هذه الشاكلة أكثر سهولة في التواصل معه .

- إننا نأسف لإزعاجنا لكم ، وأنتم على هذا القدر من الانشغال . وقد سمعنا بأنكم نادراً ما تعرضون إرثكم العائلي ، ونخشى أن مجيئنا ، على هذا النحو ، لرؤيتكم فيه من الغلاظة ما فيه .

- لا ، لا يرجع الأمر إلى عدم رغبتنا في عرض مقتنياتنا الموروثة . . .

على استحياء ، وبما يوحي بالحرص ، قال لنا إن أعراف العائلة تقتضي أسبوعاً من التطهُّر قبل إخراج المقتنيات ، لكن العائلة لا تستطيع الالتزام بمثل هذه القاعدة المتشددة تماماً ، وسيسعدنا أن تعرض موروثاتها على كل من يطلب رؤيتها ، وذلك على الرغم من أن أفرادها نظراً لانشغالهم بأعمال المزرعة ليس لديهم الوقت الكافي لتحقيق ما يرغب منه الزوار المفاجئون . وهم ، في هذا الوقت من العام بصفة خاصة ، مشغولون بديدان قز الخريف ، وبشكل عام فقد نزعت الحصر من الدار كلها . بل إنهم ليست لديهم غرف يستقبلون

فيها الضيوف غير المتوقعين، ولكن إن كان أحد على قدر من اللطف يتيح له أن يعرف بقدومه مسبقاً ، فإنه على الدوام سيقوم بإجراء الترتيبات الضرورية وينتظره . كان حديثه متعشراً ، وأظفار أصابعه سوداء تماماً ، وهي ترتاح ، على نحو رسمي على ركبتيه .

من الواضح ، إذن ، أنه قد أعاد وضع الحصر في هاتين الغرفتين تحسباً لزيارتنا ، وراح ينتظرنا . وكان بمقدوري من خلال شق في الأبواب المنزلقة، الإطلال على الغرفة المجاورة ، التي تستخدم مخزناً ، حيث كان خليط من الأدوات الزراعية قد كُوم على عجل على ألواح الأرضية الخشبية العارية . كانت الموروثات قد وضعت بالفعل في التجويف الخاص بالغرفة . التقطها رب الدار ، وراح يضعها واحدة إثر الأخرى أمامنا في مزيد من التوقير : لفافة من الورق بعنوان « تاريخ قرية ناتسومي » ، العديد من السيوف القصيرة والطويلة المهداة من الأمير يوشيتسوني ، قائمة بالهدايا ، أغصان للسيوف ، جعبة سهام ، إناء خزفي للساكي ، والطبل هاتسويني ، وهو هدية من الأميرة شيزوكا . كانت نهاية لفافة الورق تحمل الكلمات التالية : « كتبت بأمر من حاكم جوجو الزائر نايتو موكوزايمون بيد أوتاني جيمباي ذي الأعوام الستة والسبعين ، تسجيلاً لما سمعه » . وقد أرخت على النحو التالي : « صيف ١٨٥٥ » ، وهناك حكاية متوارثة تقول إنه حينما زار البلدة الحاكم نايتو موكوزايمون في ١٨٥٥ ، انحنى أوتاني جيمباي الجد الأعلى لرب العائلة الحالي محيياً ، ولكن عندما قدم هذه الوثيقة قدم له الحاكم مقعداً ، وانحنى أمامه . غير أن لفافة الورق كانت شديدة الاتساخ بحيث بدت كما لو كانت قد تفحمت ، وبما أنه كان من الصعب قراءة ما فيها ، فقد صحبتها نسخة لما ورد فيه . ولست أدري

بجلية أمر الأصل ، لكن النسخة كانت تحتوي عدداً كبيراً من الأخطاء في الحروف والتراكيب وكانت معان عديدة ملتبسة ، ولم يكن من المعقول أن كاتبها قد نال حظاً من التعليم الرسمي . وبحسب ما يقوله النص ، فإن أسلاف العائلة قد أقاموا في هذا المكان منذ عهد نارا . وفي حرب الوراثة لعام ٦٧٢ قام أويوري ، مفتش موراكوني بتأييد الأمبراطور تيمو ، وقتل الأمبراطور كوبون . ويشير النص إلى أنه في تلك الأيام كان المفتش يحكم ثلاثة أميال ونصف الميل من هذه القرية حتى كاميتشي ، وهكذا فإن نهر ناتسومي يشير إلى ذلك الجزء من نهر يوشينو . وفيما يتعلق بالأمير يوشيتسوني جاء في النص ما يلي : « احتفل الأمير مينا موتو يوشيتسوني بمهرجان الشهر الخامس بجبل شيرايا في كاواكامي ، ثم هبط الجبل ومكث في دار مفتش موراكوني شهراً أو أربعين يوماً . وعندما رأى جسر شيباني ميساتاكي نظم هذه الأبيات » وتلي ذلك قصيدتان . وحتى اليوم لا علم لي بأي قصائد ليوشيتسوني . وحتى بالنسبة لعينين تنقصهما الخبرة فإن القصيدتين المسجلتين هناك لم تكونا من الشعر المنتمي إلى أواخر العهد الهائني ، كما أن المقولة كانت غليظة ومبتذلة . وجاء في النص ما يلي خاصاً بالأميرة شيزوكا : « في ذلك الوقت كانت الأميرة شيزوكا ، محبوبة الأمير يوشيتسوني الأثيرة تقيم في دار موراكوني . وبعد هرب الأمير يوشيتسوني إلى موتسو ، فقدت كل أمل بقي لها ، وألقت بنفسها في بئر ، ويطلق على هذه البئر اسم « بئر شيزوكا » . إذن ، فقد لقيت حتفها هنا ، بحسب ما جاء في لفافة الورق ، ويمضي النص قائلاً : « ورغم ذلك ، فإن الأميرة شيزوكا ربما شتتها انفصالها عن الأمير يوشيتسوني ، فانبعثت في هيئة روح نارية من البئر كل ليلة على مدار ثلاثة قرون . وفي ذلك العهد ، كان الناسك رنيو في قرية آيجاي ، يرشد الجميع إلى طريق بوذا ، فتوسل

إليه القرويون أن يعمل على خلاص روح شيزوكا ، ودونما تردد قادها الناسك إلى رحاب بوذا ، ثم كتب قصيدة على ردن ردائها الذي احتفظت به عائلة أوتاني عقب ذلك» وتضمن النص القصيدة . وفيما كنا نقرأ اللفافة ، جلس مضيفنا في هدوء دون تقديم كلمة على سبيل الإيضاح ، لكن التعبير المرتسم على محياه أوحى بأنه يتقبل دونما تساؤل الأمور التي خلفها له أسلافه . سألناه : « ما الذي حدث للرداء الذي كتب الناسك القصيدة عليه ؟ » ، فرد بأن أسلافه قد وهبوه لمعبد إحدى القرى ويدعى سايشوجي ، كتقدمة لبعث روح شيزوكا في الفردوس ، ولكن ما من أحد يعرف إلام صار أمره ، وهو ليس بحوزة المعبد . وبدت السيوف وجعبة السهام عندما التقطناها وتفحصناها بالغة القدم ، وبصفة خاصة الجعبة التي لحقها تلف شديد وبليت ، لكنها لم تكن مما يمكن لنا تقويمه ومعرفة قدره ، أما فيما يتعلق بالطبل هاتسوني ، فلم يكن مكسواً بالجلد ، وإنما جسم الطبل الخشبي وحده وضع في صندوق من شجرة بولفينية . ولم نكن على يقين من أمر الطبل كذلك ، لكن طبقة اللك التي طلي بها بدت حديثة نسبياً ، ولم تكن هناك أية زخارف ، وبقدر ما لاح لنا فقد كان جسم الطبل عادياً ، وصلباً ، وأسود اللون . غير أن الخشب بدا قديماً حقاً ، وهكذا فربما أعيد طلاؤه باللك في وقت ما ، وقد رد مضيفنا على هذه الملاحظة دونما اكتراث بقوله : « نعم ، ربما كان الأمر كذلك » .

كانت هناك لوحتان تذكاريتان مهيتان ، زودتا بما يشبه الأسقف والأبواب . على باب إحداهما نقش شعار هو وريقة نبات الخبيزة ، وعلى اللوحة نفسها نقشت الكلمات التالية : « لوحة رئيس الوزراء من الطبقة الأولى ، الدرجة الأرفع » ، أما الأخرى فقد نقش على

بابها شعار هو زهرة المشمش ، وعلى اللوحة بالداخل نقشت الكلمات التالية : « إلى النيرفانا ، لوحة شويو - تيجايوكو » وهو الاسم الذي كان فيما يبدو اسم ما بعد الوفاة لامرأة ، وعلى الجانب الأيمن كتب « العام الثاني لجيمبون » وهو العام الذي يوافق ١٧٣٧ ، وعلى الجانب الأيسر كتب « الشهر الحادي عشر ، اليوم العاشر » . غير أن مضيفنا لم يكن لديه علم بأمر هاتين اللوحتين ، وقد قيل ، من قديم الزمان ، إنهما تخلدان ذكرى سيد عائلة أوتاني ، وكان من عادة العائلة الاحتفاء بهما في اليوم الأول من كل عام ، وأضاف يقول جاداً إن اللوحة التي تحمل عام جيمبون ربما كانت لوحة الأميرة شيزوكا .

حالت عيناه الهادئتان الودعتان الكالتان بيننا وبين التلفظ ببنت شفة . لم يكن هناك طائل من أن نبلغه بالتوقيت الزمني لعهد جيمبون أو في الإشارة إلى كتاب « مرآة الشرق » أو « حكاية الهايكة » اللذين يبحثان في حياة الأميرة شيزوكا . فقد كان رب العائلة يؤمن بكل شيء بصفة مطلقة . ولم تكن الأميرة التي تداعب خياله هي بالضرورة الأميرة شيزوكا التي رقصت أمام يوريتومو في مزار تسوروجاوكا . فبالنسبة له كانت سيدة نبيلة ، ترمز لأيام أسلافه الغابرين ، ذلك الماضي الأثير . كانت السيدة الأرستقراطية الشجية المسماة بـ « الأميرة شيزوكا » هي محور توقيره وإخلاصه لأسلافه ، الأمير ، والعهود الخالية . لم يكن ثمة ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت السيدة النبيلة قد أقامت حقاً في هذه الدار واعتكفت هاهنا وحيدة . كان الخيار الأفضل هو أن ندعه مع المعتقدات التي كانت بالغة الأهمية بالنسبة له . ولئن نظرنا إلى الأمر بصورة متعاطفة ، لقلنا إنه ربما حينما كانت العائلة في أوجها ، وقعت حادثة كان مناطها ، إن لم تكن الأميرة شيزوكا ذاتها ، أميرة من البلاط الجنوبي ، أو

لاجئة من هول الحروب الأهلية في القرن السادس عشر ، وغدت هذه الحادثة ممتزجة بأسطورة شيزوكا .

فيما كنا نوشك على الاستئذان للرحيل ، قال رب الدار :
- ليس لدينا الكثير مما يمكن أن نقدمه ، لكنني أرجوكم أن تجربوا بعض المنضجات .

كان قد أعد الشاي وجلب وعاء يضم ثمار البرسيمون ، مع منفضة رماد نظيفة وخالية . كانت المنفضة لاستخدامها لا للتخلص من الرماد ، وإنما كصحفة تتناول منها ثمار البرسيمون الناعمة الناضجة . وعقب إلحاحه كي نتناول بعضاً منها ، وضعت إحداها في حرص في راحة يدي . بدت كما لو كانت ستنفجر في أي لحظة . كانت ثمرة برسيمون كبيرة مخروطية الشكل ذات طرف مدبب ، وقد نضجت ، فغدت شفافة الحمرة مع ميل إلى القتام ، ورغم انتفاخها كأنها حقيبة مطاطية ، فقد كانت جميلة كالشيب لدى تعريضها للضوء . ولا تصل ثمار البرسيمون المحلاة في الهراميل الخشبية التي تباع في المدينة أبداً إلى هذا اللون البديع مهما بلغت درجة نضجها ، وتتداعى قبل أن تبلغ هذه النعومة . قال مضيفنا إن ثمار برسيمون مينو ذات الجلد الغليظ هي وحدها المناسبة لإعداد المنضجات منها ، إذ يتم قطفها فيما هي لا تزال صلبة ، فجأة ، وتوضع حيث لا يطالها النسيم في صناديق أو سلال . وفي غضون عشرة أيام ، ودونما تدخل من إنسان فإن دواخلها تستحيل إلى شبه سائل في عذوبة الرحيق . أما أنواع البرسيمون الأخرى فإنها ستغدو طرية كالماء ، وليست دبقة كبرسيمون مينو . وبإزالة العنق والتناول منها عبر الفتحة بملعقة يستطيع المرء أن يلتهمها كالبيض هش السلق ، ولكن طعمها يغدو أفضل إذا ما وضعت في طبق ، وتم

تقشيرها وتناولها باليد ، رغم أن هذه الطريقة مربكة قليلاً . ومن شأن عشرة أيام أن تصل بها إلى أجمل وأشهر مراحلها ، ولكن إبقائها لمدة أطول من هذا يحولها إلى ماء .

فيما رحت أصغي إلى هذا الحديث حدثت إلى قطرة النوى القابعة في راحتي . بدا الأمر كما لو أن غموض وألق شمس الجبال قد تجسد في كفي . لقد سبق لي أن سمعت بأن القرويين الذين يزورون العاصمة اعتادوا أن يأخذوا ملء دلاء من التربة معهم لدى عودتهم كتذكارات للرحلة ، ولئن سألتني أحدهم عن لون الخريف في يوشينو ، فأحسب أنني سأعود معي ببعض ثمار البرسيمون إلى الدار لأريها له .

في نهاية المطاف ، كان ما أثر في نفسي أكثر من غيره في دار أوتايني هو منضجات البرسيمون وليس الطبل ولا الوثائق . وقد التهمت مع تسومورا اثنتين من ثمار البرسيمون الحلوة المليئة بالعصير ، فانتعشنا بالبرودة المناسبة من لثينا إلى جوفينا . لقد ملأت فمي بخريف يوشينو ، وحتى ثمار المانجو الوارد ذكرها في النصوص البوذية قد لا يكون طعمها طيباً على هذا النحو .

صية الثعالب

- لا تقول اللفافة التاريخية إلا أن الطبل هاتسوني كان تذكراً من الأميرة شيزوكا ، ولا يرد فيها شيء عن جلود الثعالب .

- أصبت ، لكنني أعتقد أن الطبل يسبق في وجوده المسرحية ، ولو أن المسرحية جاءت أولاً ، لكان الطبل قد ورد ليكون أكثر اتصالاً بحبكة المسرحية . وكما أن مؤلف مسرحية « إموسياما » قد استلهم فكرته من رؤية المشهد الفعلي ، فلا بد كذلك أن مؤلف مسرحية

« أشجار الكرز الألف » قد زار دار أوتاني ، أو سمع بها ، وبنى صرح أفكاره انطلاقاً من هذه النقطة . والمشكلة الوحيدة هي أن مؤلف « أشجار الكرز الألف » هو تاكيدا إيزومو ، وهكذا فإن المسرحية يتعين أن تكون قد كتبت قبل خمسينيات القرن الثامن عشر ، ولكن الوثيقة التاريخية كتبت في عام ١٨٥٥ . ومع ذلك فلا بد أن هذه المأثورات تعود إلى عهد أقدم ، لأن اللقافة توضح أنها « كتبت بيد أوتاني جيمباي ، ذي السنوات الست والسبعين ، تسجيلاً لما سمعه » . وحتى إذا لم يكن الطبل أصلياً ، فإني أعتقد أنه من المنطقي الافتراض بأنه كان موجوداً هناك قبل عام ١٨٥٥ . ألا تظن ذلك ؟

- ولكن الطبل يبدو جديداً . أليس كذلك ؟

- آه ، بلى ، ربما كان جديداً ، ولكنني أعتقد أنه كان هناك جيلان أو ثلاثة أجيال من الطبول ، وكل طبل يعاد طلاؤه وتجديده . وقبل الطبل الذي رأيناه لا بد أن كانت هناك طبول أخرى أقدم في صندوق خشب البولفينية ذاك .

كان جسر شيبا يفضي من تاتسومي إلى مياتاكي على الضفة المقابلة . جلسنا على الصخور عند أسفل الجسر ، وانغمسنا في الحديث لبعض الوقت .

في كتاب « جولة في ياماتو » يقول كايارا إيكايكين : « ليس مياتاكا بالشلال كما يوحي اسمه . وهناك صخور كبيرة على كلا الجانبين ، يتدفق نهر يوشينو فيما بينها . وتتألف الضفتان كلتاهما من صخور هائلة يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدماً ، تنتصب كأنها ستائر تطوى . ويبلغ عرض النهر بين الضفتين حوالي عشرين قدماً . وعند الموضع الضيق يمتد جسر ، ولأن النهر يضيق عندما يبلغ هذا

الموضع فإنه يغدو عميقاً ، ويصبح المشهد بديعاً . وهذا المقطع يصف المشهد من الصخور حيث كنا ننال قسطاً من الراحة : « يقفز القرويون ، الذين يطلق عليهم : القافزون من فوق الصخور ، من الصخور إلى الماء ويسبحون مع التيار ، حيث يخرجون ، ويجمعون النقود مقابل هذا العرض . وعندما يقفزون يقفون أيديهم إلى جنوبهم ، ويضمون أقدامهم معاً ، ويلجئون الماء إلى عمق يبلغ حوالي عشرة أقدام ثم يطفون فوق السطح بإعمال أيديهم في الماء » . وهناك صورة للقافزين من فوق الصخور في كتاب « الأماكن الشهيرة المصورة » . ويبدو شكل الضفتين ومجرى النهر تماماً كما هو موضح في الصورة . وينعطف النهر بحدة هنا فيما هو يندفع مزبداً بين الجلاميد . وكان السيد أوتاني قد أبلغنا بأنه من الأمور المألوفة أن تتحطم الأطواف على هذه الصخور ، ويمضي القرويون الذين يقومون بالقفز وقتهم في الصيد والزراعة . وعندما يقبل الزوار إلى المنطقة فإن القرويين يحصلون على النقود ويقدمون عرضهم العجيب ذاك ، فيحصلون على مائة قطعة نحاسية مقابل الوثب من الضفة المقابلة حيث الصخور أقل ارتفاعاً هوناً ما وعلى مائتي قطعة مقابل الوثب من صخرة عالية على هذه الضفة . ولهذا السبب أطلق اسم صخرة المائة قطعة على صخرة بعينها وعلى أخرى اسم صخرة المائتي قطعة . ولا يزال هذا الاسم موجوداً حتى الآن ، ولكن مؤخراً لم يأت إلى هنا إلا القليل من الزوار ، فيما قاله السيد ، أوتاني ، واحتضرت ممارسة رياضة القفز في الماء ، وإن كان قد شاهدها في صدر شبابه . كان معظم الناس الذين يحضرون لرؤية البراعم في الأيام الخوالي قبل إقامة السكك الحديدية يسلكون طريق مقاطعة أودا في طريقهم إلى هنا . وبتعبير آخر فإن الطريق الذي سلكه يوشيتسوني لدى هربه من العاصمة لا بد أنه كان المسار المعتاد .

ومن المؤكد أن تأكيد إيزومو قد جاء إلى هنا كذلك ، وشاهد الطبل هاتسوني .

لسبب ما كان تسومورا لا يزال يفكر في هاتسوني ، فيما هو جالس على الصخور . قال إنه ليس بالثعلب تادانوبو ، ولكنه منجذب إلى الطبل أكثر من انجذاب الثعلب إليه . وعندما رآه أحس بأنه يرى أبويه .

عند هذا الموضع ، لا بد لي أن أحدثكم بالمزيد عن تسومورا . ولم أكن أدري بالتفاصيل ، إلى أن أفضي لي بدخيلة نفسه على تلك الصخور . فكما سبق لي القول ، كنا رفيقي دراسة في الكلية التأهيلية وعلى صلة حميمة أحدهما بالآخر ، ولكن عندما حان الأوان للالتحاق بالجامعة عاد إلى مسقط رأسه في أوساكا لأسباب عائلية ، وانقطع عن الدراسة . وقد أبلغني في ذلك الوقت بأن عائلته كانت تعمل في إقراض المال منذ أجيال في منطقة شيمانوتشي في أوساكا . وقد توفي والداه في وقت مبكر ، فقامت جدته لأبيه على تربيته وأختيه . وقد تزوجت الأخت الكبرى منذ بعض الوقت ، وبدورها خطبت أخته الصغرى وأوشكت على الزواج . وساور شعور بالوحدة جدته ، ولم يكن هناك من يقوم على شؤون أعمال العائلة ؛ ولذا قرر بين عشية وضحاها ترك المدرسة ، وقد حثته على الالتحاق بجامعة كيوتو ، ولكنه قال إنه أكثر اهتماماً بالكتابة منه بالدراسة ، وإنه يمكن أن يعهد بالعمل إلى أحد الكتبة ، وإن سعادته الكبرى ستكون في العكوف على كتابة الروايات في وقت فراغه .

بعد ذلك ، كنا نراسل بين الحين والآخر ، ولكنه لم يشر إلى أنه يكتب أي شيء بخلاف الرسائل ؛ فمن شأن الطموح أن يتراجع عندما يستقر شاب في رحاب حياة هنيئة في موطنه ، وتسومورا بدوره

ربما حينما ألف هذا الوضع قنع بحياة التاجر الوادعة . وبعد عامين ، عندما قرأت في حاشية إحدى رسائله أن جدته قد توفيت افترضت أنه سرعان ما يعثر على عروس شابة جميلة في إطار تقاليد أوساكا ، وسرعان ما يصبح سيداً من سادة شيمانوتشي المهذبين .

وفي وقت لاحق ، زار تسومورا طوكيو مرتين أو ثلاثاً ، ولكن هذه الرحلة كانت أول فرصة لنا لتبادل الحديث مطولاً منذ تركه للدراسة . ولدى مقابلي له بعد فراق طويل وجدته على نحو ما توقعت ، فالرجال والنساء يتغيرون من الناحية البدنية لدى تركهم الدراسة واستقرارهم في بيوتهم ، حيث تبيض وجوههم ، وتمتلئ أجسامهم ، كأنما تحسّن طعامهم فجأة . وفي حالة تسومورا طراً على شخصيته بدورها ذلك التطور المتمثل في لطف المعشر الذي يميز شباباً من لوساكا يحيا عيشة راضية . وامتزجت لكنته (التي غدت الآن أقوى من ذي قبل) بآثار باقية من طريقته في الحديث حينما كان طالباً . ويتعين ، إذن ، أن يكون هذا الوصف كافياً للإيحاء بما كان عليه مظهره الخارجي .

أما فيما يتصل بتعلق تسومورا بالطبل هاتسوني ، ذلك التعلق الذي شرع فجأة في إيضاحه لي هنالك على الصخور ، فهو يشكل قصة طويلة مع دوافعه للإعداد لهذه الرحلة وهدفه الممكنون منها ، لكن سأوجز ما قاله لي بقدر الإمكان .

(أنشأ يقول) ربما لن يفهم مشاعري إلا رفيق من أبناء أوساكا ، رحل أبواه مبكرين ، كما حدث في حالتي وما عاد بمقدوره أن يتذكر محياهما . وكما تعلم فإن هناك ثلاثة أنواع من الموسيقى نشأت في رحاب أوساكا : قصائد الجوروري البطولية ، ومؤلفات الكوتو المتتمية إلى مدرسة إيكوتا ، وأغنيات جيوتا . ولست من عشاق

الموسيقى ، ولكن هذه الأشكال الموسيقية كانت جزءاً مما يحيط بي ، كنت أسمعها غالباً ، وتأثرت بها دون أن أدري . وأذكر بصفة خاصة مشهداً في غرفة داخلية في دار شيمانوتشي ، حينما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري . كانت امرأة رقيقة مدينية الطباع ذات بشرة شاحبة وعينين براقيتين صافيتين تعزف على الكوتو ، يصحبها عازف شاميسين متمكن مكفوف البصر . وأحسب أن صورة المرأة التي تعزف على الكوتو هي الأثر الوحيد لأمي الذي ظل عالقاً بذاكرتي . ولكن ليس من المؤكد أن المرأة كانت في حقيقة الأمر أمي . وبعد سنوات ، أخبرني جدتي بأنها هي نفسها ربما كانت المرأة التي علقت صورتها بذاكرتي ، وأن أمي ماتت قبيل ذلك الوقت . ورغم ذلك ، فمن الغريب أنني أتذكر أن عازف الموسيقى وتلك السيدة كانا يعزفان قطعة تنتمي إلى مدرسة إيكوتا عنوانها « كونكاي » أو « صيحة الثعلب » . ولأن جدتي وأختي كن من الدارسات على يد عازف وأستاذ الموسيقى نفسه فقد استمعت إلى مقطوعة « صيحة الثعلب » مرات عديدة عقب ذلك ، فكانت الصورة تزداد تجدداً على الدوام ، وتلك هي الأبيات التي كانت المعزوفة تصاحبها :

آه ، كم هو محزون ، كم هو محزون
أن الأم بخلاف الزهرة
في مرقد من قطرة ندى تنداح ،
أن امرأة الحكمة
يعلوها الضباب .
إذ تلتقي كاهناً ،
تلتفت الأم ،

عندما أنادي ،
كأنما تقول وداعاً .
ليس ثمة إلا الصراخ .
عبر الحقول ، عبر التلال ،
مجتازاً القرى
لمن جئت ؟ من أجلك .
من أجلك جئت .
أراحل أنت ؟ آه يا للألم !
إلى الغابة حيث مقامي
سأعود ،
بقلبي المترع بالحنين ،
دون أن يدري قلبي المترع بالحنين .
عبر زهور الأقحوان البيض ،
من خلل الصخور ، من بين ثنايا اللبلاب ،
متناهية عبر
الممر الخيزراني الضيق
جميلة هي
أصوات الحشرات .
السماء تشرع في النحيب ، آه !
إنها تشرع في النحيب ،
حتى هذا الصباح ،
حتى هذا الصباح ،
ما من أثر يبقى ،
في حقول الغرب ،
الحواجز متقلقلة

فلتعبر بخطى متعثرة ،

الأودية والذرى ،

فلتعبر ذاك التل ،

فلتعبر هذا التل ،

يشقك الحنين ، يشقك الحين ، ويضنيك الشوق !

منذ ذلك الحين تعلمت ذلك اللحن ، والفواصل النغمية
كذلك ، لكن من المحقق أن شيئاً ما في هذه الأبيات قد غاص في
فؤادي الغض سهل التأثر ، بحيث دفعني إلى تذكر عزف معلم
الموسيقى والمرأة لهذه المقطوعة .

تحفل أشعار جيوتا بمقاطع غير متماسكة وملتبسة من حيث
القواعد التي تحكمها ، وغالباً ما يبدو هذا الغموض مقصوداً .
فالأغنيات التي تضرب جذورها في تقاليد مستمدة من مسرح النو أو
من الجوروري يصعب فهمها بشكل خاص دون معرفة بالمصادر .
وربما كانت « صرخة الشعب » مما ينتمي إلى هذا النوع . غير أن
الأبيات القائلة : « آه ، كم هو محزن ، كم هو محزن ، أن الأم
بخلاف الزهرة » و « تلتفت الأم / حينما أنادي / كأنما لتقول وداعاً »
تمتلئ بحزن صبي يتوق إلى أمه الراحلة ، وبشكل ما أثرت في
نفسي كطفل بريء . وتبدو الأبيات القائلة : « عبر الحقول ، عبر
التلال / مجتازاً القرى » و « فلتعبر ذاك التل ، فلتعبر هذا التل »
وكأنها تشبه هدهدة أم لطفله قبيل نومه . وليس لدي من سبيل لمعرفة
ما تعنيه الأشكال الخاصة بلفظ « كونكاي » ، ولكنني تدريجياً وفيما
رحت أستمع إلى الأنشودة مراراً وتكراراً ، أدركت على نحو غامض
أن لها علاقة بشعب .

ربما يرجع هذا إلى أن جدتي كثيراً ما صحبتني لمشاهدة

مسرحيات العرائس في مسارح البونراكو والهوري ، وترك ذلك
المشهد الذي يرد في مسرحية « أوراق المرنطة » والذي تفارق الأم
فيه ولدها أثراً عميقاً في نفسي . الصوت المنتظم لأعواد القصب ،
فيما الثعلبة الأم تمضي مضطربة في مساء خريفي ، القصيدة التي
تكتبها على الشوجي ، وهي مثقلة القلب لاضطرارها إلى ترك وليدها
النائم :

إذا افتقدتني
فأقبل ، وأبحث
في غابة شينودا
في إيزومي

سيصعب على امرئ في ظروف أخرى أن يتخيل مدى
الجبروت الذي حركت به هذه المشاهد صبياً لم يعرف أمه حق
المعرفة نظراً لرحيلها عن الدنيا . في الأبيات القائلة : « بقلبي
المترع بالحنين / دون أن يدري قلبي المترع بالحنين / عبر زهور
الأقحوان البيض / من خلال الصخور ، بين ثنايا اللبلاب / متناهية
عبر / الممر الخيزراني الضيق » . يسعى وليد الأنشودة في يأس وراء
شبح الثعلبة البيضاء المتراجع ، فيما هي تنطلق عدواً عبر الممر
الخريفي الملون ، نحو وكرها في الغابة ، وإذا أحللت نفسي محل
ذاك الوليد ازداد شعوري بغياب أمي حدة .

وربما لأن غابة شينودا قريبة من أوساكا ، فإن الأناشيد التي تدور
حول الثعلبة الأم غالباً ما تكون جزءاً لا يتجزأ من الألعاب التي يلهو
بها الأطفال في الدار . وأذكر أنشودتين تقول إحداهما :

دعونا نمسك بها ، دعونا نمسك بها ،
ثعلبة غابة شينودا ،

دعونا نمسك بها !

وفيما الأطفال ينشدون ، يقوم أحدهم بدور الثعلبة ، ويقوم آخرون بدور صيادين يمسكان بأنشطة حبل كبيرة يعتزمان بها الإمساك بالثعلبة . وقد سمعت أن هناك لعبة مماثلة في طوكيو ، فطلبت ذات مرة من إحدى فتيات الجيشا في مشرب للشاي أن تؤديها لي ، لكن الكلمات والألحان كانت مختلفة نوعاً ما عن اللعبة على نحو ما تؤدي في أوساكا . وفي طوكيو يظل المؤدون جالسين ، أما في أوساكا فهم يؤدون وهم وقوف ، وتدنو « الثعلبة » تدريجياً من الأنشطة ، متوثبة بحركات الثعالب على إيقاع الموسيقى . وهذا المشهد يبدو جذاباً بصفة خاصة عندما تكون « الثعلبة » فتاة جميلة أو عروساً في شرح الشباب . . وما زلت أذكر أنني ذات أمسية من أمسيات شهر يناير دعيت للتمثيل في دار أحد الأقارب وهناك رأيت امرأة شابة ، صريحة ، بديعة الجمال ، كان تقليدها للثعلبة بارعاً على نحو مذهل . وفي اللعبة الأخرى يجلس عدد من الأطفال في شكل حلقة وكل منهم يمسك بيد الآخر ، وتجلس « الثعلبة » في وسط الدائرة . وفيما الأطفال يغنون ، فإنهم يعمدون إلى تمرير شيء صغير فيما بينهم ، كحبة بقول ، من يد إلى يد بحيث أن الثعلبة لا تستطيع رؤية هذا الشيء ، وعندما تنتهي الأنشودة ، يتجمد الجميع في مواضعهم وتحاول الثعلبة تخمين الشخص الذي يمسك في يده حبة البقول . وتلك هي كلمات هذه الأنشودة :

نللم الشعر ،
نللم نبات الأفسنتين ،
في أيدينا تسع بقلات ،
تسع بقلات ، ولكن أكثر من ذلك

نفتقد دار آبائنا .

إذا افتقدتني

أقبل وابحث

في وريقات المرنطة الأسيانة بغابة شينودا !

أستشعر في هذه الأنشودة ، ولو على نحو عاجل ، حنين الطفل إلى موطنه . فالعديد من الصغار يأتون من ريف كاواتشي وإيزومي للعمل في متاجر أوساكا كمتدربين متعاقدين وكخدمات . وبمقدورك في ليالي الشتاء أن ترى في دور الحرفيين في سيمبا وشيمانوتشي هؤلاء الخدم وهم يغلقون الأبواب الخارجية ، وينضمون إلى العائلة حول المدفأة لترديد هذه الأنشودة . ويبدو لي الآن أنه حينما ينشد هؤلاء الأطفال الذين تركوا قراهم الريفية ليتعلموا التجارة وأصول السلوك الراقي : « نفتقد دار آبائنا » فلا بد أنهم يفكرون في آبائهم وأمهاتهم وهم يرقدون في الغرف المعتمدة في الدور ذات الأسقف المكسوة بالقش . وفيما بعد ، سمعت هذه الأنشودة وهي تستخدم مصحوبة بعزف الموسيقى في الفصل السادس من مسرحية « الأتباع المخلصون » عندما يدخل الفارسان المتتميان إلى طبقة الساموراي وهما يناديان وقد غطيا وجهيهما بقبعتين من القش ، وقد تأثرت بمدى مطابقة الأنشودة لمحنة يوتيتشن أوكايا وأوكارو .

كان هناك العديد من الخدم الصغار في دار شيمانوتشي ، وعندما كنت أراهم يلهون ويغنون هذه الأغنية كنت أحس نحوهم بالتعاطف والحسد في الوقت نفسه . لقد تركوا آباءهم وأمهاتهم ليقطنوا مع أغراب ، وذلك أمر محزن ، ولكن لهم آباء يمكنهم رؤيتهم في أي وقت بالعودة إلى موطنهم . أما أنا فلم يكن لي أب ولا أم . وقد أوحى لي ذلك بفكرة قوامها أن بمقدوري لقاء أُمي إذا

مضيت إلى غابة شينودا ، وفي الصف الثاني أو الثالث الابتدائي تسللت من الدار وذهبت مع رفاقي من الصف إلى هناك . وحتى الآن لا تزال الغابة مكاناً يتعذر الوصول إليه ، فهي على مسيرة ميل ونصف الميل من محطة على خط نانكاي الكهربائي ، وفي ذلك العهد ربما لم يكن هناك قطار ، لأنني أذكر فيما يبدو أنني ركبت عربة تجرها الجياد متهالكة المنظر والسير مسافة لا بأس بها على الأقدام . في غابة من أشجار الكافور العملاقة ، وجدت مزار ورقة المرنطة المقام لإيناري ، إله الحصاد ، وبثراً يطلق عليها اسم « مرآة تجلي أميرة ورقة المرنطة » . بعثت الراحة في نفسي قليلاً اللوحات في قاعة النذور ، والألواح التذكارية التي تصور ذلك المشهد الذي تغادر فيه الثعلبة الأم ابنها ، ولوحة شخصية للممثل جاكودون ، ثم على امتداد الطريق الذي أفضى بي بعيداً عن الغابة ، رحت أصغي في شغف لأصوات الأندال ، المتناهية من وراء الشوجو في الدور الريفية . كان الطريق يجتاز منطقة ينتج فيها قطن كاواتشي ، ولا بد أنه كان هناك العديد من العاكفين على النسيج . أوغل الصوت في التخفيف من شعوري بالتعاسة .

غير أنه من الغريب أنني كنت أفقد أمني كل هذا الافتقاد ، دون افتقاد أبي على النحو ذاته ، ذلك أن أبي هو الذي مات أولاً ، ومن المحتمل أن صورة أمني كانت ماثلة في موضع ما من ذاكرتي ، بينما لم تستطع صورة أبي البقاء . ويوحى لي هذا بأن حبي لأمي كان ببساطة حيناً غامضاً إلى « المرأة المجهولة » ، وبتعبير آخر أنه كان مرتبطاً بالبراعم الأولى لحب المراهقة . وفي حالتي ، كانت « امرأة الماضي » ، التي هي أمني ، والمرأة التي ستصبح زوجتي في المستقبل هما معا « امرأتان مجهولتان » وكل منهما يربطها بي خيط

من خيوط القدر لا يبين . وربما كانت هذه الحالة الذهنية قابضة في أغوار الجميع إلى درجة معينة ، حتى في أغوار أولئك الذين تختلف ظروفهم عن ظروفهم . وهناك دليل على هذا في « صرخة الثعلب » ، فأبيات مثل « لمن جئت ؟ من أجلك » . و « أراحل أنت ؟ آه ، يا للألم » توحى بحنين طفل إلى أمه ، لكنها تبدو كما لو كانت تعبيراً عن عذاب عاشقين ساعة الوداع . ولا شك في أن مؤلف الأنشودة قد تعمد جعلها غامضة بما يكفي للسماح بطرح هذين التفسيرين . وعلى أي حال ، فإنني مقتنع بأنني منذ المرة الأولى التي سمعت فيها هذه الأنشودة رأى خيالي ما يفوق أمي وحدها . وأعتقد أنني حسبت أنني أرى أمي ، وفي الوقت نفسه ، زوجتي . وهكذا ، فإن صورة أمي التي حملتها في صدري الصغير لم تكن صورة امرأة متقدمة في العمر ، وإنما صورة امرأة شابة وجميلة على نحو خالد . كانت أمي أحلامي مثل سائق حصان الجرس سانكيتشي على خشبة المسرح : النبيلة الرائعة شيجينوي التي ترتدي ثوباً قشياً ، وتعمل مربية لابنة ديميو ، وكنت في أحلامي سانكيتشي .

ربما كان الأمر راجعاً إلى أن كتاب المسرح في عهد توكوجاوا كانوا بارعين على نحو مذهل في التلاعب بالعقل الباطني لجمهورهم . وفي المسرحية التي تدور حول سانكيتشي ، توضع أميرة على جانب ، وسائق حصان جر صبي على الجانب المقابل ، وبينهما الوصيفة ، التي هي ممرضة وأم في الوقت ذاته . على المستوى السطحي تتناول المسرحية الحب المتبادل بين الآباء وأبنائهم ، ولكن في الظلال يشار إلى المشاعر الرومانسية غير المحددة بعد التي يستشعرها الصبي . ومن منظور سانكيتشي ، على الأقل ، فإن أمه والأميرة ، وهما معاً تقيمان في قصر الديميو الداخلي

المنيف يمكن لهما معاً أن تكونا محلاً لتوقه ومناطاً لحنيه . وفي مسرحية « أوراق شجرة المرنطة » ، فإن الأب والابن يشتركان في حبهما للأم ، ولكن في هذه الحالة تزداد خيالات الجمهور عذوبة عن طريق الحيلة الفنية التي تجعل من الأم ثعلبة . ولقد وددت دائماً أن تكون أُمي ثعلبة ، على نحو ما هو الأمر في المسرحية ، وحسدت الصبي الصغير على نحو فظيع ؛ ذلك أنني ما كنت لأمل أن ألتقي بأمي في هذه الحياة قط ؛ لأنها مخلوقة بشرية ، ولكن لو أنها كانت ثعلبة في صورة بشر ، فمنذا الذي يستطيع القول بأنها قد لا تظهر من جديد في هيئة أُمي ذات يوم ؟ ومن المؤكد أن مشاعر أي طفل فقد أمه ستنحو النحو ذاته ، لدى مشاهدته للمسرحية . وفي رقصة الرحيل في مسرحية « أشجار الكرز الألف » يبدو الارتباط الخيالي بين الأم والثعلبة ، بين المرأة الجميلة والعاشق أكثر حميمية ، فالأم والطفل هما ثعلبان وبينما يصور شيزوكا والثعلب تادانوبا على أنهما سيدة وتابع فإن المشهد يتم التلاعب به بحيث يبدو كأنه رحلة عاشقين ؛ ولربما كان هذا هو السبب في أن هذه المسرحية الراقصة كانت مسرحيتي الأثيرة ، فقد شبهت نفسي بالثعلب تادانوبا . وفي غمار أخيلتي ، اجتذبتني قرع الطبل الذي شد عليه جلد أبوي ، وتبعت الأميرة شيزوكا عبر سحب براعم الكرز في جبل يوشينو ، بل إنني فكرت في دراسة الرقص ، بحيث أتحول إلى تادانوبو على خشبة التدريب .

أضاف وهو يحدق ، عبر النهر ، في الظلال الغابية لقريّة ناتسومي :

- لكن هذا ليس كل ما في الأمر ؛ ففي هذه المرة أشعر بالفعل أن الطبل هاتسوني هو الذي اجتذبتني إلى يوشينو .
وتأملت في عينيه الودودتين ابتسامة لم يقدر لي فهم معناها .

من الآن فصاعداً ، سأقدم الصورة ، التي رسمها تسومورا ، على نحو غير مباشر .

كان الشغف الخاص الذي استشعره تسومورا حيال إقليم يوشينو يرجع في أحد جوانبه ، إذن ، إلى تأثير مسرحية « أشجار الكرز الألف » . أما السبب الآخر لهذا الشغف فهو العلم بأن أمه قد جاءت من مقاطعة ياماتو . وعلى امتداد وقت طويل ، ظل المكان الذي أقبلت منه على وجه الدقة في ياماتو وما إذا كانت عائلتها قدر لها البقاء من الأمور التي يلفها الغموض . وقد سأل جدته ، حينما كانت لا تزال على قيد الحياة ، رغباً في معرفة المزيد بقدر الإمكان ، ولكنه عجز عن الحصول على ردود واضحة ؛ إذ لم تقل إلا أنها ليس بوسعها التذكر . ومن الغريب أن أياً من أعمامه أو عماته لم يكن يعرف من أين جاءت أمه كذلك . ولأن عائلة تسومورا كانت من العائلات العريقة ، فإن وجود علاقة تمتد إلى جيلين أو ثلاثة كان من شأنها أن تكون في ظل الظروف العادية أمراً طبيعياً كشرط للارتباط بصلة المصاهرة . ولكن حقيقة الأمر هي أن أمه لم تجيء مباشرة من ياماتو للزواج من أبيه ، وإنما بيعت وهي طفلة إلى إحدى دور الترفيه الراقية في أوساكا ، ثم تبنتها عائلة محترمة قبل زواجها . إذن ، فوفقاً للمواد الواردة في سجل العائلة ، ولدت الأم في ١٨٦٣ ، ووافق على زواجها أوراكادو ، المقيم في رقم ٣ إيمباشي في ١٨٧٧ ، وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وماتت في ١٨٩١ في الثامنة والعشرين من عمرها . كان هذا هو كل ما تمكن تسومورا من معرفته عن أمه في الوقت الذي حصل فيه على شهادة المدرسة الإعدادية . وفي وقت لاحق أدرك أن جدته وكبار العائلة الآخرين لم يدلوا بالكثير من

التفاصيل لأنهم لا يحبون الحديث عن ماضي أمه . ولكن بالنسبة لتسومورا لم تؤد الحقيقة القائلة بأن أمه قد نمت في عالم الفن التجاري إلا إلى زيادة حنينه لها ، ولم يجد في مثل هذه النشأة ما يشينها أو يبعث على الشعور بالعار على نحو خاص . وربما قويت هذه النزعة عنده لأن أمه تزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وحتى في عهد الزواج المبكر ذاك ربما كانت لا تزال شابة طاهرة ، لم يكدرها ما في الوسط الذي عايشته من نزعات . ولا شك أنها بفضل هذا تمكنت من إنجاب ثلاثة أطفال ، وإذ جاءت إلى دار زوجها فتاة بسيطة ، فلا بد أنها قد دربت على المهارات المختلفة التي تليق بزوجة تنتمي إلى أسرة رفيعة الشأن . وقد رأى تسومورا ذات مرة كتاب تعليم للعزف على الكوتو استنسخته أمه وهي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها . وعلى رقعة كبيرة من الورق طويت مرتين كتبت أبيات الشعر أفقياً وأضافت في حرص بين الأبيات علامات العزف على الكوتو بالحبر الأحمر . كان الخط جميلاً كتب بأسلوب أواي في النسخ .

بعد ذلك مضى تسومورا إلى طوكيو للدراسة ، ومن الطبيعي أنه نشأ بعيداً عن العائلة ، ولكن رغبته في العثور على دار أمه لم تزد إلا قوة . وفي حقيقة الأمر أنه لن يكون من قبيل المبالغة القول بأنه أمضى صدر شبابه في الحنين إلى أمه . لم يستشعر فضولاً بالغاً حيال المارة في الشارع والفتيات وفتيات الجيشاو الممثلات اللاتي كان يمر بهن في الطريق ، ولكن النسوة اللاتي اجتذبن انتباهه كن على الدوام ممن لهن وجوه تشبه صورة أمه التي عرفها من الصور الفوتوغرافية . وعندما قرر التوقف عن الدراسة والعودة إلى أوساكا لم يكن ذلك استجابة لرغبة جدته في القيام بذلك فحسب ، وإنما لأنه كان مجتذباً

إلى الإقليم ، إلى بقعة أقرب إلى موطن أمه قليلاً ، وإلى تلك الدار في شي نوتشي ، حيث أمضت نصف عمرها القصير . وكانت هناك كذلك الحقيقة القائلة بأن أمه امرأة تنتمي إلى غربي اليابان . وفي طوكيونادراً ما التقى بامرأة تشبهها ، ولكنه في أوساكا سيلتقي بمن تشبهها بين الفينة والأخرى . لم يسمع إلا بأنها نشأت في دار للترفيه ، وللأسف لم يدر في أي دار على وجه الدقة ، ولكن لكي يلقي من تماثل أمه راح يخالط النسوة اللاتي يرفهن عن الأثرياء ويتناول الشاي في الدور المتخصصة في تقديمه . وكنتيجة لهذا وقع خلصة في إसार الهوى مرة أو مرتين ، واكتسب سمعة مقبلة تدور حول أنه فتي متسبب الأخلاق . ولكن لأن أنشطته تلك نبعت من توفقه إلى أمه ، فإنه لم ينسق إلى أبعد مما ينبغي قط ، وأبقى على عفته . ثم ، بعد ثلاث سنوات ، ماتت جدته .

بعد موتها بوقت قصير ، مضى لترتيب حاجياتها ، وبدأ بتفقد خزانة مليئة بالأدراج مودعة في المخزن . اختلطت مع أوراق مكتوبة بخط جدته بعض الوثائق والرسائل العتيقة التي لم يسبق له أن رآها قط ، ومن بينها رسائل حب متبادلة بين والديه ، خلال الفترة التي كانت أمه فيها ملزمة بحكم عقد مع أهلها بالمكوث في الدار التي كانت بها ، ورسالة موجهة إلى أمه يبدو أنها من أمها في مقاطعة ياماتو ، وشهادات من أساتذتها الذين علموها العزف على الكوتو والشاميسين وترتيب الزهور وإعداد حفلات الشاي . ولم تكن رسائل الحب - وهي ثلاث رسائل من أبيه ورسالتان من أمه - شيئاً يتجاوز الملاحظات الحميمة الصبائية التي تدور بين شاب وشابة غمرتتهما نشوة الحب الأول ، لكنها توضح النضج المبكر للشباب في ذلك العهد ، وكانا فيما يبدو يلتقيان سراً ، وعلى الرغم من أن الخط لم

يكن متسماً بالنضج ، إلا أن اللغة الكلاسيكية الرفيعة التي صيغت بها رسائل أمه كانت شيئاً متألّقاً إذا ما تذكر المرء أن عمر كاتبها لم يتجاوز الرابعة عشرة . ولم تكن هناك إلا رسالة واحدة من عائلتها في الريف ، وكانت موجهة إلى « الأنسة سومي ، طرف السيد كوناكاوا ، رقم ٩ ، شيماتشي ، مدينة أوساكا » وكانت موجهة من « عائلة كومبو سوكيزايمون ، كوبوكايتو ، قرية كوزو ، منطقة يوشينو ، مقاطعة ياماتو » وتستهل الرسالة على هذا النحو : « أكتب لك تعبيراً عن امتناننا الشديد لكونك ابنة على هذا القدر البالغ من الإخلاص . الجو يزداد برودة مع انقضاء كل يوم ، ولكننا شعرنا بالارتياح لأن كل شيء على ما يرام بالنسبة لك . أشكرك وكذلك أباك من أعماق قلبينا » . وأعقبت ذلك سلسلة طويلة من النصائح ، فعليها أن تنظر إلى القيم على الدار باعتباره أباه ، وأن تخلص له ، وأن تنتبه إلى دروسها ، وألا تحسد الآخرين على مقتنياتهم ، وأن تؤمن بالآلهة وبيوذا ، وما إلى ذلك . جلس تسومورا على الأرضية المتربة للمخزن وراح يقرأ الرسالة مراراً وتكراراً في الضوء المتهافت . وعندما أدرك ، أخيراً ، أن الشمس قد غربت ، مضى إلى مكتبه ، ونشر الرسالة تحت مصباح كهربى . طفت فوق الورقة صورة العجوز ، وهي منكبة تحت ضوء مصباح زيتي في دار ريفية في كوزو تفرك عينيها وهي تسطر هذه الرسالة لابنتها ، كانت لفافة ورقية يزيد طولها على اثني عشر قدماً . وكانت هناك بعض النقاط الغامضة في الهجاء وتركيب الجمل ، كما يمكن للمرء أن يتوقع في رسالة من جدة ريفية ، ولكن الحروف كانت مختزلة على نحو سليم بأسلوب أواي . كان خطأ جيداً ، وليس خط ريفية ساذجة . ورغم ذلك ، فمن الواضح أن الأسرة حلت بها نائبة ما فاضطرت إلى توقيع عقد العمل لابنتها لقاء النقود . وقد أرخت الرسالة بالسابع من ديسمبر ،

ومن سوء الطالع أنها لم تشر إلى العام الذي سطرته فيه ، ولكن كان هناك ما يدعو إلى التكهن بأنها أول رسالة سطرتها إلى ابنتها بعد إرسالها إلى أوساكا . ومع ذلك فقد ألمحت بعض الفقرات إلى الوحدة التي يستشعرها شخص لم تعد في عمره بقية : « هذه هي وصية أمك الأخيرة » و « وحتى حينما لا تعود الحياة تدب في عروقي ، فإني سأكون معك على الدوام ، أساعدك في إحراز النجاح » . ومن المثير للاهتمام بصفة خاصة بين التحذيرات الحريصة بضرورة القيام بكذا والامتناع عن فعل كيت وجود تحذير مطول يقضي بعدم إهدار الورقة أو إتلافها : « هذه الورقة صنعتها أمك وأوريتو ، فاحفظيها على الدوام قرب قلبك ودعيها تكن عزيزة عليك ، لربما تعيشين في وفرة ولا ينقصك شيء ، ولكن عليك ألا تهدري الورقة ، فقد كدحت أمك وأوريتو لصنعها . تشققت أيدينا ، واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » . وفي مجمله ملأ هذا النهي عشرين سطرًا . وعلم منه تسومورا أن أقارب أمه كانوا من صناع الورق ، وأن هناك امرأة ، هي خالته فيما يبدو ، تدعى أوريتو . وظهرت كذلك امرأة تدعى أواي . « تمضي أواي كل يوم إلى الجبال ، حيث يزداد عمق الجليد ، لاستخراج المرنطة ، فنحن جميعاً نعمل لادخار النقود ، وعندما ندخر ما يكفي لدفع أجرة السفر فسوف نزورك ، وبمقدورك انتظار حدوث ذلك » . وانتهت الرسالة بقصيدة تقول :

فؤاد الأم
التي تتشهد توقاً لطفلتها يدركه الليل ؛
ولذلك فإني أحزن
إلى ممر الظلام

قبل عهد السفر بالسكك الحديدية كان « ممر الظلام » يعبره جميع سالكي الطريق الرئيسي القديم من أوساكا إلى ياماتو . وكان المعبد الواقع عند قمة الممر شهيراً باعتباره مكاناً يصغى فيه لأصوات طيور الوقواق ، وقد مضى تسومورا إلى هناك عندما كان طالباً في المدرسة الإعدادية ، وخلال صعود الجبل ذات ليلة توقف لنيل قسط من الراحة في المعبد . وحوالي الساعة الرابعة أو الخامسة فجراً ، وفيما الشوجي الخارجي يطل عليه الضياء رهيفاً صاح وقواق فجأة مرة من قلب التلال الواقعة خلف غرفته ، ثم ندت صيحة أخرى ، سواء أكانت من الطائر نفسه أو من غيره ، ثم ثالثة . وفي التوتوالي صياح طيور الوقواق حتى لم يعد فيه جديد . وفي ذلك الوقت حمل تسومورا الأمر على علاته ، ولكنه عندما قرأ الرسالة ، استعاد ذكرى صيامها بحنين بالغ . حدث نفسه بأنه قد فهم السر في أن الأسلاف قد قارنوا بين صوت هذا الطائر وأرواح الموتى .

ولكن تسومورا استشعر في موضع آخر من رسالة العجوز أغرب أشكال الإلفة ، فقد فصلت جدته لأمه القول مراراً وتكراراً فيما يتعلق بالثعالب : « ينبغي عليك صبيحة كل يوم ، من الآن فصاعداً ، أن تبتهلي إلى فرار إيناري وإلى الثعلب الأبيض مايوبو - نو - شين ، فكما تعلمين يأتي الثعلب على الدوام حينما يدعوه أبوك ، ويرجع هذا إلى أننا جميعاً على قلب رجل واحد » . « أعلم أننا ما استطعنا التغلب على مصاعبنا الأخيرة إلا بمساعدة الثعلب الأبيض . وفي كل يوم أصلي من أجل صحة وحسن طالع الناس الذين يظنونك تحت سقفهم . علينا التمسك بعروة الإيمان ! » . بدا جلياً من فقرات كهذه أن جدي تسومورا كانا من المتبتلين المخلصين لإيناري . وربما كان مزار إيناري مزاراً صغيراً شيد داخل الدار ، وربما كان

لمبعوث إيناري ، أي الثعلب الأبيض ، وكر قريب . أما فيما يتعلق بالفقرة القائلة « يأتي الثعلب على الدوام حينما يدعوه أبوك » فلم يكن من الواضح ما إذا كان الثعلب الأبيض يخرج بالفعل من وكره استجابة لصوت الرجل العجوز ، أم أنه يلج هذا الرجل أو المرأة متلبساً في صورة روح ، ولكن جد تسومورا كان بمقدوره استدعاء الثعلب حسبما يريد ، وكان الثعلب القائم على رعاية العجوزين ، يهيمن على مصير العائلة بكاملها .

جاء في الرسالة : « هذه الورقة صنعتها أمك وأوريتو ، فاحفظيها على الدوام قرب قلبك ، ودعيها تكون عزيزة عليك ! » . ضم تسومورا لفافة الورق إلى قلبه في إجلال . إذا كانت هذه الرسالة قد بعثت إلى أم تسومورا بعد وقت قصير من إيفادها إلى أوساكا ، أي قبل ١٨٧٧ ، فعمرها إذن ثلاثون أو أربعون عاماً ، ولكن الورق رغم أن الزمن حوله إلى لون بني جميل فقد كان يفوق في مادته كثيراً الورق الحديث وشديد المتانة . أمسك به تسومورا أمام المصباح وراح يتأمل الألياف القوية الرفيعة . واستعاد في ذهنه السطور القائلة : « كدحت أمك وأوريتو لصنعها ، تشققت أيدينا واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » ، فأحس أن الورقة ، التي لم تكن بعيدة في الشبه عن جلد امرأة عجوز ، تتدفق بدم المرأة التي حملت أمه في أحشائها . لا شك في أن أمه بدورها قد ضمت الرسالة لدى وصولها إلى تلك الدار في شيما تشي إلى قلبها في إجلال على نحو ما فعل . وهكذا فإن الرسالة إذا تحمل عبق رذني / ثوب المرأة الراحلة « كانت ذكرى عذبة وغالية على نحو مضاعف .

وبناء على ذلك ، استخدم تسومورا الإشارات الواردة في الرسالة للوصول إلى عائلة أمه . وما من حاجة تدعونا إلى وصف هذه العملية

بالتفصيل . فالفترة الممتدة إلى ثلاثين أو أربعين عاماً خلت قد شهدت الاضطرابات المصاحبة لإصلاحات الميجي ، واندثرت دار كوناكاو الواقعة في رقم ٩ شيماتشي التي بيعت لها أمه وكذلك عائلة أوراكاو التي تبنتها قبل وقت قصير من زواجها ، وتوفي الأساتذة الذين منحوها شهادات في عزف الكوتو والشاميسين وترتيب الزهور وإعداد حفلات الشاي . وكان المفتاح الوحيد في يده هو الرسالة نفسها ، والمنهاج الأكثر سهولة بل والوحيد هو القيام بزيارة قرية كوزو في منطقة يوشينو . وفي شتاء العام الذي توفيت فيه جدته حرص على الالتزام بتقاليد الإجلال لها التي تستمر مائة يوم ، ثم كتم حقيقة هدفه عن الجميع ، وانطلق في حسم إلى كوزو .

من شأن التغيرات التي تطرأ على الريف أن تكون أقل حدة من تغيرات أوساكا . وكانت قرية كوزو بصفة خاصة قرية نائية ، توشك أن تكون زقاقاً جبلياً مسدوداً في جبال منطقة يوشينو ، وحتى عائلة ريفية فقيرة لن يقدر لها أن تختفي تماماً ، في غضون جيلين أو ثلاثة أجيال . وإذ أثار هذا الاحتمال انفعال تسومورا ، استأجر عربية ريكشا في كاميتشي ذات صباح زاهٍ في شهر ديسمبر ، وأسرع إلى كوزو سالكاً الطريق الرئيسي ، الذي سلكه معه اليوم . عندما ألقى أول نظرة مترعة بالشوق على دور القرية اجتذبت عيناه توأاً إلى الورق الذي وضع في الخارج ليجف تحت طنف كل دار على وجه التقريب . رتبت رقعة الورق المربعة على ألواح في صفوف منتظمة ، تماماً كما توضع أعشاب البحر خارجاً لتجف في قرى الصيادين . وإذ تناثرت كأنها بطاقات هائلة على جانبي الطريق الرئيسي وعلى سفوح التل الممهدة عالية وخفيضة ، بدت رقاع الورق صافية البياض ومتألقة في أشعة الشمس الباردة . تحدرت الدموع على خدي

تسومورا ، فقد كانت تلك أرض أسلافه . لقد حلم طويلاً بدار أمه ،
والآن هو ذا يطأ أرضها . عندما ولدت أمه امتد أمام ناظرها المشهد
المسالم ذاته الذي تقدمه هذه القرية الجبلية التي لا تعرف كر الزمان
ولا فره ، والذي يمتد أمامه الآن ، أحس بأنه قاب قوسين أو أدنى من
الماضي . ولو أنه أغمض عينيه للحظة لربما يرى أمه عندما
يفتحهما ، وهي تلهو مع مجموعة من الصغيرات داخل السور
الخيزراني الخشن غير بعيد عنه .

ولما كان اسم «كومبو» يبدو غريباً ، فقد توقع أن يصل إلى
العائلة سريعاً ، ولكنه عندما وصل إلى الحي الذي يدعى كوبو كايكو
علم أن هناك العديد من العائلات تحمل اسم كومبو . لم يكن هناك
ما يمكن القيام به إلا المضي مع رجل عربية الريكشا من باب إلى باب
سائلاً كل عائلة تحمل اسم كومبو . قيل له إنه ربما كان هناك شخص
كهذا قديماً أما اليوم فما من أحد يدعى كومبو سوكيزايمون . وأخيراً
نهض أحد معلمي القرية من مؤخرة متجر للحلوى ، وقال : « تلك
ربما كانت الدار التي تنشدها » . وقف في الشرفة ، وأشار إلى سقف
يكسوه القش ، على جانب التل ، إلى اليسار من الطريق الرئيسي .
طلب تسومورا من رجل عربية الريكشا انتظاره في حانوت الحلوى ،
وتاركاً الطريق الرئيسي سلك ممراً صاعداً بالتدرج على ارتفاع
٦٠ متراً على منحدر يسير الانحدار ، للوصول إلى الدار ذات السقف
المكسو بالقش . كان الصباح متشعباً بالبرودة ولكن ثلاث أو أربع دور
تكأكات في جيب متجانس من سنا الشمس ، واحتمت من الريح بتل
هين الانحدار خلفها . كان تصنيع الورق يجري على قدم وساق في
كل دار . وفيما تسومورا يرقى الممر ، أدرك أن بعض النسوة الشابات
في الدور الواقعة أعلى التل قد كففن عن عملهن لينظرن في فضول

إلى الشاب المديني غير المألوف الذي أقبل نحوهم . بدا أن صنع الورق هو من اختصاص النسوة والفتيات اللاتي يعملن في الأفنية الواقعة أمام الدور ، وغالبيتهم تلف مناشف على هيئة عصاة حول الرأس . اقترب تسومورا عبر الضوء الصافي المبهج المنعكس من الورق والمناشف من الدار التي أشار العجوز إليها . إلى يمين الدار الرئيسية كانت هناك سقيفة ذات أرضية من ألواح خشبية ثقيلة . كانت لوحة الاسم تحمل اسم « كومبويوشيماتسو » وليس سوكيزايمون . على أرضية السقيفة الخشبية أفعت فتاة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها ، قد غمست يديها في الماء ، الذي بدا معتكراً كأنما غسل الأرز فيه . راحت تحرك إطاراً خشبياً جيئة وذهاباً في الماء ثم ترفعه برشاقة . وفيما الماء الأبيض الموجود في الإطار ينساب من القاع الذي جعل على هيئة سلة للتبخير ، راح يرسب طبقة من الإرساب في شكل قطعة من الورق ، وناقلة هذه الطبقة إلى موضعها في صف على الأرضية الخشبية ، غمست الإطار في الماء . ولما كان باب السقيفة مفتوحاً ، فقد وقف تسومورا وراء سور من زهور الأقحوان الداوية ، وراح يرقب الفتاة وهي تعد ببراعة شريحتين ثم ثلاثاً من الورق . كانت رشيقة ، وتبدو ريفية إلى أبعد الحدود ، متينة البناء ذات بنية كبيرة التكوين . كان خداهما قوين يكسوهما رواء الشباب المترع بالصحة ، لكن فؤاد تسومورا انجذب إلى أصابعها المنغمسة في الماء المعتكر . لا عجب إذن أن « تشققت أيدينا واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » . ولكن حتى أصابعها الحمراء المتورمة والمهترئة في الهواء البارد كانت توحى بقوة الشباب التي لا يكبح جماحها . كانت توحى بجمال يدعو إلى الإشفاق .

حينما حول انتباهه بعيداً عنها ، لمح فراراً عتيقاً لإيناري عند

الركن الأيسر للدار الرئيسية ، قادته قدماء عبر السور إلى الفناء ، دنا من امرأة في الرابعة أو الخامسة والعشرين من العمر ، يبدو أنها ربة الدار ، كانت تضع الورق خارجاً ليجف .

عندما سمعت منه بالغرض من زيارته ، ترددت ، فقد كان الأمر مفاجئاً تماماً . لكنه عندما أطلعها على الرسالة ، بدا الاقتناع عليها . قالت : « أخشى أنني لا علم لي بالأمر . ألا تحدث العجوز في هذا الشأن ؟ » وهتفت منادية امرأة داخل الدار . كانت هذه المرأة هي أوريتو التي ورد اسمها في الرسالة ، الأخت الكبرى لأم تسومورا .

على الرغم من ذهولها حيال الأسئلة التي أمطرها بها ، فإنها راحت تفكك خيوط ذكريات أوشك النسيان على محوها ، وراحت ترد شيئاً فشيئاً على أسئلته بفمها الأدرد . لم يكن بمقدورها الرد على بعض أسئلته بعد أن نسيت كل شيء عنها تماماً ، وفي بعض الأحيان كانت ذاكرتها تعابثها ، وترددت في الحديث عن بعض الأمور ، وكانت هناك مفارقات في حديثها ، وهي تغمغم وأنفاسها تصفر عبر شفيتها ، الأمر الذي يجعل من المتعذر فهم ما تقول ، وفي بعض الأحيان استحال عليه فهم المعنى الذي تقصده وإن كررت ما تقول مراراً . وكان أقل من نصف ما قالته واضحاً ، وتعين عليه أعمال خياله لاستكمال باقي التفاصيل ، لكنه علم بما يكفي لحسم الأسئلة التي كانت تراود ذهنه حول أمه طوال عقدين من الزمان . قالت العجوز إنها تعتقد أن أمه أرسلت إلى أوساكا في عهد كيو ، أي بين ١٨٦٥ و ١٨٦٨ ، ولكنها قالت إنها وهي التي تبلغ الآن سبعة وستين عاماً ، كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت ، وكانت أمه في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وبالتالي فلا بد أن الأمر كان بعد إصلاحات الميجي في ١٨٦٨ . وبما أن الأمر

كذلك فإن أمه لم تمكث في شيماتشي إلا عامين أو ثلاثة على أقصى تقدير ، قبل زواجها من سليل عائلة تسومورا بأربع سنوات . وخلص من جزئية ما قالت أوريتا إلى أن عائلة كومبو قد عانت من ظروف قاهرة ، ولكن لما كانت عائلة عريقة تعتز بسمعتها ، فقد أخفت بقدر الإمكان حقيقة قيامها بإرسال ابنتها إلى مثل هذا المكان . وحتى بعد أن أصبحت عروساً في عائلة كريمة - وبالطبع خلال فترة تعاقدتها - نادراً ما اتصلوا بها ، معتقدين أن في ذلك من الحرج ما فيه لهم ولها على السواء . والحقيقة أن الفتيات اللاتي يدفع بهن إلى دور الترفيه سواء للعمل كفتيات جيشا أو كعاهرات أو فتيات في مشارب الشاي كن بحكم العادة والعرف يقطعن كل علاقاتهن مع عائلاتهن بمجرد ختم عقود وضعهن في خدمة تلك الدور . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً ليس للعائلة الحق في التدخل في شؤون ابنتها أياً كان المصير الذي ستنهي إليه . غير أن العجوز تتذكر على نحو غامض أن أمها قد زارت أوساكا مرة أو مرتين بعد زواج الفتاة من سليل عائلة تسومورا ، وقد عادت الأم لتتحدث في عجب عن ابنتها التي غدت الآن ربة عائلة لها شأنها وتحيا حياة الرفاه . كما تلقت رسالة كذلك تدعو أوريتو إلى القدوم إلى أوساكا ، لكنها حسبت أنها ليس بمقدورها أن تظهر بشخصها المتواضع في مثل هذا المكان ، كما أن أختها لم تزر كوزو ثانية قط . وهكذا ، فإن أوريتو لم تعرف أختها في سن النضج أبداً . وعقب ذلك مات زوج أختها ، وأعقبه والداها فانقطع كل اتصال مع عائلة تسومورا نهائياً . وقد أشارت أوريتو إلى أختها ، أم تسومورا ، على الدوام بطريقة ملتفة كأن تقول « أمك العزيزة » ، ربما كان ذلك تأديباً منها في حضرة تسومورا ، ولكن من المحتمل كذلك أنها قد نسيت اسم أختها . وعندما سألها عن أواي التي « تمضي كل يوم إلى الجبال ، حيث

يزداد عمق الجليد ، لاستخراج المرنطة « علم منها أنها الابنة الكبرى وأن أوريتو هي الثانية ، أما الثالثة فهي أم تسومورا ، أو سومي . وقد تزوجت أواي من سليل عائلة أخرى ، بينما تبنت العائلة زوج أوريتو وأصبح بالفعل رب عائلة كومبو . وقد ماتت أواي وكذلك زوج أوريتو . أما رب العائلة الجديد فهو يوشيماتسو نجل أوريتو ، وقد كانت زوجة يوشيماتسو هي التي رحبت بتسومورا في الفناء . وخلال حياة أم أوريتو ، لا بد أنها كانت تحتفظ ببعض الأوراق والرسائل المتعلقة بأوسومي ، أما الآن وبعد ثلاثة أجيال فلم يبق شيء . وبعد أن قالت أوريتو ذلك ، بدا أنها قد تذكرت شيئاً ، فقد انبعثت واقفة ، وفتحت باب مزار بوذا المنزلي ، واستخرجت صورة موضوعة بين اللوحات التذكارية ، وتذكر تسومورا أنه سبق له أن رآها من قبل ، فقد كانت صورة فوتوغرافية صغيرة لأمه التقطت لها قبيل موتها . وهو يحتفظ بنسخة منها في مجموعة صور العائلة .

بدا أن أوريتو تذكرت شيئاً آخر ، فقالت :
- نعم ، نعم ، إلى جانب هذه الصورة ، هناك كوتو . وكانت أمي تعتز به كثيراً ، وتقول إنه تذكّار من ابنتها في أوساكا . لم أستخرجه منذ وقت طويل ، وأتساءل عن الحالة التي وصل إليها الآن . كان الكوتو في موضع ما في المخزن أعلى الدار ، فيما قالته . وانتظر تسومورا عودة يوشيماتسو من الحقل لكي يطلعه عليه ، وفي غضون ذلك تناول طعام الغداء في الحى . ولدى عودته إلى الدار ، ساعد الزوجين الشابين في حمل الآلة الموسيقية الرقيقة ، التي كانت مغطاة بطبقة سميكة من الغبار ، إلى الشرفة حيث الضوء الوافر .
كانت الآلة إرثاً متناقضاً مع طبيعة هذه الدار . وعندما أزالوا الغطاء الباهت اللون ، وجدوا كوتو عتيقاً ورائعاً ومطلياً باللك ،

يصل طوله إلى ستة أقدام . كانت زخارف مرسومة باللك تنتشر على الآلة الموسيقية بكاملها تقريباً ، باستثناء « الغطاء الصوفي » الممتد تحت الأوتار . أما « الشطآن » الممتدة على جانبي الآلة فقد زخرفت بمشاهد من « سوميوشي » : فعلى أحد الجانبين رتبت بوابة مزار وجسر محدب في غابة صنوبر وعلى الجانب الآخر رسم مصباح حجري طويل وأشجار صنوبر تعابثها الريح وأمواج تداعب شاطئ البحر ، وحلقت أعداد لا تحصى من طيور الزقزاق حول « البحر » و« قرني التين » ، بينما قرب « الرداء القصبي » وتحت « ورقة السنديان » كان من الممكن تبين شكل ملاك من خلال سحب خماسية الألوان . وقد اسود خشب البولفونية المبطن بفعل الزمن ، بحيث أن اللك والطلاء يفجان العين بنور رهيف واه . أزال تسومورا الغبار عن القماش وفحص تصميم الكوتو . بدا القماش من نسيج شيوزي ، وهو حرير ثقيل له تقليمات أفقية بارزة . على الجزء العلوي من السطح الخارجي رسم شعار هو زهرتا مشمش مزدوجتان باللون الأبيض على أرضية حمراء ، وعلى الجزء الأسفل رسمت حسناء صينية تجلس في برج وتعزف على الكوتو . وعلى أعمدة البرج تدلى لوحان رأسيان ضيقان نقش عليهما بيتان من الشعر الصيني :

إنها تعزف على الأوتار الخمسة والعشرين في ليلة مقمرة .
فيلتم سرب الأوز في الشمال ، وقد شفه الصوت النقي
الحزين .

وظهر على الجانب الآخر للغطاء تكوين يضم أوزات خلفها القمر ، وإلى جواره قصيدة نظمت باليابانية :
حسبتها

سرباً من الأوز
أمشاطاً على الكوتو
نحاكي الدروب الملتفة بالغميم .

غير أن زهرتي المشمش المزدوجتين ليستا رمز عائلة تسومورا ،
وربما كانتا رمز عائلة أوراكادو التي تبنتها أو حتى رمز دار شيماتشي
التي عملت بها . وربما عندما تزوجت من سليل عائلة تسومورا لم
تعد بحاجة إلى هذا الأثر من آثار عملها في دار الترفيه ، فبعثت به
إلى دارها في الريف . ومن المحتمل أيضاً أنه كانت هناك في العائلة
فتاة في سن الزواج في ذلك الوقت قبلت العجوز الكوتو هدية لها .
ومن ناحية أخرى فإن والدة تسومورا ربما قد احتفظت بالآلة الموسيقية
كل السنوات الممتدة منذ عهد دار شيماتشي وتركتها لعائلتها لدى
وفاتها . ولكن أوريتو والزوجين الشابين لم يكن لهم علم . قالوا إنهم
يحسبون أن الكوتو كانت معه رسالة ذات يوم ، ولكنها فقدت فيما
يبدو ، وهم لا يذكرون إلا أن الكوتو جاء من « تلك التي أرسلناها
إلى أوساكا » .

كان هناك صندوق صغير لقطع الكوتو ، يضم الأمشاط وريش
العزف . وكانت الأمشاط مصنوعة من خشب صلب قاتم اللون مطلي
باللك بزخارف تجمع بين الصنوبر والخيزران . وقد بليت الأمشاط
من كثرة الاستخدام . تأثر تسومورا بفكرة أن أمه قد مررتها على
أصابعها الرهيفة . لم يستطع مقاومة دافع يدعوه إلى تمرير أحد
الأمشاط على أصبعه الأصغر . طفا أمام عينيه ذلك المشهد من
مشاهد طفولته ، الذي تعزف فيه امرأة رهيفة في غرفة داخلية مقطوعة
« صرخة الثعلب » مع أستاذها . ربما لم تكن المرأة أمه ولا الكوتو
المستخدم وقتها هو الكوتو الدائل بين يديه ، ولكن ربما عزفت عليه

أمه مرات عديدة ، وهي تغني هذه الأنشودة . حدث نفسه بأنه يود ، لو كان ذلك ممكناً ، إعادة هذه الآلة إلى أفضل حالاتها وأن يطلب من شخص مناسب أن يعزف عليها مقطوعة « صرخة الثعلب » في الذكرى السنوية لوفاة أمه .

كان مزار ايناري الكائن في الحديقة موضع توقيف ، على امتداد أجيال ، باعتباره الحارس الروحي للعائلة ، وهكذا كان بمقدور الزوجين الشابين أن يؤكدوا صحة ما ورد عنه في الرسالة ، ولكن لم يعد في العائلة الآن من يستدعي الثعلب . وكان يوشيماتسو قد سمع في طفولته شائعات تتردد عن أن جده يقوم بذلك في أحيان كثيرة ، ولكن في وقت من الأوقات كف « الثعلب الأبيض مايوبو - نو - شين » عن الظهور ، أما الآن فليس هناك إلا وجر ثعلب قديم في ظل شجرة سنديان وراء المزار . وعندما اصطحب تسومورا إلى الوجود ليراه ، ألفى حبلاً مقدساً يمتد وحيداً عبر الفتحة .

وقعت الأحداث التي سردها عليّ تسومورا في العام الذي توفيت جدته خلاله ، أي قبل عامين أو ثلاثة من اليوم الذي حدثني فيه بالقصة خلال جلوسنا على الصخور في مياتاكي . وكان « الأقارب في كوزو » ، الذين سبق له ذكرهم لي في رسالته إلي هم العجوز أوريتو وعائلتها . فقد كانت أوريتو ، في نهاية المطاف ، خالته ، وكانت عائلتها هي عائلته . ووفقاً لهذا ، جدد منذ ذلك الوقت الارتباط الأسري بينه وبين أقاربه . ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، فقد ساعدتهم على الصعيد المالي ، وبنى داراً صغيرة منفصلة لخالته ووسع نطاق ورشة الورق . وكنتيجة لهذا كان بمقدور عائلة كومبو أن تواصل صناعتها اليدوية على نطاق كبير بشكل ملحوظ .

٦ . شيونها

قلت متسائلاً :

- إذن ما الغرض من هذه الرحلة . هل جئت لترى خالتك ؟

كنا لانزال جالسين على الصخور، ناسيين أن الظلام يلتم حولنا
وثيداً . وقد وصل تسومورا إلى موضع للوقوف في حكايته الطويلة .
قال :

- طيب ، هناك شيء لم أحدثك به بعد .

في الغسق كنا بالكاد نتيين الزبد على المنحدرات وهو يرتطم
بالصخور أسفلنا . لكن كان بمقدوري أن أحس بتسومورا وهو
يتضرع خجلاً لدى قوله هذه الكلمات .

- عندما وقفت خارج السور في دار خالتي للمرة الأولى ، كانت
هناك فتاة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها عاكفة على
صنع الورق . هل تتذكر أنني قلت لك ذلك ؟
- نعم .

- لقد اتضح أنها حفيدة خالتي الأخرى ، أي خالتي أواي ، التي
ماتت . وتصادف وجودها في دار كومبو في ذلك اليوم لتقديم يد
المساعدة في صنع الورق .

وكما ظننت ، زحف رنين الإحساس بالحرج إلى صوت
تسومورا .

- كما سبق لي القول قبلاً ، فهي بصراحة فتاة ريفية ، وليست
بديعة الحسن بحال ، وإذا تعكف على العمل في البرد وفي الماء
على هذا النحو ، فإن يديها تبدوان بعيدتين عن الرهافة بل
ومشقتين على نحو فظيع . ولكن ذلك السطر الذي ورد في الرسالة

لا بد أنه أوحى لي بشيء ما « تشققت أيدينا واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » ؛ لأنني ويا للغرابة استشعرت ودأ وانجذاباً نحو تلك الفتاة ، في اللحظة التي رأيت خلالها يديها الحمراءوين في الماء . ثم إن شيئاً ما في ملامحها يشبه محيا أمي على نحو ما يتبدى في الصور . لا مجال لإنكار أنها تنتمي إلى طراز الفتيات العاملات في البيوت ، بسبب الطريقة التي نشئت بها ، ولكن مع قليل من الصقل قد تغدو أقرب إلى أمي .

- فهمت . إنها ، إذن ، الطبل هاتسوني الخاص بك .

- نعم ، أصبت . . طيب . ما رأيك ؟ إنني أود الزواج منها .

كان اسمها أواسا . فقد تزوجت أوموتو بنت أواي من سليل عائلة من المزارعين تدعى إتشيدا ، تقطن قرب كاشيواجي . وقد ولدت أواسا هناك . ولما كانت عائلتها معوزة ، فقد مضت إلى جوجو للعمل كخادمة بعد إتمامها دراستها الابتدائية ، وعادت إلى بيتها في السابعة عشرة من عمرها لأن عائلتها بحاجة إليها في العمل ، وراحت تقدم يد العون في العمل بالمزرعة . ولكن في الشتاء ، ونظراً لعدم وجود ما تقوم به ، أرسلت إلى عائلة كومبو للمساعدة في صنع الورق . ولسوف تكون هناك هذا العام أيضاً ، ولكنها ربما لم تأت بعد . وقد أراد تسومورا أولاً أن يفتح خالته أوريتو والزوجين الشابين بحقيقة نواياه ، ثم بحسب نتيجة هذه المشاورة ، سيطلب منهم أن يرسلوا إليها طالبين الحضور توأ ، أو يتوجه لزيارتها بنفسه .

- إذن ، فلو أن كل شيء مضى على ما يرام فسوف أتمكن من مقابلة أواسا أيضاً ؟

- نعم . لقد دعوتك لمصاحبتي في هذه الرحلة ، لكي تتمكن

من مقابلتها وإبلاغي برأيك ؛ فظروفنا شديدة التباين بحيث أنني أحس بقليل من التوتر فيما يتعلق بما إذا كنا سنسعد في زواجنا . إنني واثق من أن الأمر سيكون على ما يرام . ولكن . . .

بناء على إلحاحي ، نهضنا من بين الصخور ، حيث كنا جالسين ، واستأجرنا عربة ريكشا إلى مياتاكي . ولدى وصولنا إلى دار كومبو في كوزو كان الليل قد أرخى سدوله . أما فيما يتعلق بانطباعاتي عن أوريتو وعائلتها ومظهر الدار وتسهيلات صناعة الورق ، فربما يكون مما لا يقتضيه المقام أن أكتب عن كل ذلك هنا ، وأشغل حيزاً أكبر مما ينبغي . وسأكتفي بإيراد أمور بقيت عالقة بذاكرتي . لم تكن الكهرباء قد دخلت المنطقة بعد ، ولذا رحنا نتجاذب أطراف الحديث مع العائلة ونحن جلوس إلى جوار مصطلى كبير تحت مصباح زيتي . كانت الدار نموذجاً للكوخ الجبلي الذي يبلغ حد الكمال . وكانوا يستخدمون خشب السنديان من النوعين دائم الخضرة والذي يطرح أوراقه موسمياً ، وخشب التوت في المصطلى . كان خشب التوت يحترق ببطء بالغ ، وتنبعث منه حرارة هادئة ، فيما ذكروه ، وقد راكموا كميات كبيرة منه على النار . وقد دهشت لروعته غير المتصورة في المدينة . بدت عروق الخشب والسقف فوق المصطلى متألقة بلون أسود فائق الروعة في ضوء النار المقرقة ، كأننا مسها الطلاء بقار الفحم لتوها . وأخيراً كانت أسماك الاسقمري من شواطئ كومانو المتربعة على أطباق عشائنا شهية . وعادة ما تسفد هذه الأسماك ، التي تصطاد من شواطئ كومانو على أوراق الخيزران وتجلب عبر الجبال حيث تباع . وخلال الأيام الخمسة أو الستة ، التي تستغرقها هذه الرحلة ، تجفف على نحو طبيعي في الهواء ، وفي بعض الأحيان تنطلق الثعالب بعيداً بالسّمك المجفف ، أو هكذا قيل لي .

في صباح اليوم التالي ، قررت وتسومورا أن يواصل كل منا أنشطة على نحو منفصل ، لبعض الوقت ، فهو سوف يمضي قدماً بذلك الموضوع الذي يهمله كثيراً ، ويقنع عائلة كومبو بمساعدته في ترتيب الزواج . وحتى لا أعرقل مسيرته سأمضي في رحلة تستغرق خمسة أو ستة أيام ، إلى نبع نهر يوشينو ، بحثاً عن مادة لروايتي .

مغادراً كوزو في اليوم الأول ، سأزور قبر الأمير أوجورا ، نجل الأمبراطور جوكا مياما في قرية أونوجاوا ، ثم أعبر ممر جوشا إلى قرية كاواكامي ، وأمضي الليل في كاشيواجي . وفي اليوم الثاني ، سأعبر ممر أوباجامين ، وأبيت ليلتي في كاواي في قرية كيتاياما . وفي اليوم الثالث ، سأزور معبد رايوسين في كوتوتشي ، حيث مقام قصر الملك السماوي وقبر الأمير كيتاياما ، ثم أتسلق أودايجاهارا وأقضي ليلتي في الجبال . وفي اليوم الرابع ، سأمر بينابيع جوشيكي الحارة وأستكشف وادي سانوكو ، ثم إذا تمكنت من النفاد سأمضي لرؤية سهل هاتشيمان والسهل المحتجب ، وأبيت في كسوخ أحد الحطابين ، أو أبلغ شيونوها لأقضي ليلتي هناك . وفي اليوم الخامس سأعود إلى كاشيواجي من شيونوها ، وفي اليوم نفسه أو الذي يليه أعود إلى كوزو . كان هذا هو الجدول الزمني الذي وضعتة لنفسي بعد استشارة عائلة كومبو فيما يتعلق بالمسائل الجغرافية . رتبت للقاءنا لاحقاً ، وتمنيت لتسومورا التوفيق ، وانطلقت في مسيرتي .

وفيما كنت أغادر المكان قال تسومورا إنه قد يمضي إلى دار أواسا في كاشيواجي ، وأوضح لي كيفية العثور عليه ، وطلب مني التوقف هناك ، على سبيل الاحتياط لدى وصولي إلى كاشيواجي في طريق عودتي .

مضت رحلتي وفق برنامجها الزمني على وجه التقريب . وأسمع

اليوم أنه حتى ممر أوباجامين الوعر تعبته الحافلات ، وبمقدور المرء أن يمضي وصولاً حتى كينوموتو في منطقة كاي دون السير على الأقدام . لشد ما تغير العالم منذ قمت برحلتني تلك ! واكبني طقس طيب ، فتمكنت من جمع مواد تفوق ما كنت أتوقعه وانطلقت في رابع أيام رحلتي دونما تحسب للمخاطر أو الصعوبات ، ولكنني حرت في أمري لدى مدخل وادي سانوكو ، وحتى قبل أن أصل إليه كان الناس يقولون لي غالباً : « ذلك هو الموضع الصعب » أو « ماذا ! هل ستمضي إلى سانوكو ؟ » وقد حسبت أنني متأهب لملاقاته . وبناء على هذا ، فقد غيرت برنامجي قليلاً في اليوم الرابع وحجزت غرفة في ينابيع جوشيكي الحارة . وشرعت مستعينا بمرشد لمساعدتي في السير صباح اليوم التالي . كان الطريق يمضي بمحاذاة نهر يوشينو نزولاً من منبعه على جبل أودايجاهارا . وعند موضع يقال له نينوماتا ، حيث يلتقي غدير آخر بالنهر ، انقسم الطريق إلى فرعين ، فرع يمضي مباشرة إلى شيونوها ، والآخر ينحني يميناً ويتغلغل في وادي سانوكو . كان الطريق الرئيسي المفضي إلى شيونوها طريقاً لا موضع للخطأ في الاعتقاد بأنه كذلك ، ولكن الفرع الأيمن كان مدقاً ضيقاً يمتد عبر غابة كثيفة من أشجار الأرز . وزاد الطين بلة أن المطر الذي هطل البارحة جعل الماء يتدفق هداراً في نهر نينوماتا مكتسحاً الجسور الخشبية أو تاركاً إياها متدلّية على نحو خطر ، وهكذا اضطرت إلى القفز من صخرة إلى أخرى عبر الماء المندفع ، وفي بعض الأحيان إلى الزحف على أربع . في المرتقيات العليا لنهر نينوماتا يمتد « نهر أوكوتاما » . ومن هناك عبرنا قاع نهر جيزو ، ووصلنا أخيراً إلى نهر سانوكو . كان الدرب بين الأنهار يضيق على امتداد وجه صخرة هائلة الانحدار . وفي بعض المواضع كان الدرب شديد الضيق بحيث لا يسمح للمرء بوضع قدميه إحداهما إلى جوار

الأخرى ، وفي البعض الآخر كان يختفي كلية . وامتدت قطع أو ألواح من الخشب مع وصلاتها متأرجحة معاً في الهواء تتيح المرور عبر المهاوي . وعلى هذا النحو شق الدرب طريقه الدائري بمنعطفاته والتواءاته على امتداد الصخور . وكان بمقدور أحد سكان الجبال القيام بهذه المسيرة قبل تناول إفطاره ، ولكن الرياضة البدنية كانت هي نقطة ضعفي في المدرسة الإعدادية : العقلة ، السلم ، المتوازيات ، تلك ألعاب كانت على الدوام تجعل الدمع يطفر من عيني . وقد كنت شاباً وقت قيامي بالرحلة إلى يوشينو ، ولست بالبدانة التي أنا عليها الآن ، وبمقدوري في يسر أن أسير عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً على أرض مسطحة ، ولكن ها هنا كان عليّ الزحف على أربع ، بحيث أن مناط الأمر لم يكن مدى قوة ساقي ، وإنما حالتي البدنية بكاملها . وإني على يقين من أن الشحوب غالباً ما نالني إلى حد الزرقة وأن الانفعال طاردني حتى التضرج ، والحق أقول إنه لو لم يكن هناك مرشد بصحبتني لنكصت على عقبي عند جسر نينوماتا الخشبي . فقد أخذني الخجل في وجوده من إتيان ذلك ، ولذا تقدمت في عجز وساقاي ترتجفان . وبناء على هذا ، فرغم أن الألوان التي نثرها الخريف في الوادي كانت رائعة الحسن ، إلا أنني كنت من الانشغال بمواضع أقدامي بحيث لم أرفع عيني عنها إلا حينما يفزعني طائر قرقف صغير عابر بالتحليق قاب قوسين أو أدنى من أنفي ؛ ولذا فإنني يحرصني أن أقول إنني أفترق إلى المؤهلات التي تمكنتني من وصف المناظر الطبيعية بالتفصيل . غير أن مرشدي كان لا يواجه عناء ولا توتراً البتة ، أطبق شفتيه على سيجارة معدة من الطباق المفتت وملفوفة في ورقة من أوراق شجر الكاميليا ، وشق طريقه في يسر على امتداد الدرب الزلق . وخلال مسيره ، راح يحدثني معرفاً بالشلالات والصخور في الوادي الذي يقع أسفلنا على مسافة بعيدة .

قال لي في أحد المواضع : « تلك هي الصخرة التي يطلق عليها اسم جوزينموسو » ثم في موضع أبعد قليلاً أضاف : « تلك هي الصخرة التي تدعى بيرو بيدو » . وبنظراتي المترعة خوفاً إلى بطن الوادي لم يكن بمقدوري التيقن أيهما هي بيرو بيدو وأيها جوزينموسو . لكن دليلي قال لي إنه ينبغي أن تكون هناك صخرتان تحملان هذين الاسمين ، في واد شغله ملك في قديم الزمان ، فقبل أربع أو خمس سنوات أقبل شخص ذو حيثة من طوكيو - ربما كان باحثاً أو أستاذاً جامعياً أو موظفاً حكومياً - لرؤية الوادي . وتساءل هذا الشخص قائلاً : « أ هناك صخرة يطلق عليها اسم جوزينموسو ؟ » فرد مرشدي : « أجل ، يا سيدي ، هناك » وأشار إلى صخرة معينة . « إذن فهل هناك صخرة تدعى بيرو بيدو ؟ » فأجاب مرشدي مشيراً إلى صخرة أخرى « أجل ، يا سيدي ، هناك » . « طيب ، طيب ، في هذه الحالة فلا بد أن الملك السماوي قدم إلى هنا دونما شك » . وانقلب عائداً إلى طوكيو بكثير من التأثر . تلك هي القصة التي رواها لي مرشدي ، ولكنه لم يكن يدري أصل هذين الاسمين الغريبين .

وكان دليلي على معرفة طيبة بالعديد من الأساطير الأخرى كذلك . فالمطاردون الذين أقبلوا من العاصمة ، جاهلين بمقر الملك السماوي ، راحوا ينقبون عنه من جبل إلى آخر . وذات يوم لدي وصولهم بالمصادفة إلى هذا الوادي ، لمحوا الذهب يهل عليهم مقبلاً مع النهر ، فتبعوا مصدر الذهب صعوداً مع النهر ، حتى عثروا على القصر . وتقول قصة أخرى إنه بعد انتقال الملك إلى قصر كيتاياما ، اعتاد الذهاب كل صباح ليغسل وجهه في نهر كيتاياما ، الذي كان يتدفق أمام القصر . وكان بصحبته على الدوام بديلان يشبهانه ، بحيث لا يستطيع أحد معرفة الملك الحقيقي . وسأل

المطاردون عجوزاً قروية تصادف مرورهم بها ، فقالت لهم : « هو ذاك ، هذا الأشهب الأنفاس هو الملك » . وبفضلها تمكن المطاردون من مهاجمة الملك والحصول على رأسه ، ولكن بعد ذلك بأجيال كان نسل العجوز يولدون عرجاً .

في حوالي الساعة الواحدة من بعد الظهر ، وصلت إلى كوخ في سهل هاتشيمان ، حيث مضغت طعام غدائي ، وسجلت هذه الأساطير في كراستي ، كانت المسافة هي سبعة أميال أخرى حتى السهل المحتجب والعودة ، ولكن المعبر كان أكثر سهولة في اجتيازه من المعبر الذي مضيت عبره في الصباح ولكنه رغم ذلك وفي ضوء رغبة رجال البلاط الجنوبي في تجنب ملاحظة الآخرين لهم ، كان فم الوادي مستعصياً على من يحاول الوصول إليه . ومن المؤكد أنه لم تنظم في هذا الموضع قصيدة الأمير كيتايان التي يقول فيها :

هارباً ، ها هنا ألقى عصا الترحال ،

في أغوار الجبال وأستكين

وراء باب من أغصان الأشجار -

فيتوحد فؤادي والقمر .

وخلاصة القول إن سانوكو قد يكون معقلاً للأساطير ، ولكنه ليس ملاذاً للتاريخ . في تلك الليلة مكثت مع مرشدي في دار أحد أبناء المنطقة في سهل هاتشيمان ، ودعينا إلى عشاء من لحم الأرانب . وفي اليوم التالي ، انطلقنا في الطريق ذاته ، عائدين إلى نينوماتا ، حيث افترقت عن مرشدي ، ومضيت وحيداً إلى شينوها . وكنت قد سمعت قبلاً بأن المسافة لا تعدو ميلين ونصف الميل من هنا إلى كاشيواجي . ولكن كانت هناك ينابيع حارة عند حافة النهر ، ولذا مضيت للاستحمام فيها . امتد جسر معلق عبر نهر يوشينو حيث

يتسع مجراه بالدفق الإضافي من مياه نهر نينوماتا . عبرت النهر ،
فألفيت الينابيع على ضفة النهر تحت الجسر مباشرة . ولكنني حينما
تلمست الماء بكفي لم أجده أكثر حرارة من ماء ناله الدفء من أشعة
الشمس . وكانت النسوة الفلاحات منهنمكات في غسل الفجل فيه .

- لا يمكنك الاستحمام هنا إلا في الصيف وحده . أما في هذا
الوقت من العام فإننا نضع الماء في ذلك الوعاء الكبير هناك
ونسخه .

أشارت النسوة إلى وعاء استحمام كبير ممدد على حافة النهر .
وفيما التفت لألقي نظرة ، ناداني أحدهم من فوق الجسر المعلق في
الأعلى قائلاً : مرحباً !

كان تسومورا ، وقد راح يعبر الجسر متجهاً نحوي مع فتاة ، لا
شك أنها أواسا تسير وراءه . تأرجح الجسر قليلاً تحت ثقلهما ،
وتردد صدى وقع خفيهما الخشبيين في الوادي .

لم يقدر لي قط أن أكتب الرواية التاريخية التي أعددت لها ؛
فقد كان هناك من المادة أكثر مما أستطيع تناوله . ولكن أواسا ، التي
رأيتها على الجسر ذاك اليوم ، هي الآن زوجة تسومورا . كانت
الرحلة مثمرة بالنسبة له أكثر مما كانت لي .

ملاحظة حول الثعالب

تتمتع الثعالب اليابانية بقوى سحرية معينة ؛ ذلك أن بمقدورها
اتخاذ هيئة أي شخص أو شيء تشاء ، وغالباً ما تستخدم هذه المقدرة
لإلحاق الأذى بالبشر . وفي مسرحية تانيزاكي الموسومة « ينابيع
الثعلب الأبيض الحارة » ، يسلب ثعلب لب فلاح شاب بالتجلي له
في هيئة امرأة أجنبية جميلة ، فيلقى الفلاح حتفه . ولكن إحدى ضحايا

إيذاء الثعالب للبشر عند تانيزاكي تبدو أسعد حظاً ؛ ففي حكاية نشرت مع « المرنطة » في ١٩٣٢ تحت عنوان « ثعلب يفتن أحد ملتقطي اللك في مقاطعة كاي » يفلح الحطاب المشار إليه في العنوان في الإفلات بجلده، دون أن يلحقه ضرر ولا أذى .

وهناك كذلك ثعالب خيرة . وأشهر الأمثلة على هذه الثعالب يتمثل في الثعلبة الأم في مسرحية الكابوكي الموسومة « أوراق المرنطة » ، فهي زوجة وأم مخلص ، وهي لا تفارق أسرتها البشرية إلا بعد أن ينكشف تنكرها . وهناك ثعلب آخر يخاطب مشاعرنا هو جنكورو الذي يتخذ هيئة تابع يوشيتسوني المخلص تادانوبو في « يوشيتسوني وشجرات الكرز الألف » ، وذلك لكي يتمكن من البقاء قرب الطبل الذي شد عليه جلدي أبويه .

وبعض الناس يحيون تحت حماية خاصة من الثعالب ، على نحو ما يبدو أن الحال عليه بالنسبة لجدي تسومورا . وبشكل أكثر عمومية ، يعتقد أن الثعالب هي رسل إيناري ، رب الحصاد وراعي الفلاحين وصانعي السيوف . وتوجد تماثيل الثعالب على الدوام عند مداخل مزارات إيناري .

والثعالب شديدة الولع بالتمبورا والتوفو المقلي بحيث أنها يمكن استدعاؤها بوضع هذين الطعامين الشهيين خارج الدور . وهي ، كما نعلم في « المرنطة » ، لا تملك كذلك دفعا لإغراء السمك المنجفف .

فهرس

- ٥ - كلمة من المترجم
- ١٢ - مقدمة
- ١٩ - التاريخ السري للأمير موساشي
- ٢٠٣ - المرنة
- ٢٦٨ - ملاحظة حول الثعالب

... «ذات ليلة، حينما مثلت بحضرة مولاية ومولاتي، أمرني الأمير تيروكاتسو بالدنو منه، قال: - مقابل الإبقاء على حياتك، أريدك أن تؤدي دور رجل ميت، وأن تقلد رأساً... إنزلها هنا وابرز رأسك من خلال هذه الفتحة...!»
... ثم التفت تيروكاتسو إلى السيدات:

- عليكن بمعاملته كأنه رأس رجل ميت، لا ينبغي أن تعتقدن أن «دوامي» رجل حيّ!.

تخير ثلاث نساء، وعهد إلى كلٍ بوظيفتها: غسل الرأس، وضع أدوات التجميل عليها، وإصاق لافتة التصنيف بها...